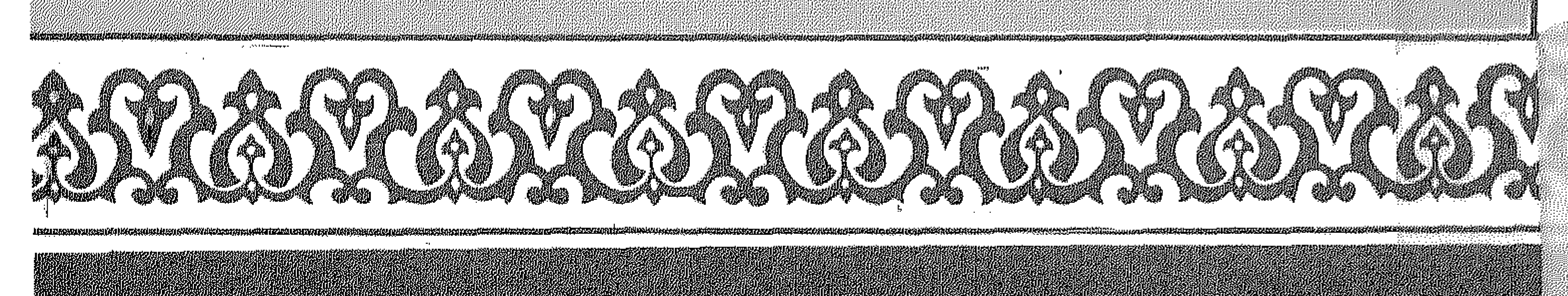
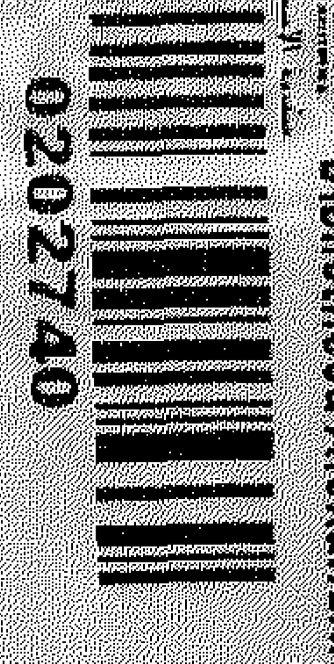
حتمية الحل الإسلامي
(٤)

دكتور يوسف القرضاوي



أعداء الحل الإسلامي





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

دكتور يوسف القرضاوى

حتمية الحل الإسلامي
(٤)

أعداء الحل الإسلامي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

طبع بدار التوفيق النموذجية ت: ٥١١٥٣٠٤

من الدستور الإلهى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢ – ٣٣]

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة: ٢١٧]

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم محمد المجتبى، وعلى آله وصحبه مصابيح الهدى، وكل من بهم اقتدى فاهتدى.

أما بعـــــــــد . . .

فهذا هو الجزء الرابع والأخير من سلسلة (حتمية الحل الإسلامى) الذى صدر الجزء الأول منها سنة ١٩٧١ . ثم صدر الجزء الثانى (الحل الإسلامى فريضة وضرورة) سنة ١٩٧٤ والجزء الثالث (بينات الحل الإسلامى وشبهات المتغربين والعلمانيين) سنة ١٩٨٧م، فتأخر كثيرا، وصدر هذا الجزء (أعداء الحل الإسلامى) سنة ٢٠٠٠ فى ختام القرن العشرين. أى بعد ثلاثة عشر عاما من صدور الجزء الثالث.

والعجيب فى هذا الأمر أنى حين عدت إلى ملفاتى وأضابيرى – وما أكثرها – وجدت الكتاب عندى شبه مكتمل إلا من فصل واحد، وهو ما يتعلق بـ(الصهيونية) ومواد هذا الموضوع عندى، بعضها فى الرأس، وبعضها فى الطرس، وقد كتبت عن الصهيونية وعدوانها على فلسطين والمقدسات الإسلامية أكثر من كتاب، مثل (درس النكبة الثانية) بعد هزيمة ١٩٦٧م و(القدس قضية كل مسلم) منذ سنتين وفصولا مختلفة فى عدد من الكتب، ومقالات متنوعة فى عدد من الصحف.

وكان المفترض أن يصدر هذا الجزء الرابع مع الجزء الثالث الخاص بالرد على الشبهات حول الحل الإسلامى، أو عقبه مباشرة، ولكن مما ابتليت به – وبعض

الابتلاء نعمة – أن هناك مواضيع آنية تطلب منى لسبب أو لآخر، وتفرض نفسها علىّ، فأدع ما كنت غارقا فيه إلى موضوع جديد، يستحوذ على ذهنى وجهدى فترة من الزمن، حتى أفرغ منه.

ثم هناك أمر آخر يؤثر على سيرى فى الكتابة، وهو (السفر) فقد أعيش أحيانا فى موضوع ما، أشحذ له عقلى، وأشهر له قلمى، وأفرغ له وقتى، وهنا تتوارد الخواطر، وتتداعى المعانى، وتسترجع المعلومات، وتتهيأ المراجع، وأبدأ على بركة الله فى الكتابة، وأقطع شوطا جيدا أغبط نفسى به، وأحمد ربى عليه، ثم لا يلبث أن يأتينى سفر قد يطول قليلا، فينقطع حبل فكرى، وينقلنى إلى جو آخر، وقضايا أخرى، فإذا عدت من سفرى، لم أجد المناخ النفسى والعقلى الذى عشت فيه من قبل، وأحتاج إلى جهد ومعاناة ووقت، حتى أستعيد ما كنت عليه من تهيؤ وتحفز، وقد أشغل عن الموضوع السابق بموضوع آخر ولدته هذه السفرية، ولا أدرى هل يبتلى إخوانى من الكتاب والمصنفين بمثل ما أنا مبتلى به، أو هى بليتى وحدى؟ أسأل الله العون من عنده.

على كل حال، لقد فرحت بالمادة التى وجدتها عندى لهذا الجزء، وكأنها ركاز أو لقطة وجدتها، ومن عجائب الأقدار أن بعضها كتب مما يقرب من نحو ثلاثين سنة، وبعضها كتب بخطوط إخوة وزملاء فضلاء لى فى المعهد الدينى الثانوى فى قطر عندما كنت مديرا له. كانوا يساعدوننى بتبييض ما أكتبه بخطى الردئ والسريع، ليكتبوه بخطوطهم الجميلة. وأكثرهم قد انتقل إلى رحمة الله تعالى. أنتهز هذه الفرصة لأذكرهم وأشكرهم، وأدعو لمن لقى ربه منهم بالمغفرة والرحمة والرضوان من الله تعالى، ولمن كان حيا بالحفظ والرعاية والتوفيق.

من هؤلاء الإخوة الأكارم: الشيخ/ **عليوة مصطفى عليوة** العالم الشاعر وكيل المعهد الدينى رحمه الله، والشيخ/ **محمد على الموافى** العالم اللغوى الذى رقّى من المعهد الدينى إلى توجيه اللغة العربية بوزارة التربية، وقدر له أن يصاب

فى حادث سيارة، انتهى بوفاته رحمه الله، والأخ الداعية الشيخ/ **مصباح محمد عبده**، الصديق الوفى الذى وافاه الأجل فى الدوحة رحمه الله، والأخ العالم الداعية الشيخ/ **على محمد جماز**، الذى تولى إدارة المعهد بعدى، ثم عمل معى مدرسا بكلية الشريعة رحمه الله، والمعلّم المتميز الأستاذ/ **رشدى عبد الغنى المصرى**، الذى نقل إلى توجيه اللغة العربية، ثم أحيل إلى التقاعد، وسافر إلى مصر، فإن كان حيا فإنى أسأل الله أن يحفظه ويرعاه، وإن كان ميتا فأدعو الله له بالمغفرة والرحمة وأن يخلفه فى أهله وولده بخير. والأستاذ/ **أحمد محمد الصديق**، الأديب الشاعر المعروف حفظه الله وسدد خطاه.

ولقد وجدت بعض المعلومات قد أصبحت قديمة، فاجتهدت أن أحدثها ما استطعت، وربما أبقيت على بعضها، فليعذرنى القارئ الكريم.

وقد أبقيت على بعض المادة الموجودة عمدا، لأنها تمثل مرحلة لا ينبغى أن ننساها، كما فى الحديث عن (الشيوعية) أو (الماركسية) فقد كتبت ما كتبت عنها يوم كانت الشيوعية تحكم الاتحاد السوفيتى، وعددا من أقطار أوروبا الشرقية، وبعض البلدان الإسلامية، مثل اليمن الجنوبى، وألبانيا، وكان لها أنصارها من (دعاة الماركسية) أو اليسار فى كل مكان فى العالم، ومنه بلادنا العربية والإسلامية.

ولقد تغير الوضع الآن، وانهار الاتحاد السوفيتى، وسقط حكم الشيوعية فى روسيا نفسها، البلد الأم للشيوعية، وفى أوروبا الشرقية، ومنها بلاد إسلامية، مثل (البوسنة والهرسك) وكذلك (كوسوفا) وسقطت الشيوعية أيضا فى اليمن الجنوبى وألبانيا، وانتهت إلى غير أمل فى العودة.

ولكن بقيت الشيوعية فى بلد كبير كالصين، وبقى حكم الشيوعيين فى الجمهوريات الإسلامية التى كانت جزءا من الاتحاد السوفيتى، فقد اتفق الغرب والشرق على إبقاء الحكم الشيوعى فيها، خشية أن تكون الصحوة الإسلامية هى الوارثة، وبقى كثير من الماركسيين القدماء يدافعون بجَلَد عن الماركسية

الساقطة فى بلادها، ويزعمون ببجاحة أن هذا السقوط إنما كان للتطبيق، وليس للنظرية.

على أن الشيوعيين ما زالوا يكوّنون حزبا قويا داخل روسيا، ولا يبعد أن تأتى الفرصة يوما لهذا الحزب ليثب على الحكم، ويمتلك أزمّة السلطة بيديه، وقد عاد بعض الأحزاب الشيوعية فى أوروبا للحكم مرة أخرى بعد سقوطه.

من أجل هذا، أبقيت على فصل (الشيوعية) بوصفها عدوا دائما لرسالة الإسلام، وللحل الإسلامى.

ومثل ذلك فصل (الاستعمار) فقد يتوهم بعض الناس: أن الاستعمار قد ولى عهده، وحمل متاعه، ورحل إلى غير رجعة، والواقع أن الاستعمار باق بصورة وأخرى، ولكنه غيَّر أساليبه السالفة، وغير شكله القديم، ولم يعد يحتاج إلى احتلال الأرض، والتحكم المباشر، بل بات يحكم من وراء ستار، بالنصائح الملزمة، والرغبات التى هى فى حقيقتها أوامر، والإشارات التى لها حكم العبارات، والتلويحات التى لها قوة التصريحات، وربما أكثر منها.

هذا هو ما يجرى عليه الاستعمار الجديد، الاستعمار الإمبريالى الأمريكى المتجبر، المستكبر فى الأرض بغير حق، الذى يقول ما قال قوم عاد: من أشد منا قوة؟ أو ما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى!

ولقد قلنا: إن الاستعمار يغير لونه كالحرباء، ويغير جلده كالثعبان، ويغير وجهه كالممثل القدير، ويغيّر اسمه كالمزوّر المحتال، ولكنه هو هو، وإن غيّر صورته، وبدّل اسمه وعنوانه.

ومن أسمائه الجديدة والشهيرة والمروجة اليوم (العولمة) بمعناها السياسى، ومعناها الاقتصادى، ومعناها الثقافى.

على أن هذا الاستعمار قد يستخدم القوة العسكرية عندما يريد، كما رأينا ونرى إلى اليوم من ضرب ليبيا، وضرب السودان، وضرب أفغانستان، وضرب

العراق، وفرض الحصار عليه، وتجويع شعبه، وإماتة أطفاله، لعدم خضوع هؤلاء للاستعمار الجديد، والتمرد على أوامره، وليس لمجرد عمله الأحمق الظالم باحتلال الكويت. فقد كان وراء إغرائه باحتلالها.

بل نرى الأمريكان ينشئون لهم مرتكزات عسكرية في عدد من البلدان، يخزنون فيها معداتهم، ويشيدون فيها منشآتهم، ويضعون عليها بعض جنودهم، كما في بعض بلاد الخليج، وإن كان هذا في الظاهر برضا حكام هذه البلدان واتفاقهم، والواقع يقول: إنه منطق القوة والجبروت والاستكبار هو الذى فرض عليهم أن يعلنوا القبول، لأنهم لا يملكون أمام الفرعون المتأله أن يقولوا: لا.

وأرجو أخيرا أن يكون هذا الجزء متمما للأجزاء الثلاثة الأخرى، ومكملا للحقيقة التى أردت كشف القناع عنها للقارئ المسلم، حتى تتضح له الصورة بكل جوانبها.

فيعرف أولا: ماذا جنت الحلول المستوردة، من الغرب أو الشرق على أمتنا؟.

ويعرف ثانيا: أن الحل الإسلامى فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، ويعرف معالم هذا الحل وشروطه وخصائصه وآثاره.

ويعلم ثالثا: الشبهات التى يثيرها من يثيرها حول الحل الإسلامى من العلمانيين والمتغربين، وأن لدى الإسلام من البينات ما يفندها ويرد عليها بالحجج القاطعة.

ويعلم رابعا وأخيرا: من هم خصوم الحل الإسلامى وأعداؤه الذين يقفون فى وجهه، ويزرعون العقبات فى طريقه، ويجتهدون فى التشويش عليه، وتشويه صورته، والتشكيك فى صلاحيته.

وقد عرفنا فى هذا الجزء هؤلاء الأعداء الأساسيين، وهم: الاستعمار، والصهيونية، والشيوعية، والحكام المنافقون وعبيد الفكر الغربى، والمترفون

والمتحللون. وقد تحدثنا عن كل عدو من هؤلاء فى فصل خاص. وعرفنا لماذا يعادون الحل الإسلامى، والمنهج الإسلامى، ونحن نوقن أنه لا بديل عن هذا الحل، فهو الحل الأول، والحل الأخير، على أن نحسن فهمه، ونحسن تطبيقه، ونعدّ الأمة لحمل رسالتـــــه.

فالحل الإسلامى ليس عصا سحرية، وليس يعمل من خلال خوارق سماوية، إنما يعمل من خلال إرادة الأمة وقدرتها على العمل والإنفاق، والبذل والعطاء، واستعدادها لأن تغير ما بأنفسها حتى يغير الله ما بها، وفق القانون الإلهى الذى سجله القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

والحمد لله أولا وآخرا.

يوسف القرضاوى

الدوحـــة

ذو الحجة ١٤٢٠ هـ

مارس (آذار) ٢٠٠٠ م

أعداء الحل الإسلامى

إن الجماهير المسلمة فى كافة بلاد الشرق الإسلامى تريد الحياة فى ظل الإسلام، وتحت راية القرآن، وتتطلع إلى اليوم الذى تعود فيه إلى الإسلام، أو يعود إليها الإسلام. الإسلام النقى من الزوائد والبدع والشوائب التى كدرت صفاءه، الإسلام كله بلا تفتيت ولا تجزئة لتعاليمه وأحكامه، الإسلام عقيدة وعبادة وخلقًا فى حياة الفرد، وشريعة توجه الأسرة وتحكمها، ومنهاجا يصبغ حياة المجتمع كلها بصبغة الله ﴿ **ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ ويقيم العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية على أسس القانون الإسلامى، والتوجيه الإسلامى، منهاجًا ينفخ فى الحياة كلها من روح الإسلام، ويبنى تصورات الأفراد وسلوكهم على دعائم الإسلام.

كم نسبة الذين يريدون العودة إلى حكم القرآن، وهدى الإسلام؟ إن الذى عرف الشعوب الإسلامية عن كَثَب، وخالط أهلها فى مدنهم وقراهم، فى حياتهم الخاصة والعامة، يدرك أن الدين هو الأمر الأول فى حياة هذه الشعوب، وأنها لا ترضى بالإسلام بدلا، ولا تبغى عنه حولا.

صحيح أنه لم يحدث فى أى بلد فى العالم الإسلامى – باستثناء إيران – استفتاء على المبدأ الذى يحكم به المسلمون ويرجعون إليه فى شئون حياتهم: أيحكمون بما أنزل الله أو بما استورده الحكام من الغرب والشرق؟ ولكن حدثت أشياء تشير إلى اتجاه الأمة فى مناسبات شتى.

سأضرب مثلين من مصر التى يزعم زاعمون أن شعبها تحول فى وقت من الأوقات إلى مجتمع اشتراكى!!.

المثل الأول: يوم قام الأستاذ الشيخ محمد الغزالى فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية – كما يسمونها – وهو مؤتمر ضم عدة ألوف من أبناء مصر المنتخبين من دوائرهم وبلادهم، بعد أن أبعدت حكومة الثورة كل العناصر «الرجعية» التى يخشى منها، أو لا يرغب فيها، عن طريق ما سموه «العزل السياسى» أقول: قام

الشيخ الغزالى فى المؤتمر يدعو إلى تطهير البلاد وتحريرها من سيطرة الاستعمار العسكرى، وذلك بالعودة إلى (التربية الإسلامية) التى تصوغ الأجيال الناشئة وتوجهها وفقًا لفكرة الإسلام، وآداب الإسلام، وإلى (الشريعة الإسلامية) التى تصبغ الفقه والقانون والإدارة وسائر التقاليد والأوضاع بصبغة الإسلام.

فماذا كان موقف أعضاء المؤتمر من هذه الدعوة؟ ماذا كان موقفهم حين سمعوا كلمة الغزالى، وهى تدعو إلى نظام غير النظام الذى تتبناه الحكومة التى دعتهم، وهيأت لهم هذا المؤتمر، ومعها سيف المعز وذهبه؟؟.

لقد غلبت الفطرة الإسلامية الأصيلة فى شعب مصر على كل المخاوف التى تتراءى أشباحها فى مثل هذا الموقف وصفق المؤتمرون للكلمة الإسلامية تصفيقًا طويلا حارا مخلصا، غاظ كثيرين من عبيد الغرب والشرق، ممن لم يصلّوا لله ركعة، ولم يصوموا له يوما، ولم يعرفوا عن الإسلام شيئًا. اللهم إلا مناظر فى الطريق العام، أو ذكريات من التاريخ القديم.

ومن هؤلاء الصحفى المصرى المعروف « محمد التابعى » الذى كتب بعدها فى صحيفة « أخبار اليوم » يقول: « أكتب اليوم كلامًا أعرف أنه سيغضب الكثيرين، ولكنه حق، أنا لا أدافع هنا عن منكر خبيث وإنما أدافع عن حرية العقيدة التى نص عليها مشروع « الميثاق ».

« ولقد صفق أعضاء المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، صفقوا طويلا للعبارات التى جاءت فى مشروع الميثاق عن حرية العقيدة، واحترامها، ثم عاد نفس السادة أعضاء المؤتمر وصفقوا طويلاً لفضيلة الشيخ محمد الغزالى، وهو يقول كلامًا يجافى حرية العقيدة على خط مستقيم « وعندما أقول: « صفق الأعضاء » فأنا أعنى غالبية الأعضاء، وقد قدرتها بثلاثة أرباع الحاضرين، ولكن عضوًا بالمؤتمر صحَّح لى الرقم وقال: بل قل تسعة أعشار الحاضرين!!.

« تسعة أعشار أعضاء المؤتمر كانوا مع فضيلة الأستاذ الغزالى الذى استطاع أن يكسبهم إلى جانبه عندما استثار نخوة الرجولة فيهم بحديثه عن الفتنة التى

تمشي في الشوارع عارية السيقان والصدر والظهر، وعندما استثار فيهم القوة الدينية بحديثه عن وجوب تحريم الخمر – مثل المخدرات – ووجوب الرجوع إلى أحكام ديننا الحنيف، دين الإسلام في سائر المعاملات والعقوبات وأن من قتل يُقتل . . . إلخ».

ولا يعنيني هنا من تسجيل هذا الكلام المخالف صراحة لقواطع الإسلام إلا أن ٩٠٪ من أعضاء مؤتمر شعبي منتخب عزلت عنه «العناصر الرجعية» المعارضة لسياسة الثورة – كانوا مع كلمة الإسلام، وشريعة الإسلام، ومنهاج الإسلام.

وإذا كان التابعي يقول في مقالته تلك: إن في البلد مليونين ونصف مليون من المواطنين الذين ينتمون إلى عقائد دينية أخرى، فكيف نفرض عليهم شريعتنا؟ تحرم عليهم الخمر مثلا . فهذا منطق مرفوض.

إن مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين أو أربعة أو خمسة لا يجوز أن تحكم هي على ستين مليوناً، إن الأقلية يجب أن تتبع الأكثرية كما هو مفهوم الديمقراطية . وإلا كان معنى ذلك: أن الأقلية تفرض دكتاتورية على الأكثرية .

على أن الإسلام يحترم عقائد الأقلية وشعائرها، ويصون حرماتها ومقدساتها الخاصة، كما بينا ذلك في موضعه [1] . وليس من العقائد والشعائر شرب الخمر ولا التعامل بالربا، ولا إباحة الزنى . هذا مع أن من الفقهاء من أجاز لهم شرب الخمر في قراهم وأحيائهم خاصة .

والمثل الثاني شبيه بهذا المثل . إنه تصفيق طويل حار من أعضاء الاتحاد الاشتراكي المصري في يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ عندما تحدث الرئيس المصري – جمال عبد الناصر – عن القيم الدينية والمبادئ الدينية، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وقد سمع التصفيق كل من فتح المذياع في تلك الليلة .

علام يدل هذا المثل وذاك؟

---

(١) انظر: فصل (الأقليات الدينية والحل الإسلامي) من كتابنا (بينات الحل الإسلامي) وكذلك كتابنا (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) .

إنه يدل على أصالة الإسلام وعمقه فى ضمير جماهير الشعب، ويوم يتاح للشعوب استفتاء حر نزيه، سيعرف الذين حكموا وظلموا أى منقلب ينقلبون.

وإذا كانت الشعوب المسلمة وجماهيرها المؤمنة تريد الحل الإسلامى وتنفر من غيره فمن هم - إذن - الذين يقفون فى وجه هذا الحل، ويعترضون سبيله ويشوشون عليه وعلى دعاته بكل ما يملكون وما يستطيعون؟؟

مَن هؤلاء الذين يعادون الإسلام فكرة ورابطة ومنهج حياة، فيعادون بذلك الله الجليل فوق عرشه! والنبى الكريم فى قبره! وأبطال هذه الأمة وعلماءها فى أربعة عشر قرناً من الزمان؟! من هؤلاء الذين يتحدّون مشاعر أكثر من مليار مسلم متفرقين فى القارات، يرون أن أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم هى الإسلام؟!

من هؤلاء المعارضون فى الداخل والخارج؟ وما حجتهم؟ وما مصلحتهم فى محاربة ما ارتضاه الله لعباده المسلمين وما رضيه المسلمون لأنفسهم؟.

إن هذا البحث هو إجابة مفصلة عن هذا السؤال حتى يعرف المسلم الواعى:

من هم أنصار الله؟ ومن هم أعداء الله؟

* * *

(١)
الاستعمـــــار

- لماذا يعادى الاستعمار الإسلام؟
- عامل الخوف
- عامل الحقد
- عامل الجهل
- عامل الطمع
- أساليب الاستعمار فى الكيد للإسلام
- مخاوف الاستعمار من الصحوة الإسلامية

الاستعمـــار

إن أول عدو للحل الإسلامى، وأقدم معارض لتحكيم شريعة الإسلام فى المجتمع، وسيادة فكرته على الحياة هو: الاستعمار.

وكلمة «الاستعمار» عندى تشمل الاستعمار الغربى والاستعمار الشرقى ... الاستعمار الرأسمالى والاستعمار الشيوعى. فكل منهما يحمل المخالب والأنياب التى يمزق بها فريسته بغيا وعدوانًا وعلوا فى الأرض. ولا خلاف بينهما إلا فى العناوين، وإن كان الاستعمار الثانى أشد وأنكى من الأول، فلم يحدث أن دخل هذا بلداً وخرج منها، لا بالمفاوضة ولا بالثورة.

ومع هذا، فلهذا الاستعمار حديث مفرد يدخل تحت العنوان الذى اشتهر به، وهو «الشيوعية» أما الذى أعنيه بالاستعمار هنا خاصة، وأتحدث عنه، فهو الاستعمار الغربى الذى غزا أوطان المسلمين فى غفلة منهم، وضعف من حكامهم، وتفرق من شعوبهم ، وسيطر علي مقدراتهم وتحكم في مقاليد أمورهم، يأخذ ما يشاء كما يشاء، متى شاء، ويعطى ما يشاء لمن شاء، كيف شاء. قد خلع على نفسه رداء الألوهية فى أرض التوحيد والموحدين، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون!!

وعداوة الاستعمار للإسلام، ومقاومته للحل الإسلامى: قضية من الظهور والوضوح بحيث لا تحتاج إلى برهان. وحسبنا من ذلك قراءة بعض ما يكتبه الفريقان اللذان يعتمد عليهما الاستعمار فى غزوه الفكرى والاجتماعى للشرق المسلم وهما: «المبشرون» و«المستشرقون» ولا فرق بين المبشرين والمستشرقين إلا أن الأولين يلبسون مسوح الدين، والآخرين يلبسون مسوح العلم.

وأكثر هؤلاء وأولئك كاذبون، فإنما هم خدم للاستعمار، وتحقيق أغراضه في السيطرة، والتمكين من بلاد الإسلام، وأمة الإسلام.

إن عداوة الاستعمار للحل الإسلامي لا تخفى على دارس أو متأمل، ولكن الذي يحتاج إلى معرفته هو: تجلية أسباب هذه العداوة وبواعثها حتى يتبين المسلم: لماذا يعادون الإسلام، ويقفون بكل قوة في وجه أية محاولة لإعادة القيادة للإسلام، ولإقامة دولة الإسلام في أي مكان؟

* * *

العوامل التى دفعت
الاستعمار لمعاداة الإسلام

والذى يدرس علاقة الاستعمار بالشرق الإسلامى يتبين أن هناك عدة عوامل نفسية، هى التى تدفع الاستعمار إلى اتخاذ موقف العداء العلنى والخفى للإسلام، ورسالته ودعاته، والعمل على عزل الإسلام عن الحياة، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

هذه العوامل مركبة من: الخوف، والحقد، والطمع، والكبر، والجهل. وسنفرد كلا منها بحديث:

● **عامل الخوف وأسبابه:**

١ – فأما الخوف فإن الاستعمار يريد أن تستمر سيطرته على ديار الإسلام وأن تظل له السيادة المادية على أرضه، والفكرية على عقول أهله، وأن تبقى عجلة القيادة العالمية بيده.

وانتفاض الإسلام وصحوته – باعتباره عقيدة وشريعة وحضارة وأخوة – يهدد الغرب فى ذلك كله.

فالإسلام – كما قال المستشرق جب – ليس مجرد مجموعة من القوانين الدينية، ولكنه حضارة كاملة.

وخطورة هذه الحضارة: أنها حضارة واحدة تضم أمة الإسلام الكبرى فى مشارق الأرض ومغاربها، على اختلاف المكان واختلاف الزمان، فلم تستطع العوامل الإقليمية المختلفة أن تؤثر فيها، أو تنال منها على تعاقب الأزمان، وتباين الأصقاع، مما جعل العالم الإسلامى كتلة سياسية خطيرة، ذلك العالم المترامى الأطراف الذى يحيط بأوروبا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم [١].

---

(١) انظر كتاب: الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين ج ٢ ص ١٩٨.

إن الإسلام (عقيدة انقلابية) شاملة تفرض نفسها على حياة الإنسان من ساعة يولد إلى أن يوضع فى القبر، ولا تقبل الخضوع لأى أيديولوجية أخرى غربية أو شرقية، دينية أو مدنية.

ومن خصائص هذه العقيدة: أنها تربى أتباعها على الاعتزاز بها ورفض التبعية لغيرها، كما تربيهم على معانى القوة والجهاد فى سبيل الله الذى يعده المسلمون فريضة مقدسة من أعظم الفرائض، وعبادة من أفضل العبادات.

هذا يشير إلى أن الوحدة بين شعوب المسلمين - مهما تختلف أوطانهم وألوانهم ولغاتهم - فريضة إسلامية يأثمون إذا فرطوا فيها. وجذور هذه الوحدة قائمة فى الأخوة الإسلامية العميقة التى تربط بين المسلمين فى مختلف أقطارهم، وتوحد مشاعرهم وعواطفهم، وتذوب فى حرارتها كل الحدود والفوارق التى تفصل بين الناس.

ومن أبرز الأمثلة على مخاوف الاستعمار من قوة الإسلام الكامنة. ومن وحدة أمته الكبيرة: مقال قديم كتبه المستشرق الفرنسى هانوتو مستشار وزارة الاستعمار الفرنسية ونشرت ترجمته صحيفة المؤيد فى القاهرة سنة ١٩٠٠ وكان له ضجة كبيرة فى حينه، ورد عليه الشيخ الإمام محمد عبده رداً مشهوراً.

تحدث هانوتو فى مقاله: كيف اخترق المسلمون - أبناء آسيا - شمال القارة الإفريقية بسرعة لا تجارى، كما تحدث عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية، وتحقق الظفر للأخيرة فى القرن التاسع عشر، وقال: ولكن لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية (استانبول) ومن جهة أخرى بمدينة «فاس» فى المغرب الأقصى، معانقاً بذلك الغرب كله ... إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الإسلام، بل صارت فى صدر الإسلام وكبده.

ثم قال: ليس الإسلام فى داخلنا فحسب، بل هو خارج عنا أيضاً، قريب منا: فى مراكش ... فى طرابلس الغرب ... فى مصر ... فى آسيا، حيث لا يزال قائماً فى بيت المقدس، ناشرا أعلامه على مهد الإنسانية مقر المسيح. وقد

انبعثت منه شعبة فى بلاد الصين، فانتشر فيها انتشارا هائلا، حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليونا من المسلمين الموحدين فى الصين، لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لبوذا.

وليس هذا بالأمر الغريب، فإنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده منتشرا فى الآفاق، فهو الدين الوحيد الذى دخل فيه الناس زمراً وأفواجاً. وهو الدبن الوحيد الذى تفوق الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه.

ثم إن هذا الدين قائم الدعائم، ثابت الأركان فى أوروبة عينها، أعنى فى الآستانة الطيبة، حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين!.

إلى أن يقول: وخلاصة القول: إن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة، بها يديرون أعمالهم، ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التى تتحرك بحركته وتسكن بسكونه، ومتى اقتربوا من الكعبة البيت الحرام .. من زمزم الذى ينتبع منه الماء المقدس .. من الحجر الأسود المحاط بإطار من الفضة .. من الركن الذى يقولون عنه إنه «سرة العالم» وحققوا أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على مبارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالم، للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام، اشتعلت جذوة الحب الدينية فى أفئدتهم، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفا صفوفًا، وتقدمهم الإمام مستفتحًا العبادة بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيعم السكوت والسكون وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف (١) من المصلين فى تلك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم، ثم يقولون بصوت واحد:

---

(١) يبلغ عدد الطائفين والراكعين والساجدين من حجاج بيت الله الحرام فى هذه السنين أكثر من مليونين وفى بعض السنوات ثلاثة ملايين. فليمت من شاء بغيظه.

« الله أكبر » ثم تعنو بعد ذلك جباههم قائلين: « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة.

ثم يقول:

لا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجى الذى تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن إسلامنا (فى تونس والجزائر) ولا علاقة له به، لأنه وإن كانت البلاد (الإسلامية) التى تحتلها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة « دار إسلام » وإنما هى « دار حرب » فإنها لا تزال عزيزة موقرة فى قلب كل مسلم صحيح الإيمان. والغضب ما زال يحوم حول قلوبهم، كما تحوم الأُسْد حول قفص حبس فيه صغارها، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة، ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليهم من بينها.

ثم ينتهى إلى النتيجة بقوله:

« يؤخذ مما تقدم: أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنيات الفتوح، وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم، ولكن لم تثبط هممهم، نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يدبرون هذه المقاومة، ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامى بأسره كافلة بالرئاسة [1] ... ».

إن هذا المقال بأسلوبه المباشر المعبر، وعباراته الصريحة البليغة، ليبين لنا كيف ينظر رجال الاستعمار إلى الإسلام: وكيف تزعجهم الروابط الوثيقة التى يلمسون آثارها ومظاهرها بين المسلمين.

فكيف بهذه الروابط إذا تطورت إلى وحدة جامعة فيدرالية أو كونفدرالية؟! وإن أقرب ما تكون هذه الوحدة إلى الظهور والتحقق حين يعود المسلمون إلى الحل الإسلامى. فهناك تؤدى وحدة المناهج والأنظمة مع

---

(١) انظر: مقالة (هانوتو) ورد الإمام محمد عبده، عليها فى كتاب (الإسلام والرد على منتقديه) للأستاذ الإمام.

وحدة العقيدة إلى الوحدة السياسية الكبرى، متوجة بالخلافة الإسلامية العظمى.

وهذه كلها أشباح مخوفة تقض مضاجع الاستعمار، وتطرد النوم من أجفانه، وقد صرح بهذه المخاوف بعض الكتاب والمستشارين الذين يعملون فى خدمة الاستعمار من المبشرين والمستشرقين وغيرهم من السياسيين.

تقول مجلة «العالم الإسلامى» الإنجليزية على لسان كاتب اسمه «أشعيا يومان»:

«إن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى. ولهذا الخوف أسباب، منها: أن الإسلام منذ ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل دائمًا فى ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد، ولم يتفق قط أن شعبًا دخل فى الإسلام ثم عاد نصرانيًا».

ويقول القس «كالهون سيحون»:

«إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السُّمْر، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية، ولذلك كان التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين فى نور جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والتمركز فيها».

ويقول «لورانس براون» فى كتابه: «الإسلام والإرساليات»:

«إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير».

وقد قال فى كتاب آخر أصدره سنة ١٩٤٤:

«الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قدرته على التوسع والإخضاع وفى حيويته. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى».

وهذه العبارات الواضحة الصريحة فى غنى عن التعليق عليها. إنها تجسد مخاوف الغرب المسيحى من هذا الشرق الإسلامى. ومخاوفه تتمثل فى انطلاق الإسلام من قمقمه، فنظام الإسلام العادل ومنهجه الوسط، وحيويته البالغة، وقدرته على الانتشار والتوسع، واعتباره الجهاد من فرائضه وقدرته على توحيد الشعوب الإسلامية، وتجميع آمالها، ودفعها إلى التحرر من السيطرة الأجنبية — كلها أشباح مخيفة مقلقة للاستعمار.

ومما زاد من خوف الاستعمار من دعوة الإسلام، وعودة منهجه إلى الحياة: أن الحركات القوية التى قاومته فى العالم الإسلامى كله، وصمدت فى وجهه، واستعذبت الموت فى قتاله، كانت حركات إسلامية فى حقيقتها، وإن استغل ثمرات جهادها بعد ذلك القوى غير الإسلامية من لصوص الحركات، وسراق الثورات.

حركة المقاومة للاحتلال الفرنسى فى حملة نابليون على مصر، إنما قادها علماء الأزهر وزعماء الدين، ولا غرو أن صب الفرنسيون نقمتهم على الجامع الأزهر، فدخلوه بخيولهم متحدّين مشاعر المسلمين.

حركة المقاومة للإنجليز فى السودان إنما قادها، وأجج نارها زعيم دينى هو محمد المهدى الكبير، وأتباعه من المتدينين [1].

---

(١) ولقد عرف الغربيون وجه هذه الثورات وروحها الإسلامى، فقاوموها مقاومة صليبية عنيدة، ووقفوا بكل قواهم فى سبيل نجاحها.

وها هو مؤرخ أمريكى حديث هو «ألن مورهيد» يحدثنا عن فتح الغربيين لأفريقيا، ويجعل فى كتابه فصلين: أحدهما تحت عنوان «التمرد المسلم» والثانى بعنوان «النصر المسيحى» ويذكر فى الفصل الأول رأى القائد غوردن فى قوة المهدى، وخشيته من اندلاع مثلها فى كل مكان:

«إن الخطر الذى يجب أن نخشاه ليس زحف المهدى شمالا عبر وادى حلفا، إنه لأمر بعيد الاحتمال أن يتجه شمالا. إن الخطر من طبيعة مختلفة تماماً. إنه ينبعث من وجود قوة محمدية منتصرة عند حدودكم. الأمر الذى سيثير الشعوب التى تحكمونها ... فى كل مدن مصر سيقوم إحساس بأن ما يفعله المهدى يمكن أن يفعله المصريون، وكما طرد الدخلاء الكافرين يمكنهم =

وحركة المقاومة للحلفاء واليونان فى تركيا كانت حركة إسلامية، كان هدفها جهاد الكفار، وتحرير أرض الإسلام، وإن جنى ثمرتها بعد ذلك الكماليون الملحدون.

وحركة المقومة للإيطاليين فى ليبيا على يد «عمر المختار» وأعوانه كانت حركة إسلامية.

وحركة المقاومة للأسبان فى ريف مراكش بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى الذى أقلقت قوته جميع الدول الأوروبية، فتراكضت لمساعدتهم كانت حركة إسلامية.

ولقد علق المبشر «وليم كاش» على جهاد الأمير عبد الكريم فى كتابه «العالم الإسلامى فى ثورة» بهذه الكلمات المغيظة الحانقة:

«لقد التقى الأسبان بالحماسة العربية القديمة، واضطروا إلى أن يجلوا من مناطق نفوذهم موقعا بعد موقع، حتى أصبحوا يحاربون وظهورهم إلى البحر مباشرة، وعلى وشك أن يخرجوا من شمال إفريقيا مرة واحدة. وهكذا نجد للمرة الثانية منذ الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) أن دولة أوروبية ينقلب عليها جيش مسلم، فلقد اتفق أيضا لثلاث سنوات خلت أن مصطفى كمال طرد اليونان من آسيا الصغرى، وتحدى بذلك سلطان أوروبة القوى» [(١)].

وقد ذكرنا أن حركة طرد اليونان لم تكن فى حقيقتها إلا حركة إسلامية قطف ثمارها العلمانيون.

= أن يفعلوا نفس الشئ .. وليست انجلترا وحدها التى ستواجه الخطر .. إن نجاح المهدى قد أثار المخاطر فى آرابيا وسوريا» عن كتاب «الغزو الفكرى» لجلال كشك ص ٣٥.

ويقول «الن مورهيد» فى فصل «النصر المسيحى»:

«لقد انتهت هذه القلاقل (يقصد ثورة عرابى والمهدى) كما رأينا بالهزيمة الساحقة للإسلام علي ضفاف النيل، ولكن ثبت أنها هزيمة مؤقتة ليس إلا ، ومنذ سنة ١٩٠٠م وهناك تقدم منتظم للإسلام في شرق ووسط أفريقيا وفى الوقت الحاضر يكسب المسلمون مؤمنين جددا أكثر من المسيحيين كما قال «رولاند أوليفر» إنهم يكسبون السباق» عن الغزو الفكرى ص ٣٧.

(١) التبشير والاستعمار ص ١٢٩.

وحرب التحرير الجزائرية التى انتهت بالنصر، وخر فيها مليون ونصف المليون شهداء، كان الدافع الأول لها والروح المحرك لمجاهديها هو الإسلام. لقد رفع الفرنسيون شعار « جزائر فرنسية » فكان رد الجزائريين: بل جزائر مسلمة! كان نشيد كل جزائرى منذ عهد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

.ولقد أدرك رجال السياسة الغربيون أن الإسلام وراء كل حركات الجهاد والثورة على حكمهم وتسلطهم، وكثيراً ما أعلنوا ذلك شفاها أو كتابة فى غير مواربة ولا خفاء.

لقد أعلن « جى موليه » رئيس الوزارة الفرنسية: أن الحركة الإسلامية التى تتسع فى إفريقيا، هى التى تهدد الإمبراطورية الفرنسية فى المغرب [١].

وكذلك أعلن « جورج بيدو » أحد وزراء الخارجية فى فرنسا: أنه لن يترك الهلال يتغلب على الصليب [٢].

ويقول الكاتبان: كوليث وفرنسيس جانسون فى أثناء حرب التحرير الجزائرية: إن الحرب الحاضرة فى الجزائر (يعنى حرب التحرير التى بدأت فى سنة ١٩٥٥) ليست حرباً دينية أو جنسية أو حضارية. ولكنها حرب مجموع مظلوم يريد أن يتحرر من ربقة مجموع ظالم. إلا أن الإسلام عنصر فعال فى دفع الجزائريين إلى طلب هذا التحرر ... لقد أيقن الجزائريون منذ الأيام الأولى للاحتلال أن هدف الفرنسيين كان القضاء على الإسلام ... من أجل ذلك أدركوا جميعا أن عليهم أن يعتصموا بالإسلام حتى يقدروا على التحرر. والواقع أن الاحتلال الفرنسى للجزائر كان منذ البدء يحمل هذا المعنى من الحرب الصليبية ».

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق وقد ذكر المؤلفان ذلك فى كتابيهما: (الجزائر الثائرة) وقد ترجم وطبع فى القاهرة.

لقد نجح الاستعمار فى تغريب العالم الإسلامى إلى حد بعيد، وصبغ أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع والتعليم بالصبغة الغربية.

ومع كل هذه النتائج التى لم تكن تخطر ببال .. لا زال الغرب قلقا متوجسا من ظهور قوة الإسلام فجأة وعلى غير توقع.

فالمراقبون للتطور الفكرى والثقافى - رغم ارتياحهم للنتيجة - يساورهم القلق من تغير مفاجئ.

يقول البروفسور جب:

« إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهى تنفجر انفجارا مفاجئا، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة فى أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا « صلاح الدين » جديد » (١).

والمراقبون السياسيون للشرق الإسلامى، لا يزالون يرون للفكرة الدينية سلطانا على أكثر الرؤوس، وللمشاعر الإسلامية تأثيرا فى أكثر القلوب، هذا ما يخافون تطوره إلى حركة تنتهى إلى دولة.

ويتحدث الكاتب الألمانى « هنرسين كاستر » فى مقال له سنة ١٩٦٤ تحت عنوان « الإسلام السياسى » (٢) فيقول:

« إن الدور الذى يلعبه الإسلام فى الأحداث الجارية بالشرق الأوسط لم يتضح بعد فى أوربا .. ويمكننا أن نقرر أن التفكير الدينى يحدد الكثير مما يجرى فى هذه المنطقة، وأن خلف العديد من المشاكل التى تجرى فى آسيا وأفريقيا تكمن العقيدة المحمدية .. وقد لا يرضى عن هذا التحليل الغربيون

---

(١) من كتاب « وجهة الإسلام » والترجمة هنا للدكتور محمد محمد حسين من كتابه الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ٢٠٦.

(٢) يبدو أن هذا العنوان هو الذى قلده كثيرون من عبيد الفكر الغربى فى بلادنا، أمثال سعيد العشماوى وغيره، وزعموا أنه من ابتكارهم، وهم مجرد نقلة مقلدين.

الذين نبذوا – منذ زمن بعيد – التفسير الديني للأحداث ولكن هذه هي الحقيقة [١].

ويقول السياسي البريطاني المعاصر أنطوني ناتنج في كتابه (العرب) : « منذ أن جمع محمد (ﷺ) أنصاره الأولين في مطلع القرن السابع، وبدأ أول خطوات الانتشار العربي، أصبح على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة، تواجهه عبر البحر الأبيض .. إن قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى ١٣٠٠ سنة في نهضته وانهياره » [٢].

هذه بعض أقوال المراقبين المفكرين والسياسيين، وهذه هي مشاعرهم .

أما المراقبون الدينيون من المبشرين ومن على شاكلتهم فهم أشد توجسا وأكثر قلقا .

يقول الأسقف « دي مسنيل » وكيل إدارة البعثات التبشيرية في الشرق – بروما :

« إن الأسباب العميقة لانتشار الإسلام وثباته المذهل سيظل أبدا – بالنسبة لنا – مشكلة لا تجد الحل » [٣].

ويقول أسقف آخر في كتاب له عن نشأة الكنيسة والطوائف المسيحية في الشرق : « إن الشعب الإسلامي متمرد، ولا يتيح عملا إيجابيا مباشرا للبعثات التبشيرية الكاثوليكية، وهذا الغزو لا يمكن الوصول إلى حله، وإن سره لا يعلمه غير الله وحده » [٤].

---

(١) عن كتاب « الغزو الفكري » للأستاذ جلال كشك ص ٤١ .

(٢) انطوني ناتنج : العرب (لندن ١٩٦٤) – نقلا عن كتاب « القومية والغزو الفكري » لمحمد جلال كشك ص ٢١ .

(٣) الغرب والشرق للأستاذ محمد علي الغتيت ص ٧٥ – ٧٦ .

(٤) المصدر السابق .

● **عامل الحقد :**

٢ - وأما عامل الحقد فمبعثه الهزائم الدينية والعسكرية المتلاحقة التى منيت بها النصرانية أمام الإسلام الزاحف المنتصر، فلم تملك إلا الخضوع لدولة الإسلام، أو الدخول فى دين الله أفواجاً .

لقد اعتنقت شعوب مسيحية بأسرها عقيدة الإسلام، وزالت ممالك بأسرها من خريطة العالم المسيحى، لتصبح جزءا من دولة الإسلام الكبرى، بعضها انتزع من دولة الروم البيزنطية فى الشرق كمصر والشام وغيرهما، وبعض آخر أقيم فى عقر داز الغرب نفسه، فى أوروبا، حيث قامت دولة الإسلام فى الأندلس لثمانية قرون .

صحيح أن الإسلام لم يكره أحدا على اعتناقه باعتراف كافة المؤرخين - مسلمين وغير مسلمين - وكان التسامح الدينى الرائع أبرز سمة يتميز بها الفاتحون المسلمون . ولكن النتيجة على كل حال كانت هى انتشار الإسلام بين النصارى بفضل هذا التسامح نفسه، وهى نتيجة لم تزل ذكراها تؤذى أنفس الغربيين المسيحيين المتعصبين .

يقول المستشرق الألمانى « بيكر » :

« إن هناك عداء من النصرانية للإسلام، بسبب أن الإسلام حين انتشر فى العصور الوسطى أقام سدا منيعا فى وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » [١] .

لم يبدأ الصراع بين الإسلام والنصرانية أو بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى بالحروب الصليبية - كما يخيل إلى بعض الناس - بل بدأ ذلك منذ عهد الرسول ﷺ، منذ غزوة تبوك فى العصر النبوى، ثم اليرموك وأخواتها فى عصر الراشدين .

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٣٦ .

لهذا يقرر مؤرخو الغرب – طبقا لما رواه المؤرخ شميل الكبير – « إن مشاكل الشرق (أى بالنسبة للغرب) ولدت بمولد محمد رسول العرب، وأنها ترعرعت وشبت واكتهلت منذ عهد الخلفاء، وهى – على ما يرى – نظير فصول السنة، إذا بلغت نهايتها القصوى عادت وتجددت، فلا يكاد يرى لها آخر، فهى بنت الدين والسياسة، وتدوم بدوامها » (١) .

ويقول جيبون :

« إن الحروب الصليبية بدأت بين الغرب والشرق العربى والمسلمين، يوم أعلن الغرب أن الأراضى التى يسيطر عليها العرب والمسلمون كانت أصلا أرضا مسيحية، ثم اغتصبها الإسلام، وأنه لا بد من طرد أولئكم الغزاة الغاصبين » (٢) .

وكذلك يذكر المؤرخ إدوارد دريو : أن الحرب ضد الشرق تعتبر فى نظر جميع المسيحيين الغربيين – حربا مشروعة، لأنها تهدف إلى تصحيح وضع غير مشروع – نشأ باحتلال العرب الأراضى المسيحية » (٣) .

هذه نظرة الغرب إلى الشرق المسلم، وهى نظرة تفيض بالكراهية والحقد . وقد زادها اشتعالا ما منى به الغرب فى حملاته الصليبية المتتابعة على الشرق الإسلامى من اندحار وخيبة، على يد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود الشهيد، ثم على يد صلاح الدين وخلفائه، بعد قرنين من الزمان، أمضوها فى محاولة الاستيلاء على الأرض المقدسة فى فلسطين، وانتزاعها من أيدى المسلمين. يقول المبشر « رشتر » :

« جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدى المسلمين المتعصبين .. فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك أروع العهود فى العصور

---

(١) من كتاب « الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس » للأستاذ الغتيت ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٢ . (٣) نفس المصدر السابق ص ١١٢ .

الوسطى كلها، ولكن ذلك الجهد قد خاب، وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عنيدة من التعصب الإسلامى » !! [١].

ولكن مبشراً آخر يكشف النقاب عن حقيقة الدوافع الصليبية فيقول « جاردنر » : ولقد خاب الصليبيون فى انتزاع القدس من أيدى المسلمين، ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الإسلامى . . والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام »!! [٢].

وبعد ذلك جهدت الكنيسة الصليبية زمنا طويلاً لتنصير المغول، فلما اعتنق المغول الإسلام من تلقاء أنفسهم - بعد أن انتصروا عليه عسكريا، وحطموا الخلافة العباسية . زال أمل كبير من آمال الدول الغربية للسيطرة على الشرق عن طريق الدين [٣].

ولم تقف هزيمة الغرب عند فشل الحروب الصليبية، فقد ظلت انتصارات الإسلام تتوالى على أوربا، عندما حملت الراية يد فتية جديدة، هى يد الأتراك العثمانيين، الذين حولوا آسيا الصغرى كلها إلى أرض إسلامية خالصة . ثم قام فتى الترك العظيم « محمد الفاتح » بفتح عاصمة الدولة البيزنطية « القسطنطينية » لتغدو عاصمة للخلافة الإسلامية، وتصبح مدينة المساجد والمآذن فى أوروبا .

لقد سقطت راية الإسلام فى الأندلس، وانحسر ظل الإسلام عن جنوب أوروبا، وأكره أكثر المسلمين هناك على الانسحاب، وأرغم الباقون بعد ذلك على التنصر أو الذبح، ولم يطل فرح الغرب بذلك كثيرا، فقد خفقت راية الإسلام من جهة أخرى . . من الشرق .

يقول الأسقف « رولان » :

« إن انسحاب الإسلام من شبه جزيرة « آيبريا » (أسبانيا) لم يضع حدا

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١١٤، ١١٥ . (٢) التبشير والاستعمار ص ١١٤، ١١٥ .
(٣) التبشير والاستعمار ص ١١٤، ١١٥ .

لمتاعب الكنيسة وقلقها. ولم يقف سيل هذه المتاعب التى كانت تجرها الكنيسة على نفسها، لاستهدافها القضاء على الإسلام، فما كان انسحاب الإسلام من أسبانيا، إلا ليطل هلاله عاليا من أعلى قباب كنيسة «القديسة صوفيا» بالقسطنطينية، حيث أخذ الهلال مكان الصليب»! (١).

وتوالت الانتصارات الإسلامية بعد ذلك فدخلت البلقان تحت سلطان العثمانيين، وتوغل الزحف الإسلامى فى أوروبا حتى كاد يكتسحها، حين هدد «فينا» سنة ١٥٢٩ واستمر هذا التهديد أكثر من قرن ونصف حتى سنة ١٦٨٣م.

وفى الوقت الذى أخذت فيه الخلافة العثمانية تتهاوى وتنهار كان الإسلام يتقدم فى إفريقيا وحده، ويثير نقمة المبشرين وحسدهم، حتى قال الكاردينال «لافيجيرى»: «بينما كان الإسلام على وشك أن ينهار فى أوروبا مع عرش السلاطين من آل عثمان، كان لا يزال ناشطا فى تقدمه وفتوحه على أبواب ممتلكاتنا الإفريقية» (٢).

لقد كان لا بد لهذه الهزائم العسكرية والدينية التى أصابت المسيحية على يد الإسلام أن يكون لها أثرها فى أنفس الغربيين الموتورة الحاقدة التى تتربص بالإسلام وأهله الدوائر، وتترقب الفرصة المواتية لتنفس عن أضغانها وتراتها وما ركبها من ذل الانهزامات القديمة.

من أجل ذلك كانت جميع الحروب الأوروبية التى شنت فيما بعد على الدولة العثمانية حروباً دينية صليبية فى أساسها (٣).

ولقد عملت الكنيسة الغربية جهدها على أن تجعل العداء للإسلام والحقد على أهله، سياسة ثابتة لدى ملوك الغرب وحكامه، وعاطفة راسخة لدى جماهير الناس يتوارثها الأبناء عن الآباء والأحفاد عن الأجداد.

---

(١) الغرب والشرق ص ٩٠، ٩١.
(٢) التبشير والاستعمار ص ١١٥.
(٣) المصدر السابق ص ١١٥.

يقول المؤرخ «ليدوفيك دى كرنتش»:

«كان الغرب يعمل جاهدا على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين فى نفوس المسيحيين، يتلقونها خلفا عن سلف، ويرضعها الطفل من شعور أمه، كما يرضع اللبن من ثديها، فتسرى فى كيانه مسرى الدم فى عروقه»[1].

وقد ظلت هذه الروح الغبية تسرى فى أوصال الغربيين بأحقادها وعقدها إلى هذا العصر، الذى تمكن فيه الغرب المسيحى من الشرق المسلم، ولم يستطع الكثيرون منهم إخفاء هذه الروح الكامنة، فبدت فى كتاباتهم وتصريحاتهم كلمات واضحة تنبئ عن هذا الحقد الصليبى الدفين.

ولم يخجل اليسوعيون أن يقولوا بصراحة: «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى، والتدين المسيحى ولنعيد – فى ظل العلم الفرنسى، وباسم الكنيسة – مملكة المسيح»[2].

وليست هذه الأقوال وأمثالها مقصورة على المبشرين ونحوهم من رجال الدين، فقد وجدنا من القادة العسكريين ورجال السياسة والتوجيه، من يتجه هذا الاتجاه. وجدنا اللورد «اللنبى» القائد الإنجليزى، حين يستولى على القدس سنة ١٩١٧، وينتزعها من أيدى الأتراك، يقول كلمته المشهورة: الآن انتهت الحروب الصليبية!.

ووجدنا القائد الفرنسى «غورو» حين يدخل دمشق سنة ١٩٢٠ يقف عند قبر البطل الإسلامى صلاح الدين الأيوبى ليقول شامتا ومتشفيا فى كلمات معبرة: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»!.

ولقد نقلنا من قبل كلمات، «جى موليه» وجورج بيدو وغيرهما عن حركة الجهاد فى بلاد المغرب العربى ونظرتهم إليها نظرة صليبية واضحة.

ولا يخفى على أى متتبع للحوادث ما قاله رئيس الوزراء البريطانى

---

(١) الغرب والشرق ص ٩٧.

(٢) التبشير والاستعمار ص ١١٥، ١١٦.

«غلادستون» فى مجلس العموم: إنه لن يستقر لنا قرار فى الشرق ما دام القرآن باقيا» !!.

وقد نقلنا من قبل بعض ما قاله مسيو هانوتو [١] فى مهاجمة الإسلام، والتحذير منه.

ومثل هانوتو الفرنسى الكاثوليكى: اللورد كرومر الإنجليزى البروتستانتى الذى كان مندوبا «ساميا» للاحتلال البريطانى فى مصر وقد هاجم الإسلام فى كتابه «مصر الحديثة» وفى غيره من تقاريره إلى حكومته.

يقول كرومر: [٢] «إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين، ولكنه فاشل كنظام اجتماعى، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى، ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنسانى ..

ويعدد كرومر ما يراه من معايب الإسلام فيقول بأنه حرم المرأة من كل حقوقها، ويعتبرها أحط من الرجل، وأنه يبيح الرق، وأنه دين متعصب متطرف، يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة أسرى حرب ورقيقا، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة محمد، ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج، المحبين للحروب، والذين لا تتسع صدورهم لأى تسامح ...

ثم يأخذ كرومر فى مقارنة بين المسيحية والإسلام، يحاول أن يبين فيها صلاحية المسيحية للعصر وتفوقها، ويوازن بين أسلوب الشرقى وأسلوب الغربى فى الحياة والتفكير، محاولا تحقير أسلوب الأول وتسفيهه.. إلخ.

ولقد برز الحقد الصليبى فى أعمال ووقائع لا تحصى إلى جانب الأقوال

---

(١) فى مقال له بالفرنسية ترجمته ونشرته جريدة المؤيد القاهرية سنة ١٩٠٠ ورد عليه الشيخ محمد عبده فى ثلاث مقالات مشهورة وقد طبعت بعدها مستقلة مع مقالات أخرى (أنظر تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ١٠٤ وما بعدها.

(٢) عن كتاب «الاتجاهات الوطنية» جـ ١ ص ٢٤٠ ط ثانية وقد نقل المؤلف هذه الفقرات من النص الإنجليزى.

والتصريحات المذكورة وغيرها. تجلى ذلك فى مساندة حكومة «هيلاسلاسى» وما بعدها من الحكومات النصرانية ضد الأكثرية المسلمة فى الحبشة. وفى مساندة (أفورقى) وقبيلته المسيحية ضد الأغلبية من المسلمين فى (إريتريا).

وفى خلق مشكلة جنوب السودان التى نسج لحمتها وسداها الاستعمار من أول الأمر، ولا زال يغذيها بالمال والسلاح والعون المادى والأدبى إلى اليوم.

وفى تسليم جمهوريات أفريقية إسلامية لرؤساء مسيحيين.

وفى ممالأة القبارصة اليونانيين المسيحيين ضد الأتراك المسلمين.

وفى خلق القلاقل لنيجيريا المسلمة وخاصة المنطقة الشمالية منها التى يكون المسلمون القسم الأعظم من سكانها.

وقبل ذلك كله فى صنع دولة العدوان والبغى «إسرائيل» خنجرا مسموما فى صدر العالم العربى والإسلامى كله، ذلك الخنجر الذى بدأت بصناعته بريطانيا، وقامت على إتمامه أمريكا، وساعدت فيه أخيرا دول غربية عدة - هذا كله على رغم ما بين اليهودية والمسيحية من خلاف ومن تراث عدائى عميق الجذور.

إن الاستعمار يحاول أن يخفى روحه الصليبية ببعض الأقنعة الزائفة، ولكن ثوب الرياء يشف عما تحته، فإذا أغراضه الحقيقية تتكشف ماثلة للعيان. لماذا دخل الاستعمار الجزائر؟ قد يقال: إنه دخلها لتأديب حاكمها، أو لتحقيق بعض المطامع المادية. ولكن الوقائع بعد ذلك تنبئ عن الروح الصليبية الكامنة تحت السطح فى اللاشعور، بل فى الشعور.

لقد دل على ذلك علم مدينة «الجزائر» فى عهد الاستعمار الفرنسى.

وأظن هذه الأمثلة التى ذكرتها كافية فى الدلالة على البواعث النفسية التى تحرك الغربيين، وعلى أن الروح الصليبية لم تمت بين جنوبهم، خلافا لما يقرره بعض الكتاب الغربيين الذين يجهلون أو يتجاهلون ما تفعله الأصابع الصليبية فى الخفاء.

يقول: «جان بول رو» فى كتابه «الإسلام والغرب» [1]:

«إن أوروبا اليوم بعيدة كل البعد عن الروح الصليبية، بل إنها فى الحقيقة قد تخلت عنها تماما، والحرب بالنسبة لها لم تعد قضية دينية، بل مسألة اقتصادية صرفة، ولم يعد فى استطاعتها أن تفهم الإسلام عندما يتحدث عن الجهاد».

والعجب أن يصدق ذلك بعض المسلمين المسرفين فى حسن الظن بالغرب، وينكر أو يشك أن تكون المشاعر الصليبية باقية إلى اليوم فى نفوس القوم، معتقدا أن المصالح المادية وحدها هى التى تسيرهم، وتحدد علاقاتهم بالناس، مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وهو رأى ترده كل الأدلة والتصرفات التى ذكرنا نماذج منها.

وأود أن أنبه على الفرق بين الروح الدينية والروح الصليبية التى أصف بها القوم، فإن جمهور الناس فى الغرب لا يحفلون بالدين، ولا يحكمونه فى حياتهم. وديانتهم هى المادية والنفعية، كما شهد بذلك شهود من أهله، وكما سنبين ذلك فى فصل (عبيد الفكر الغربى) ولكنهم – مع هذا – ينظرون إلى الإسلام وأتباعه نظرتهم إلى عدو غلبهم قرونا طويلة بقوته الروحية والمادية.

ولا مانع من أن ترى الرجل ملحداً هناك، ولكنه يبغض الإسلام وحضارته وأمته بهذا الاعتبار، الذى خلقه الصراع المديد بين الشرق والغرب، وترك وراءه رواسب فى المشاعر والأفكار، لا يزال لها تأثير وسلطان.

على أن فى الغرب من الرجال المدنيين والعسكريين من لا تزال تحركه حوافز دينية خالصة أو غالبة. ومنهم من يرى المصلحة الاستعمارية فى الاستجابة لأصحاب الحوافز الدينية، أملا فى استخدامهم لأغراضهم المادية.

---

(1) ص ١٣٣ الترجمة العربية طبعة بيروت.

وبهذا وذاك نعرف الدوافع المشتركة التى أفضت إلى التعاون الملموس بين التبشير والاستعمار بحيث نستطيع أن نسمى الاستعمار تبشيريا، كما نسمى التبشير استعماريا. لقد كان المبشرون يمزجون الدين بالسياسة، وكان الحكام والإداريون يمزحون السياسة بالدين، ولكن كما قال الدكتوران: مصطفى الخالدى وعمر فروخ: كان الدين هو الوسيلة، وكانت السياسة هى الهدف الحقيقى، والسياسة هنا معناها: استعباد الغرب للشرق» [١].

إن الاستعمار الصليبى يعتقد أن الإسلام هو العقبة الكؤود التى تحول دون توغله الفكرى والحضارى، وتمسك المسلمين أن يذوبوا فى ثقافته وحضارته، وكلما اختفى الإسلام من الميدان كلما استطاع الغربيون أن يؤثروا ويسيطروا بأفكارهم وثقافتهم .. فإذا ظهر الإسلام فى صورة «دعوة» أو «حركة»، تحطم فى سنوات ما بناه المستعمرون فى أجيال. فكيف إذا برز الإسلام فى صورة «دولة» تحكم بقرآنه وسنته، وتربى الأمة على هدية وقيمه، وتدبر دفة الحياة بتعاليمه وقوانينه ووصاياه؟.

لهذا نرى كثيرا من كلماتهم تصب جام حقدها على القرآن وعلى الرسول وعلى مقدسات الإسلام كلها.

يقول ويليم جيفورد بلجراف: «متى توارى القرآن، ومدينة مكة من بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة، التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه» [٢].

وهناك كتاب آخرون – وخاصة من الكاثوليك – تدل كتاباتهم على أنهم مصابون بما يشبه «الهيستيريا» نتيجة خوفهم من الإسلام، وحقدهم عليه. فلنستمع إلى أحد هؤلاء.

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٣٨.

(٢) انظر: كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» ترجمة الأستاذين مساعد اليافى، ومحب الدين الخطيب ص ٥٥.

يقول المسيو « كيمون » المستشرق الفرنسى، فى كتابه « بايولوجيا الإسلام » :

« إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا، بل هى مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمح فى القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائى يبعث الجنون فى رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة، والذهول العضلى، وتكرار لفظة « الله » إلى ما لا نهاية والتعود على عادات تنقلب إلى طبائع أصيلة : ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات . . .

وينتهى مسيو كيمون إلى أنه يرى المسلمين وحوشا ضارية، وأن الواجب إبادة خمسهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة ، ووضع قبر « محمد » فى متحف اللوفر . . . !!

ومثل هذا الكلام السخيف لا خطورة له، إنما يدلنا على مبلغ ما تمتلئ به أنفس القوم من حقد دفين.

ومقترحاته الصبيانية لا أهمية لها. فقد كان القوم أعقل منه وأخبث وأمكر. لقد أراد القوم أن يصلوا إلى ما اقترحه كيمون وبلجراف وغيرهما من غير أن يدمروا الكعبة أو يمزقوا المصحف، أو يزيلوا قبر محمد ﷺ. وذلك بتحطيم القوة الإسلامية من داخلها بالكيد والدس، وتسميم الأفكار، ووضع السم فى الحلوى.

يقول الأسقف « دى ميسنيل » وكيل إدارة البعثات التبشيرية فى الشرق بروما :

«إن الهدف الذى يتعين على المبشر تحقيقه، هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التى يتميز بها الإسلام، أو – على الأقل – إضعاف هذه القوة [١].

ونحن لا يسعنا – أمام هذه الأحقاد والمكايد – إلا أن نتلو قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢ – ٣٣].

- **عامل الجهـــــل :**

٣ – ومما يغذى عاملى الحقد والخوف عند الغربيين جهلهم بالإسلام ونبيه وكتابه وحضارته وأمته وتاريخه، وذلك من أثر الأفكار المشوهة المكذوبة التى روجها الدجالون المرتزقون بالدين ، فيما بينهم كتابة أو شفاها . وهذه الحملة المسعورة من الأباطيل والأكاذيب قد شنها الأوربيون منذ الحروب الصليبية، ولم تخف حدتها إلا فى نصف القرن الأخير، حين عرف الغربيون أن المسلمين يقرأون ما يكتبون .

وكان المبشرون فى الزمن الأخير أكثر الذين كتبوا فى تشويه صورة الإسلام، وإلصاق التهم الباطلة به وبأمته، ومثلهم كثير من المستشرقين الذين هم مبشرون يلبسون مسوح العلم!! .

وأشهر هذه التهم أن الإسلام قام بالسيف، وأن هذا السيف أخضع شعوب آسيا وأفريقيا شعبا بعد شعب، كما زعم «نلسون» ويقول آخر: إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح [٢].

ولنقرأ هذا التصوير لظهور الإسلام للمدعو «كولى» فى كتابه «البحث عن الدين الحق» حيث قال عن الإسلام: «فى القرن السابع للميلاد برز فى الشرق

---

(١) الغبر والشرق ص ٨٢.

(٢) نفسه ص ٤١ .

عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب .. لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون (يعنى يموتون شهداء) فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات (الجنة) وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانيا فريسة له، حتى إيطاليا هددها الخطر، وتناول الاجتياح نصف فرنسا. لقد أصيبت المدنية! ».

وينقل لنا الأمير مصطفى الشهابى رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق نصا عن المؤلف الفرنسى جورج هاردى من كتابه « قضايانا الاستعمارية الكبرى » يقول :

يرى أعداء الإسلام أن الأمم الاستعمارية ستخفق فى محاولتها ترقية المسلمين (كذا) وتقريبهم منها، لأن الإسلام عدو طبيعى للمدنية الأوروبية. وهو دين تعصب شديد، أو هو كما يقول الإنكليز والأمريكيون : « دين ناشز » ومناف للاجتماع! فبدلا من أن يتأنس أو يتحضر، نراه فى كل يوم أشد تمسكا بعقيدة صلبة عقيمة، والإسلام يتجنب الغير، وينتهى إلى الجامعة الإسلامية، أى إلى مذهب سياسى من أشد المذاهب خطرا على سلام العالم. ولذلك يحلم بعض الإنكليز اليكسوئيين بأن يجروا عليه آخر حملة صليبية. ويرى كثيرون ممن لا يذهبون إلى هذا الحد : أن من واجب الدول الاستعمارية تنظيم دعاية واسعة على الإسلام، وأنه يجب اتخاذ كل الوسائل لحصر الإسلام فى معقله الدينى، ونشر الدعوة إلى الإلحاد أو إلى النصرانية فى أواسط المسلمين [(١)] ».

هذه الصورة المشوهة للإسلام تدل على الحقد الدفين عند القوم على الإسلام، كما تدل على جهلهم الشنيع بأصوله وتعاليمه، فليس الإسلام خطرا

---

(١) من كتاب (محاضرات فى الاستعمار) للأمير مصطفى الشهابى ص ١٩٠ ط معهد الدراسات العربية بالقاهرة.

على سلام العالم، وإنما هو خطر على البغى والطغيان فى العالم، وإلا فهو دين السماحة والسلام والرحمة والبر والأخوة الإنسانية.

ومن أدلة الجهل المغذى لحقد ذلك النشيد العجيب الذى كان يلقنه الجنود (الطليان) أثناء حربهم لليبيا العربية المسلمة. وقد جاء فى هذا النشيد الفاشيستى على لسان جندى لأمه:

(يا أماه) أتمى صلاتك، ولا تبكى ، بل اضحكى وأملى.

ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا،

لابذل دمى، كى أسحق الأمة الملعونة.

لأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز البنات الأبكار للسلطان!!

سأقاتل بكل قواى، لأمحو القرآن) !![1]

.... وإن لم أرجع، فلا تبكى على ولدك، ولكن اذهبى فى كل مساء، وزورى المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذى يأبى الحداد على فلذة كبدك.

وإن سألك أحد عن عدم حدادك علىَّ (فأجيبيه) إنه مات فى محاربة الإسلام!![2]

فهذا التعصب الأعمى، والعداء المستميت والحقد الأسود على الإسلام وأهله، مصدره الجهل الذى غذاهم به القساوسة والكهنة طيلة القرون الوسطى.

---

(١) علق السيد رشيد رضا علي هذه العبارة حيث ذكرها الأمير شكيب أرسلان في كتابه (لماذا تأخر المسلمون؟) بقوله: الديانة الإسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين، وهو تزوج البكر والثيب، ولكن الأفرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء علي الإسلام، وتبيح لهم مدنيتهم الزنا ، حتي أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم، لاسيما الطليان منهم. اهـ.

(٢) انظر: مجلة الرابطة الشرقية عدد ٢ من السنة الثالثة – نوفمبر ١٩٣٠ نقلا عن الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين. وانظر كذلك: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ للأمير شكيب أرسلان: منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت ١٩٦٥م.

● عامل الطمع :

٤ – وأما عامل الطمع الاستعمارى فهو مكمل لعامل الخوف، أو هو أساس له فى الواقع، فإن ما يطمع الاستعمار فيه من المغانم والمصالح ومناطق السيطرة والنفوذ، يخاف عليه من الضياع كله أو بعضه.

ومطامع المستعمرين فى ثروات الشرق الإسلامى وخيراته وبتروله لا تخفى على أحد.

وكل يقظة إسلامية أو حركة إسلامية يعدها المستعمرون خطرا على هذه المطامع، وتهديدا لهذه المصالح.

ولا أريد أن أتوسع هنا فى شرح هذا العامل ، فذلك مما لا يختلف فيه اثنان والذين ينكرون أو يشكون في بعض العوامل الأخرى، لا يشكون فى هذا الدافع الذى يدور حول المصالح الاستعمارية فى آسيا وإفريقيا وحرص الاستعمار على دوام استغلاله لثروات هذا العالم الشرقى، واعتباره الإسلام هو العقبة الكؤود فى سبيل ذلك، لأنه المحرض الدائم على المقاومة والتحرر من سلطان الأجنبى الكافر، والداعى إلى الجهاد فى سبيل الله لاستخلاص الحق من مغتصبيه.

فمصالح الاستعمار ومطامعه المادية، ومكاسبه السياسية والاقتصادية، لا ضمان لبقائها إذا استيقظ العملاق الإسلامى من نومه، وانطلق من قمقمه.

● عامل الكبر :

٥ – وأما عامل الكبر، فمصدره أن الغربيين يعدون أنفسهم سادة العالم، وأن هذه السيادة ليست مرحلة مؤقتة من التاريخ اقتضتها ظروف معينة، بل لأنهم جنس أرقى من سائر الأجناس البشرية، يجرى فى عروقهم دم أزكى وأفضل من دماء الآخرين. هو (الدم الآرى) وهم ينظرون إلى العالم كله وإلى التاريخ كله من زاوية أوروبا، كأنه ليس على خريطة العالم إلا أوروبا، وليس فى تاريخ العالم غير أوروبا. فتاريخ القرون الوسطى يبدأ بسقوط روما، والتاريخ الحديث يبدأ بسقوط القسطنطينية، فإذا تحدثوا عن جهالة القرون الوسطى وظلامها

وتخلفها لم يلتفتوا إلى الحضارة الزاهرة التى صنعها الإسلام فى الشرق وفى الأندلس.

إنهم يرون حضارتهم أم الحضارات، وفلسفتهم أولى الفلسفات، وتشريعهم أبا التشريعات.

هذه النظرة هى الغالبة عليهم، والشائعة فيهم، وإن لم تخل مجتمعاتهم من أفراد معتدلين منصفين، شهدوا للإسلام وأهله وحضارته شهادة فيها كثير من العدل والإنصاف.

فإذا جاء من الناس من يدعو إلى الإسلام عقيدة ونظاما وحضارة، من يعد عقيدته أطهر العقائد، ونظامه أعدل النظم، وحضارته أسمى الحضارات، ويعد أمته خير أمة أخرجت للناس، وتاريخها أمثل تاريخ عرفه البشر جميعا، ويرى فى الإسلام حلا لكل عقدة، وعلاجا لكل مشكلة، وغنى عن كل مذهب، أو فكرة في الشرق أوفى الغرب. فهذا أمر يسوء الغربيين ويصدم غرورهم بأنفسهم ومبادئهم وأنظمتهم وحضارتهم، ويثير فيهم روح المقاومة لهذا الإسلام الذى يجعل من نفسه وصيا على العالم، ويجعل من أتباعه شهداء على الناس، ويفرض أستاذيته على سائر الأمم كما قال كتاب الإسلام: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [الحج: ٧٨].

إن شعور الاستعلاء الأصيل فى طبيعة الإسلام ودعاته واستعصاء أمته على التبعية الفكرية، والعبودية السياسية، التى أراد الغرب أن يفرضها يوما على الشرق الإسلامى، قد أثار كبرياء الغربيين ونقمتهم على الإسلام ودعوته وجعلهم يقفون موقف المناوأة والمعاداة لكل من يدعو إليه، ليقود الحياة من جديد.

● **أساليب الاستعمار فى الكيد للإسلام:**

كانت أساليب الاستعمار فى حرب الإسلام وتعويق دعوته، كثيرة جدا. نذكر منها:

١ - التشكيك فى الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة، وشن حملات التشويه على رسول الإسلام وكتابه وأمته وتاريخه، وذلك عن طريق الدراسات الاستشراقية والتبشيرية التى قام بها رجال يلبسون مسوح العلم أو الدين، وهم أبعد شئ عن العلم والدين. ثم تولى المهمة من بعدهم تلاميذهم وخريجوهم ممن ينتسبون إلى الشرق والإسلام بالدم والنسب والاسم، وإن كانوا غربيين بالثقافة والفكر والروح.

٢ - تحويل أفكار المسلمين ومشاعرهم عن الإسلام والولاء له، والتكتل تحت رايته، والأخوة فى ظله، إلى رايات وشعارات ودعوات دخيلة على حياة المسلمين، أجنبية عن أفكارهم ومشاعرهم كالقومية والعلمانية، والرأسمالية والاشتراكية والديموقراطية - بمفاهيمها الغريبة - وكلها بضاعة استعمارية أجنبية.

٣- نشر الأفكار الإلحادية والنظريات المادية التى تجحد الإيمان بالله ورسالته، وتقوم على أن لا شئ فى الوجود سوى المادة الحسية. وهذه الأفكار بطبيعتها إذا انتشرت وسادت وقفت عقبة فى طريق الدعوة إلى الإسلام. وذلك عن طريق التعليم والمناهج المدرسية والجامعية، وطريق الصحافة والإعلام والثقافة العامة.

٤ - نشر الانحلال الخلقى والإباحية، وتعميق جذورها ،وآثارها فى المجتمع، عن طريق وسائل الإعلام التى يسيطرون عليها. وبذلك تفسد الأجيال الناشئة وتنحل أخلاقها، فلا تصلح لحمل رسالة الإسلام، بل تقاومها وتنفر منها، لأنها ضد شهواتها.

٥ - خلق زعامات دينية زائفة تقاوم الفكر الإسلامى الصحيح، وتوفير كل الإمكانات لترويج بضاعتها وتكثير أنصارها، مثل غلام أحمد القاديانى صنيعة

الاستعمار البريطاني في الهند. وذلك كله على حساب قوة المسلمين ووحدتهم. فقد أحدثت الدعوة القاديانية فتنة بين المسلمين، واعتبرها العلماء والمفكرون (ثورة على النبوة المحمدية) ولكن الإنجليز أيدوها بقوة.

٦ - إثارة النعرات الوطنية والقومية المختلفة والتي من شأنها أن تمزق وحدة المسلمين، ورابطتهم الأخوية. والتي تحول ولاء المسلم لدينه إلى ولاء لوطنه الصغير أو قوميته الضيقة. لقد حاولوا أن يلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية تشغله بنفسه وتعزله عن إخوته المسلمين.

«لقد أرادوا أن يبعثوا «الفرعونية» من خلال حجارة (الأهرام) ومعابد الكرنك في مصر»، و «الفينيقية» من خرائب الساحل الممتد من يافا إلى اللاذقية على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. ثم إنهم لفقوا في العراق دعوة «أشورية» لم يكتب لها أن تولد حية [1].

٧ - خلق زعامات سياسية لا دينية، وإضفاء البطولة عليها زورا، واصطناع انتصارات لها، وتظاهر الاستعمار بالانهزام أمامها لتتعلق بها الجماهير وتتخذها أصناما مقدسة.

وبذلك يتمكن الاستعمار من الاعتماد عليها في طعن الإسلام ودعاته. وتحويل الأمة عن الإسلام «الناشز» إلى اللادينية الطيّعة!

وهكذا صنعوا زعامة كمال أتاتورك لإبعاد تركيا عن الإسلام. ولا زلنا نرى خلفاء له وأشباها في البلاد العربية تضخم لهم الدعاية وتصطنع لهم البطولات.

٨ - خلق قيادات فكرية وأدبية من عبيد الفكر الغربي، وأنصار العلمانية، ونفخهم بوساطة الإعلام وأجهزته، حتى يصبح صوتهم مسموعا، ولواؤهم مرفوعا، ومخالفهم مقموعا، وتهيئة كل الفرص لهم، ليبرزوا بروز العمالقة، ويظهر خصومهم أقزاما مدحورين.

---

(١) انظر: التبشير والاستعمار للدكتورين: عمر فروخ ومصطفى الخالدي ص ١٧٤.

وفى بلادنا العربية والإسلامية كثير من هؤلاء المنفوخين، الذين أضفيت عليهم الألقاب الهائلة، فهذا عميد الفكر، وهذا أستاذ الجيل، وذلك ركن الأدب، وآخر مستشار الثقافة .. وهم فى الحقيقة أشبه بالبالونات المنتفخة، تكفى شكة دبوس لتفريغها، فلا تكاد تجد منها شيئا.

٩ - وفى مقابل هذا التضخيم والتفخيم للزعامات العلمانية الزائفة تقوم حملات منظمة لتشويه سمعة المخلصين من دعاة الإسلام، بنشر الأكاذيب، وتلفيق التهم، حول شخصياتهم، وحول فكرتهم التى يدعون إليها، لصرف الناس عنهم.

١٠ - تضييق الخناق على كل حركة إسلامية صحيحة الاتجاه. فإن لم يكف التضييق والاضطهاد الخفى، كان اللجوء إلى التنكيل والتشريد، وكيل الضربات الوحشية التى لا تتورع عن القتل تحت السياط وآلات التعذيب سرا، وعلى أعواد المشانق أو بإطلاق الرصاص علنا (١).

قد يصنع ذلك الاستعمار بيديه مباشرة، وقد يفعل ذلك بالإيعاز والتشجيع لعملائه وأعوانه وحلفائه. وكل اللادينيين حلفاء طبيعيون للاستعمار، وأصدقاء مؤيدون من قبله، يبارك خطواتهم، ويعضد اتجاهاتهم، ويعدهم بالعون المادى والأدبى لضرب أعدائه «الإسلاميين المتعصبين» !!.

لا يتورع الاستعمار المتربص الحقود من سفك الدم إذا لم يجد وسيلة غيره. وخاصة مع كل زعيم أو قائد يخشى أن يكون له دور مؤثر فى حياة بلده أو شعبه، وأن يقوم وراءه تكتل قوى، حينئذ يحكم الاستعمار الصليبى سرا بالإعدام على هذا الزعيم أو المفكر، ويختلف التنفيذ باختلاف البلاد والأحوال والظروف.

---

(١) كما فى حادثة «ليمان طره» التى قتل فيه بضعة وعشرون سجينا بنيران المدافع والبنادق، بغير ذنب، إلا أنهم طالبوا ببعض حقوقهم. انظر وصف هذه المجزرة فى كتاب «أقسمت أن أروى» للكاتب اللبنانى المسيحى «روكسى معكرون».

وهكذا قتل حسن البنا وعبد القادر عودة ومحمد فرغلى وسيد قطب، وأحمدو بللو، ومالكولم أكس، وفيصل بن عبد العزيز، فى أوقات كانت أوطانهم وشعوبهم أحوج ما تكون إليهم. وإلى حسن قيادتهم.

هل حدث ذلك كله صدفة؟ أو هو تخطيط قوة جبارة تعمل لحرب الإسلام، لها أيد وأجهزة خفية تنفذ لها ما تريد؟.

● **مخاوف الغرب من الصحوة الإسلامية:**

وإذا كان الاستعمار القديم يقف موقف العداء للحل الإسلامى، وللنهج الإسلامى، وللفكر الإسلامى، والعمل الإسلامى، فقد ورث الغرب الحديث هذه الروح، ولم تزل تسرى فى كيانه، وإن كان بعض الغرب قد تخلى عن فكرة الاستعمار، ولكن أكثر الغرب - للأسف الشديد - لم يتخلّ عن الروح الصليبية. على أن بعض الغرب لا زال يحمل فكرة الهيمنة الإمبريالية بصورة أو بأخرى، كما يتجلى ذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية التى تمثل الاستعمار الجديد، والتى تسير فى ركابها بريطانيا أيضا، كما ترى ذلك فى موقفهما من العراق وحصاره، وضرب شعبه بالطائرات والقذائف والصواريخ، وقتل أطفاله بالتجويع، ومنع الغذاء والدواء.

وقبل ذلك حصار ليبيا لعدة سنوات، وبعد ذلك حصار السودان، وضرب بعض المواقع فيه - مصنع الشفاء للدواء - بالطائرات والصواريخ.

وقد جهد الغرب جهده، ومكر مكره، واستعان بكل مارق وخائن ممن ينتسب إلينا بلسانه، وعقله وقلبه ضد أمته. وكان أكبر همه أن يحول دون انطلاق المد الإسلامى، ويؤخر انبلاج فجر الصحوة الإسلامية. ولكن من الذى يستطيع أن يوقف التاريخ، أو يناطح المريخ، أو يقاوم الأقدار، أو يحارب القهار، أو يمنع بزوغ النهار؟.

لقد تفجر سيل الصحوة الإسلامية فى كل مكان، ورأيناها صحوة عقول

وأفكار، وصحوة قلوب ومشاعر، وصحوة إرادات وعزائم، وصحوة عمل وسلوك، وصحوة غيرة وحماس، وصحوة دعوة وجهاد، وصحوة تغيير وإصلاح. وتجلى أثرها فى الشبان والشابات، وفى الجوامع والجامعات، وفى الثقافة والفكر، وفى ميادين الجهاد وفى الاقتصاد والسياسة، وفى الأسرة والمجتمع، وفرضت نفسها على الساحات كلها، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

وقد فوجئ الغرب بهذه الصحوة الهائلة، ففقد توازنه، بل جن جنونه، وطفق يهرف بما لا يعرف، ويخبط خبط عشواء، كيف ظهرت هذه الصحوة؟ متى تم الحمل بها؟ ومتى ولدت؟ وكيف ترعرعت؟ وكيف شبت؟ وأين كنا نحن في هذا الوقت؟ وفي هذه المراحل كلها؟ وكيف نعطل مسيرتها أو نعوقها على الأقل؟ وكيف نغرى الحكام بالصدام معها؟ وكيف نضرب بعضها ببعض؟ وكيف؟ وكيف؟.

وبدت هذه المخاوف فى ندوات تعقد فى العلن. وجلسات تعقد فى السر، وقرارات تتخذ، وحرب تعلن جهرة أو تمارس خفية.

إنه القلق بل الرعب من الإسلام: أن تنكشف غمته، وتنزاح محنته، وينطلق مارده، ويعود إلى سابق عهده، استقامة ويقينا وقوة ووحدة.

هذا ما يخافه الغرب ويفزع منه إذا لاح بخاطره، ويحسب له ألف حساب وحساب. وهو ما يحلم به فزعا فى الليل، ويفكر فيه قلقا فى النهار.

لقد رصدت مئات الملايين لدراسة الصحوة، ثم لتعويقها، وخصوصا بعد أن سقط الاتحاد السوفيتى، ورشح (الإسلام) ليكون هو (العدو الجديد) الذى ينبغى أن تعبأ له القوى، وتجند لمقاومته الطاقات، وتحشد ضده مشاعر الخوف والكراهية، بعد تجلية التهديد بخطره، والتخويف من شره وشرره.

وقد حاول بعض العلمانيين المتبجحين أن ينكر تخوف الاستعمار

والصهيونية والغرب الصليبي بصفة عامة، من دعوة الإسلام، وصحوة الإسلام وحركة الإسلام، وأمة الإسلام. وزعم أن هذه أسطورة لا ظل لها من الحقيقة [1].

وحسبي هنا أن أسجل بعض ما نشرته الصحف الغربية أو الإسرائيلية عن الصحوة الإسلامية والتحذير منها، وتحريض الحكام على ضربها بوحشية، حتى لا تقوم لها قائمة.

وما أذكره هنا هو قليل من كثير، وغيض من فيض.

١ - نشرت صحيفة الصنداى تلغراف البريطانية فى عددها الصادر فى ١٧/١٢/١٩٧٨، وعلى الصفحة السابعة عشرة مقالا بقلم بيرغرين دورستورن، أشار فيه: أن الغربيين يقعون فى خطأ كبير، حين يظنون أن الخطر الذى يتهدد مصالحهم فى الشرق الأوسط هو خطر الشيوعيين؛ لأن الخطر الحقيقى والوحيد، الذى يتهدد مصالح الغربيين وأصدقائهم فى المنطقة هو خطر المسلمين المتطرفين، والذين تعاظم نشاطهم بشكل مذهل، رغم كل ما أوقعته بهم النظم الصديقة للغرب فى المنطقة، من محن وتنكيل.

ويؤكد كاتب المقال أن الأحداث الجارية فى منطقة الشرق الأوسط تشير إلى أن التيار الإسلامى المتطرف، أصبح قائما فى جميع بلدان المنطقة بدون استثناء.

ويقول الكاتب: إن أكبر خطأ يرتكبونه الغربيون، هو عدم تفكيرهم - بجدية - فى ضرورة التدخل العسكرى المباشر فى المنطقة، فى حالة عجز الأنظمة الصديقة عن كبح جماح المتطرفين المسلمين! ويؤكد أن شعور الغربيين بالندم وتأنيب الضمير إزاء تورطهم فى الحرب الفيتنامية، يجب أن لا يكون سببا فى

---

(١) هو الدكتور فؤاد زكريا، وقد رددناه عليه فى أواخر كتابنا (الإسلام والعلمانية وجها لوجه).

إقناعهم بعدم استعمال القوة العسكرية ضد المتطرفين المسلمين؛ لأن خطر هؤلاء المتطرفين المسلمين لا يقارن بأى خطر آخر، مهما كان.

وينهى يبرغرين دورستورن مقاله قائلا:

«إن مجرد الاكتفاء بمراقبة الانتفاضة الإسلامية فى الشرق الأوسط، لن يفيدنا بشئ، وإذا لم نبادر إلى مقابلة هذه الانتفاضة بعنف عسكرى، يفوق عنفها الدينى، فإننا نكون قد حكمنا على العالم النصرانى بمصير مهين، يجلبه على نفسه، إذا استمر تهاوننا فى مواجهة المسلمين المتطرفين».

٢- فى تعليقها على أحداث إيران وتركيا قالت صحيفة «كمشلر الفايجلر»، التى تصدر فى كولونيا بألمانية الغربية:

«إن الأحداث الأخيرة فى تركيا وإيران، وعودة نشاط الاتجاه الإسلامى فى مصر، وغيرها من الدول العربية، تعطى الدليل على أن الإسلام وحده، وليست الدول الكبرى أو الأنظمة الموالية لها، هو الذى يلعب الدور الرئيسى فى منطقة الشرق الأوسط».

وقالت الصحيفة: «إن على الغرب أن يدرك – الآن – أن المستقبل القريب، سيشهد تحولا جذريا فى منطقة الشرق الأوسط لمصلحة الاتجاهات الإسلامية، وعلى الغرب – إذا أراد المحافظة على الحد الأدنى من مصالحه فى الشرق الأوسط – أن يبدى مرونة فى تفهم مقاصد الاتجاهات الإسلامية، التى تسعى للحصول على كيان جديد قوى، يتلاءم مع «الإسلام».

٣ – نشرت صحيفة الجروزلم بوست الصهيونية، فى عددها الصادر فى ٢٥/٩/١٩٧٨، مقالا كتبه حاييم هيرتزوغ السفير اليهودى السابق لدى الأمم المتحدة، تحت عنوان «كى لا نخسر الأصدقاء، ونشد من عضد الأعداء» قال فيه:

«إن ظهور حركة اليقظة الإسلامية بهذه الصورة المفاجئة المذهلة، قد

أظهرت بوضوح أن جميع البعثات الدبلوماسية، وقبل هؤلاء جميعا، وكالة الاستخبارات الأمريكية، كانت تغط فى سبات عميق » .

وقال هيرتزوغ :

« إن معلومات كثيرة عن طبيعة الإسلام وعن القوى الإسلامية الفعالة النشطة، كانت متوفرة لدى زعماء الغرب، وخاصة أولئك المسؤولين عن الأمن فى واشنطن، وإن جهودا كثيرة بذلت لكبت نشاط الحركات الإسلامية المتعصبة، ولكن الأحداث الأخيرة فى المنطقة الإسلامية، وعودة الاتجاه الإسلامى ليمارس نشاطه على نطاق واسع فى مصر وأفغانستان وسوريا وتركيا وإيران وغيرها، قد أظهرت أن جميع الأساليب، التى اتبعت لكبت نشاط الحركات الإسلامية كانت أساليب فاشلة على المدى البعيد، رغم ما حققته من نجاح لفترات قصيرة » .

وأردف حاييم هيرتزوغ قائلا :

« إننا نشهد اليوم ظاهرة غريبة ومثيرة للاهتمام، وتحمل فى ثناياها الشر للمجتمع الغربى بأسره، وهذه الظاهرة هى عودة الحركات الإسلامية، التى تعتبر نفسها عدوة طبيعية لكل ما هو غربى، والتى تعتبر التعصب ضد اليهود بشكل خاص، وضد الأفكار الأخرى بشكل عام فريضة مقدسة » .

٤ – وفى عددها الصادر فى ٢١ / ١ / ١٩٧٩، نقلت صحيفة « الرأى » الأردنية عن وكالة الأنباء الفرنسية أن صحيفة « الواشنطن بوست » الأمريكية ذكرت أن الرئيس الأمريكى السابق (جيمى كارتر) طلب من وكالة المخابرات الأمريكية أن تعد دراسة عن نشاطات الحركات الإسلامية فى العالم كلــــه .

ونسبت صحيفة « الواشنطن بوست » إلى « زبيغنيو بريجينسكى » مستشار البيت الأبيض – آنذاك – لشؤون الأمن القومى قوله :

« إن الإدارة الأمريكية تشعر بقلق بالغ إزاء تزايد نشاط الحركات الإسلامية المنتشرة فى العالم الإسلامى، وأن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى إعداد

دراسة جديدة حول الحركات الإسلامية المتشددة، ليسهل على الإدارة الأمريكية وأصدقائها فى المنطقة الإسلامية مراقبتها عن كثب، حتى لا تفاجأ باندلاع ثورة إسلامية جديدة في أى مكان فى العالم الإسلامى؛ لأن أمريكا حريصة على عدم السماح للإسلام بأن يلعب دورا مؤثرا فى السياسة الدولية».

٥ - وذكرت صحيفة «القبس» الكويتية فى عددها الصادر فى ٢٤ / ١ / ١٩٧٩، أن مجلس الأمن القومى الأمريكى طلب من هيئة المخابرات البريطانية تزويد الإدارة الأمريكية بكل ما يتوافر لديها من معلومات تتعلق بالحركة الإسلامية، والاستعانة بها فى وضع الخطط الكفيلة بالقضاء على خطرها قبل فوات الأوان.

٦ - وفى عددها الصادر فى ٨ / ٧ / ١٩٧٩، نقلت صحيفة «القبس» الكويتية أيضا عن صحيفة «فورتشن» مقالا آخر، وجاء فيه ما يلى:

«إن الاتجاه الدينى فى مصر يرسخ أقدامه يوما بعد يوم، فالشباب المصرى مفتون بالصحوة الإسلامية الثورية، كما أن الفتيات المصريات يبدين اهتماما متزايدا بالإسلام. وفى جامعة القاهرة يزيد عدد الطالبات الملتزمات بالزى الشرعى، وقد يأتى يوم لا تبقى فيه طالبة مصرية واحدة، إلا وقد ارتدت الزى الشرعى الإسلامى».

وأردفت صحيفة «فورتشن» تقول:

«إن هناك خطرا كبيرا من أن تتمكن الحركة الإسلامية من العودة إلى التأثير على الحياة السياسية فى مصر، وهذا الأمر يخيف الرئيس السادات، الذى عبر عن خوفه بخطابه الشهير فى جامعة الإسكندرية حين قال: إنه لن يسمح للدين بالتدخل فى السياسة.

وهذا الأمر تخشاه - أيضا - إسرائيل؛ لأنها تعتبر أن الإخوان المسلمين هم أشد أعدائها، الذين يهددون وجودها؛ لأنهم يرفضون الاعتراف بها، ويجاهرون بالدعوة إلى إعلان الجهاد المقدس ضدها».

الإسلام قادم، ونحن فى خطر عظيم ...!

٧ - نشرت صحيفة «القبس» الكويتية فى عددها الصادر فى ١٦/ ١/ ١٩٨١، أن الجنرال الكسندر هيغ، وزير خارجية الولايات المتحدة فى عهد الرئيس رونالد ريغان، قد أكد أنه يؤمن إيمانا عميقا بأن المساعدات الأمريكية لنظام الرئيس أنور السادات ستعزز قدرته على الصمود أطول مدة ممكنة فى وجه المخاطر الخارجية، التى تهدده، بالإضافة إلى الخطر الأعظم، الذى يتمثل فى تعاظم نفوذ الحركة الإسلامية فى مصر.

٨ - نشرت صحيفة «الرأى» الأردنية فى عددها الصادر فى ٢٠/ ١/ ١٩٨١م، تحليلا نشرته صحيفة «الايكونومست» البريطانية، جاء فيه:

«بعد أن توقف نهر النيل عن الفيضان، ظن الناس أن عهد الفيضانات فى مصر قد انتهى، ولكن لم يكن صحيحا، فإن مصر تشهد اليوم فيضانا عارما، ولكن من نوع جديد، ذلك فيضان الإسلام المكافح بقيادة الإخوان المسلمين.

ليس بمقدور السادات ولا النميرى أن يوقفا المد الإسلامى المتصاعد فى مصر والسودان».

وتختم «الايكونومست» تحليلها بتوجيه نصيحة مبطنة، تؤكد فيها أن الوسائل العادية فى محاربة الحركة الإسلامية لن تجدى نفعا فى القضاء عليهم، وأنه لا بد من اتباع أسلوب أشد بطشا وقمعا، للفتك بالحركة الإسلامية والقضاء عليها.

وتنهى «الايكونومست» تحليلها بهذه العبارات، التى تسخر - من خلالها - من الأساليب، التى كان يتبعها السادات والنميرى فى محاربة الإخوان، فتقول:

«إن كل محاولات السادات والنميرى لتطويق نشاط الإخوان المسلمين بالأساليب، التى يتبعانها أحيانا، تبدو أشبه ما تكون بمحاولة طفل صغير يضع

أصبعه فى ثقب صغير فى سد كسد أسوان، ليمنع انهيار الماء المتدفق من آلاف الثقوب الأخرى فى السد ».

٩ – ونشرت صحيفة « السياسة » الكويتية فى عددها الصادر ١٩٨١/٨/٣م، فى رسالتها الإخبارية من بلجيكا، أن مخابرات حلف الأطلسى أعدت دراسة عن الأوضاع فى الشرق الأوسط، أكدت فيها استنتاجات اللجنة الثلاثية، التى كانت مؤلفة من الرئيس الأمريكى الأسبق نكسون، وكيسنجر، والسياسى الاقتصادى الأمريكى روكفلر، والتى أشارت إلى أن العالم الإسلامى سيشهد فى منتصف الثمانيات صحوة دينية حقيقية، تعمل على هدف مزدوج، وهو الجهاد لإزالة إسرائيل وإزالة النفوذ الأمريكى، والقضاء على المصالح الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط.

وأكدت دراسة مخابرات حلف الأطلسى ضرورة الإسراع فى اتخاذ الإجراءات المناسبة الحازمة للقضاء على جميع بوادر اليقظة الإسلامية فى المنطقة، قبل استفحال أمرها.

١٠– نقلت صحيفة « الدستور » الأردنية فى عددها الصادر فى ١٩٨١/٩/٩م، عن صحيفة « الواشنطن بوست » الأمريكية تحليلا سياسيا، يحتوى كل سطر فيه على تحريش سافر ضد الحركة الإسلامية الجادة فى مصر. فيما يلى أهم فقرات هذا التحليل:

« مع نهاية شهر رمضان تجمع أكثر من مائة ألف [١] من المسلمين المتطرفين لأداء صلاة العيد فى ساحة مقابلة لقصر عابدين، حيث يقيم السادات، ولم يكن الأمر مجرد أداء صلاة، بقدر ما كان مظاهرة عدائية، تتحدى السادات وسياسته،

---

(١) الواقع أن المصلين فى هذه المرة كانوا حوالى نصف مليون، فقد ازدحم ميدان عابدين على سعته، وازدحمت كل الشوارع المؤدية إليه من جميع الجهات، كما شهدت ذلك بنفسى، وكنت خطيب العيد يومئذ، وقد اضطرت السيارة التى تحملنى أن تقف فى مكان بعيد، حيث كانت الشوارع كلها مكتظة بالمصلين، والحمد لله.

وبخاصة أنها جاءت فى وقت يستعد فيه السادات للسفر إلى بريطانيا وأمريكا، مما يعطى انطباعا بأن مركزه فى مصر أصبح ضعيفا أمام المعارضة الدينية.

إن الجماعات الإسلامية المتطرفة تهدف إلى تحويل المجتمع المصرى من مجتمع علمانى إلى جمهورية إسلامية، تتبنى حكومتها تعاليم القرآن. ومن الطبيعى أنه إذا قامت هذه الجمهورية الإسلامية فى مصر، فلن يبقى للسادات مكان فى السلطة.

رغم أن السادات ملأ الجامعات والمعاهد المصرية بالبوليس السرى وبرجال المخابرات، ورغم أنه أصدر تحذيرات شديدة للمتطرفين بعدم التدخل فى الشؤون السياسية، إلا أنه فشل فشلا ذريعا فى إيقاف تقدم الجماعات الإسلامية وانتشارهم فى الجامعات والمعاهد المصرية. وإذا أراد السادات أن يتغلب على هذا الخطر الذى يهدد نظامه، فعليه أن يقوم بعمل أكبر من إصدار التحذيرات. انتهى.

* * *

(٢)

الصهيـــونيــة

- نشأة الحركة الصهيونية وكيدها للإسلام
- سبب المعركة بيننا وبين الصهاينة (ليست السامية ولا اليهودية)
- الصهيونية تعمل على تهويد العالم
- الماسونية وصلتها باليهودية العالمية
- إسرائيل هى الخنجر المسموم فى جسم العروبة والإسلام
- الاستعمار الصهيونى أخبث أنواع الاستعمــــــار
- قلق الصهيونية من الصحوة الإسلامية

الصهيونيـــــة

إذا كان الاستعمار يمثل (العدو الأول) للحل الإسلامى، فإن (الصهيونية) أو (اليهودية العالمية) هى العدو الثانى، الذى يقاوم بكل قوة النهج الإسلامى، والحل الإسلامى، والعمل الإسلامى، وكل ما هو إسلامى.

ولقد كان يمكننى أن أضع (الصهيونية) ضمن (الاستعمار) فهى فى الحقيقة استعمار ولا ريب، بل هى أشد أنواع الاستعمار خطرا، وأبعدها أثرا، وأطيرها شررا، وأعنفها ضررا، لأنه استعمار استيطانى إحلالى ظالم، كما سنبين بعد.

ولكنى آثرت أن أفرد هذا العدو (الصهيونية) بفصل خاص، لشدة خطرها وخبثها ومكرها وتميزها عن غيرها، من الأعداء حتى إنها قد أثرت فيهم جميعا بأقدار متفاوتة.

● **لماذا تعادى اليهودية الإسلام؟**

لم يبدأ الإسلام اليهودية بالعداوة، بل سماهم القرآن مع النصارى (أهل الكتاب) واعتبر موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وأن الله اصطفاه برسالاته وبكلامه ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٤] واعتبر الإيمان بموسى وبكتابه (التوراة) جزءا لا يتجزأ من الإيمان الإسلامى، فلا يصح إيمان مسلم ما لم يؤمن بذلك، ويعلنه: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى (المدينة) وجد فيها عدة قبائل يهودية تقيم بضواحى المدينة. وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فعقد معهم معاهدة مشهورة، اعتبرها كثير من الباحثين بمثابة (دستور) مكتوب لتنظيم العلاقة بين الرسول والمؤمنين وغيرهم من الفئات. ولا سيما اليهود ، فى حالة السلم والحرب.

ولكن اليهود سرعان ما غلبت عليهم طبيعتهم فى الغدر ونكث العهود،

فنقضوا الميثاق بينهم وبين الرسول الكريم، قبيلة بعد أخرى، بدأت ببنى قينقاع، ثم النضير، ثم قريظة، الذين انضموا إلى الأعداء المغيرين على المدينة، وقلبوا ظهر المجن للمسلمين، فى وقت كانت الاتفاقية تفرض عليهم أن يساندوا المسلمين فى الدفاع عن المدينة المعرضة لخطر الإبادة. ثم كانت بعد ذلك معركة خيبر ذات الحصون المنيعة، والشوكة القوية. بل إن اليهود ذهبوا إلى قريش وغطفان وأحابيشهما، وقادوا حملة التحريض على الرسول وأصحابه، وأغروهم بغزوه فى عقر داره بالمدينة، وأنهم سيكونون معهم عليه، وقد سألهم المشركون الوثنيون سؤالا مهما وخطيراً: أنحن أهدى أم محمد؟ فخان اليهود الأمانة، ونطقوا بالباطل الصراح، وقالوا لهم: أنتم أهدى من محمد! ففضلوا الوثنية على دين التوحيد، زورا وبهتانا. وسجل القرآن ذلك عليهم حين قال: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً** ﴾ [النساء: ٥١ – ٥٢].

واضطر الرسول والمؤمنون أن يخوضوا معارك كتب عليهم فيها القتال وهو كره لهم، مع اليهود الغادرين، نصر الله فيها عبده ورسوله وحزبه، وخذل الله أعداءه من العرب ومن اليهود. وكان نداء المسلمين ونشيدهم: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ولم تكن معركة الإسلام مع اليهود مجرد معركة عسكرية، بل كانت – إلى جوار ذلك – معركة دينية وأخلاقية وفكرية.

لقد شن القرآن على اليهود حملة هتكت سترهم، وأماطت اللثام عن فضائحهم ومواقفهم المخزية طوال التاريخ، حتى موقفهم من نبيهم موسى نفسه، الذى قالوا له بمجرد نجاتهم من الغرق، حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ**

هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

وموقفهم من موسى حين قال لهم: ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، فجبنوا ونكصوا، برغم تحريض موسى لهم، ومحاولة تقوية قلوبهم، ولكنهم انتهوا إلى أن: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

[المائدة: ٢٤]

فماذا قال موسى أمام هذا الإصرار على القعود والنفور من تنفيذ أمر الله ورسوله إليهم؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥ - ٢٦].

وبعد ذلك موقفهم من عبادة العجل الذهبى حين ضللهم السامرى، فأطاعوه وعصوا نبيهم الثانى هارون، وكانت فتنة كبيرة.

وأخطر من ذلك موقفهم مع الله تعالى، حين تطاولوا عليه عز وجل، فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقتلوا من قتلوا من الأنبياء مثل زكريا ويحيى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وهكذا أكد القرآن هذه الحقيقة بعد مواقف اليهود الثابتة المتكررة ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

[المائدة: ٨٢]

ولم ينس اليهود هذه الهزائم، فكادوا كيدهم، ومكروا مكرهم، فى عداوة الإسلام وأهله، واتخذوا لذلك أساليب شتى، بعضها ظاهرة، وأكثرها باطنة، منذ عصر النبوة، فعصر الراشدين، فمن بعدهم، طوال التاريخ، وإلى اليوم.

ففى عهد النبوة، أهدت يهودية شاة مسمومة إلى النبى ﷺ، وقبلها النبى ﷺ عملا بحسن النية، فأكل منها بعض أصحابه فمات، وما زال مفعول هذا السم فى جسد الرسول، حتى كان له أثر فى موته، كما أخبر عن ذلك النبى ﷺ.

وهناك أصابع اتهام تشير إلى أن اليهود كان لهم ضلع فى قتل عمر رضى الله عنه.

ولا ينسى أحد الدور الخطير الذى قام به عبد الله بن سبأ اليهودى فى إشعال فتيل الفتنة، ثم تأجيج نارها فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، حتى انتهت بقتله.

ثم ما قام به من دور أظهر وأكبر وأخطر، فى عهد على رضى الله عنه، وكرم الله وجهه. فهو الذى ابتدع الغلو فى على وآل بيته، واخترع مقولات كالرجعة وغيرها، كانت سبب فتن وضلالات لقرون عدة، وانتهت بتمزيق أمة الإسلام إلى اليوم.

ثم عمل اليهود فى تعكير صفاء الثقافة الإسلامية، فيما عرف باسم (الإسرائيليات) التى لوثت معارف المسلمين - وخصوصا فى تفسير القرآن - بالأوهام والأباطيل، التى ما أنزل الله بها من سلطان.

على أن من الثابت تاريخيا: أن اليهود عاشوا فى كنف الإسلام، وفى ذمة المسلمين، وحضانة الإسلام، وساهموا فى بناء الحضارة الإسلامية مع غيرهم من أهل الملل والنحل، وقد أقرت الحضارة الإسلامية مبدأ (التنوع) فى ظل الوحدة.

وفى ظل التسامح الإسلامى ملك اليهود الثروات الطائلة، ووصلوا إلى المناصب الرفيعة، حتى حسدهم بعض المسلمين على ما وصلوا إليه. وقال فى ذلك شاعر مصرى ساخر:

يا أهل مصر، إنى نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك!

وحين سقط الحكم الإسلامى، وطويت صفحة الحضارة الإسلامية فى الأندلس (إسبانيا) وطرد اليهود من هناك، ومن بلاد أخرى فى أوربا، لم يجدوا ملاذا آمنا يلوذون به غير بلاد الإسلام، فهى التي وسعتهم، وفتحت صدرها لهم، وعاشوا فيها آمنين مطمئنين قرونا طويلة.

● **نشوء الحركة الصهيونية:**

وظل الحال على هذا المنوال، حتى نشأت (الحركة الصهيونية) الحديثة بطموحاتها وأحلامها الكبيرة، وتطلعاتها إلى إقامة وطن قومى لليهود المشتتين الذين قطعهم الله فى الأرض أمما، عقوبة لهم على ما اقترفوا وأفسدوا فى الأرض، كما حدثتنا سورة الإسراء، وسورة الأعراف خاصة، فقد قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا** ﴾ [الأعراف: ١٦٧ – ١٦٨].

وكان تفكير هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية ومن سار فى دربه متجها إلى أى وطن فى أى قارة من القارات، قد تكون أمريكا الجنوبية، وقد تكون أفريقيا، ثم ترجح لديه أن يكون هذا الوطن فى (فلسطين) خاصة، لما يرتبط بها من صفات دينية، مثل كونها (أرض الميعاد) ونحو ذلك، مما يساعد على إشعال حماس اليهود فى أنحاء العالم للبذل والتضحية من أجل الوطن المنشود.

وقد حاول اليهود أن يشتروا هذا الوطن من السلطان عبد الحميد – خليفة آل عثمان – بملايين الليرات الذهبية لخزانة الدولة، ولخزانته الخاصة، فرفض ذلك

بإباء وصلابة، وكان موقفه هذا سببا فى خلعه من ملكه، ولكنه - إن خسر الملك - فقد كسب رضا الله تعالى، وتقدير الناس.

وبدأ عهد جديد من الصراع المباشر بين الصهيونية أو اليهودية العالمية والإسلام، وازداد هذا الصراع قوة واشتعالا، منذ دخل الإنجليز فلسطين فى سنة ١٩١٧، ومنذ أن أقرت (عصبة الأمم) انتداب بريطانيا على فلسطين، ومنذ صدر (وعد بلفور) المشؤوم بإعطاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، مكافأة لهم على ما قدموه للحلفاء فى الحرب العالمية الأولى. وكأن فلسطين وطن بغير شعب، حتى تمنح لشعب بغير وطن!

لقد تجسدت عداوة اليهود التاريخية المخبوءة فى صدورهم الحاقدة، فى مواجهة الإسلام والمسلمين فى فلسطين وفى غيرها وعلى مستويات شتى.

وهكذا واجه الإسلام عداوة اليهود وكيدهم، حين صمموا على إقامة دولة لهم، فى قلب بلاد العروبة والإسلام، أى فى فلسطين، أرض الإسراء والمعراج، والقبلة الأولى للمسلمين، وبلد المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله. إقامة هذه الدولة على الرغم من أهل البلد، بل بقتل أصحاب الدار، أو تشريدهم فى الأرض، واحتلال دورهم بدلا عنهم.

أصبحت المواجهة مع الإسلام وأمته أمرا مفروضا، وتأكدت فرضيته بعد أن وقعت الواقعة، وحقت الحاقة، ونزلت الطامة، وقامت دولة الكيان الصهيونى (إسرائيل) وساندتها كل القوى المعادية للإسلام، صليبية وشيوعية ووثنية.

لقد كانت اليهودية تعلم منذ خطط لإقامة دولتها: أن الإسلام هو العقبة الكؤود أمام أطماعها، وأنه هو القادر على تعبئة الأمة ضدها، لهذا بيتت النية، ووضعت الخطة، على محاربة كل ما هو إسلامى، وخصوصا حركات الإحياء والبعث الإسلامى، والاستعانة بالقوى العالمية الأخرى وإعانتها أيضا - مثل الاستعمار والشيوعية - فى ضرب كل تحرك إسلامى، وكل تجمع إسلامى حقيقى، وكل عمل إسلامى مخلص.

● من مكايد اليهودية للإسلام:

ولقد بدأت اليهودية ضرباتها العملية بالمساهمة الملموسة فى تقويض القلعة الإسلامية التاريخية (الخلافة) ومحوها من الوجود، وبهذا سقط آخر تجمع للمسلمين تحت راية القرآن، وعقيدة التوحيد، وكلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وكان لليهودية دورها مع الاستعمار، فى إشاعة وتوسيع وترسيخ العصبيات القومية والإقليمية، التى نجمت قرونها - كقرون الشياطين - ولا سيما بعد انهيار الخلافة الجامعة، وتحلل الرابطة الواشجة، فظهرت القومية الطورانية، والقومية العربية، والعصبيات الوطنية، مصر للمصريين، وسوريا للسوريين، ورأينا رئيس الحكومة المصرية يقول يوما: أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين.

وكان لليهودية العالمية دورها فى تشويه صورة الإسلام: رسالته وحضارته وسيرة رسوله، وتعاليم كتابه، وتاريخ فتوحه، وسير أبطاله .. إلخ، عن طريق الدراسات الاستشراقية، التى لليهود فيها دور لا ينكر، مثل دراسات جولد زيهر، وشاخت، وغيرهما.

وكان لليهودية أو الصهيونية دورها فى ميلاد الشيوعية فى روسيا، وفى رعايتها منذ ولادتها، وقد أثبتنا علاقة اليهودية بالشيوعية، بوقائع وأدلة لا تقبل الشك، ستأتى فى الفصل القادم.

وبهذا تمكنت اليهودية من ضرب الإسلام وشعوبه وجمهورياته العريقة فى آسيا، وجماعاته وحركاته الفاعلة بيد الشيوعية التى أسهمت فى صنعها وترويجها.

وكان للصهيونية أو لليهودية العالمية دورها فى نشر الانحلال والفساد والأفكار الهدامة، التى تحدثت عنها (بروتوكولات حكماء صهيون) سواء صحت نسبتها إليهم أم لم تصح، وكذلك عن طريق مؤسسات تديرها من وراء ستار، وتعمل عملها فى الأوطان والشعوب، عمل (الميكروبات) فى الأجسام،

وعمل السرطان فى الخلايا الحية. بلا دوى كدوى الرصاص، بل هى أشبه ما تكون بالقتل بالمسدس الكاتم الصوت. وأخطر هذه المؤسسات بلا نزاع هى (الماسونية). وسنتحدث عنها ببعض التفصيل بعد.

● سبب المعركة والعداوة بيننا وبين دولة الصهاينة:

ويلزمنى هنا أن أبين سبب العداوة والصراع القائم بيننا وبين اليهود، وبعبارة أخرى: بيننا وبين دولة الكيان الصهيونى. فإن إسرائيل تشيع دعايات مضللة، تريد أن تكسب بها الرأى العام العالمى، ولا سيما فى الغرب، ملخص هذه الدعايات أننا نعادى إسرائيل لأنها دولة سامية، كما أننا نعاديها بل نحاربها، لأنها دولة يهودية.

هل سبب المعركة أنها سامية؟:

فهل سبب العداوة والحرب المستعرة بيننا - نحن العرب والمسلمين - وبين إسرائيل حقا: أنها دولة سامية؟

والجواب: أن هذا أبعد ما يكون عن تفكير المسلمين، ولا يتصور أن يرد هذا بخواطرهم، لسببين أساسيين:

الأول: أننا - نحن العرب - ساميون، ونحن مع بنى إسرائيل فى هذه القضية أبناء عمومة، فإذا كانوا هم أبناء إسرائيل - وهو يعقوب - ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام، فنحن أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

ولا تستطيع إسرائيل أن تزايد علينا فى ذلك، ولا أن تتهمنا بأننا أعداء (السامية) التى تتاجر بها فى الغرب، وتشهرها سيفا فى وجه كل من يعارض سياستها، أو ينتقد سلوكياتها العدوانية واللا أخلاقية، بل اعتبر القرآن المسلمين كافة أبناء إبراهيم: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

والثاني: أن المسلمين عالميون إنسانيون بحكم تكوينهم العقدى والفكرى، وليسوا ضد أى عرق من العروق أو نسب من الأنساب، وقد علمهم دينهم أن البشرية كلها أسرة واحدة، تجمعهم العبودية لله، والبنوة لآدم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال رسولهم الكريم: « أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد » رواه أحمد.

على أن اليهود اليوم لم يعودوا كلهم ساميين، كما يزعمون، فقد دخل فيهم عناصر شتى من سائر أمم الأرض، كما هو معروف عن يهود (مملكة الخزر) وغيرهم. وهذا طبيعى، فاليهودية ديانة، وليست جنسية.

هل سبب المعركة والصراع أنها يهودية؟

وإذا كانت (السامية) ليست واردة فى أسباب حربنا وعداوتنا لإسرائيل، فكذلك (اليهودية) باعتبارها ديانة ليست هى السبب.

إن اليهودية فى نظر المسلمين (ديانة كتابية) من الديانات السماوية، جاء بها رسول الله موسى الذى اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور، وهو من أولى العزم من الرسل، وفى القرآن نقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٤ - ١٤٥].

والقرآن اختار لليهود والنصارى (لقبا) يوحى بالقرب والإيناس منهم، وهو (أهل الكتاب) ويناديهم بذلك (يا أهل الكتاب) ويعنى به: التوراة والإنجيل، إشعارا بأنهم - فى الأصل - أهل دين سماوى، وإن حرفوا فيه وبدلوا.

اليهود أقرب إلى ملة إبراهيم من النصارى:

بل أزيد على ذلك فأقول: إن اليهود - من الناحية الدينية - أقرب إلى المسلمين فى كثير من الأمور، من النصارى المسيحيين، لأنهم أقرب منهم إلى ملة إبراهيم عليه السلام، سواء فى العقيدة أم فى الشريعة .

فإن النصارى غيروا كثيرا من أصول الدين وفروعه، على حين احتفظ اليهود ببعض هذه الأشياء مما ورث من ملة إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام، ولا تمنعنا عداوتهم لنا، وصراعنا معهم أن ندلى بهذه الشهادة: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا** ﴾ [المائدة: ٨]

فاليهود لا يقولون بالتثليث الذى يقول به النصارى، ولا يؤلهون موسى كما يؤله النصارى المسيح عيسى عليهما السلام.

وإن وقع اليهود فى تشبيه الخالق بخلقه، كما يبدو ذلك بجلاء لكل من يقرأ أسفار التوراة، وحديثها عن الألوهية.

على أن كل ما يؤمن به اليهود فيما يتعلق بالألوهية والنبوة، يؤمن به المسيحيون، لأن التوراة وملحقاتها (كتاب مقدس) عندهم.

ويزيدون على اليهود ما انفردوا به من تأليه المسيح أو القول بالتثليث.

هذا من ناحية العقيدة، أما من ناحية الشريعة، فنجد أن اليهود يختنون أولادهم على سنة إبراهيم عليه السلام كما يختن المسلمون، والنصارى لا يختنون.

واليهود يشترطون الذبح لحل أكل الحيوانات والطيور. كما يفعل المسلمون، والمسيحيون لا يذبحون لأن (بولس) قال لهم: كل شئ طاهر للطاهرين!.

واليهود يحرمون الخنزير، كما يحرمه المسلمون، فى حين أحله النصارى. واليهود يحرمون التماثيل التى تصنع للملائكة أو الأنبياء والقديسين، كما يحرمها المسلمون، فى حين لا يحرمها النصارى، ولذلك امتلأت كنائسهم ومعابدهم بهذه الصور والتماثيل من كل حجم ولون.

فلو كنا نحارب اليهود من أجل العقيدة، لحاربنا النصارى المسيحيين أيضا، فكلاهما كافر برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن أجل هذا يتبين لنا خطأ بعض عوام المتدينين الذين يتوهمون أن الحرب القائمة بيننا وبين اليهود حرب من أجل العقيدة ، ومعنى هذا: أننا نقاتل اليهود لأنهم يهود كفروا برسالة محمد، وحرفوا كلام الله عن موضعه، وشوّهوا حقيقة الألوهية فى كتابهم، فقد شبهوا الخالق بالمخلوق، كما شبه النصارى بعدهم المخلوق بالخالق، ولوثوا صورة الرسل والأنبياء .. إلى آخر ما هو معروف عنهم، مما حكاه القرآن من قتلهم الأنبياء بغير حق، وتطاولهم على الله حتى قالوا: يد الله مغلولة، وقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء!.

وهذه النظرة التى قد تخطر فى بال بعض الناس خاطئة تماما، فاليهود كما رأينا يعتبرهم الإسلام أهل كتاب، يبيح مؤاكلتهم، ويبيح مصاهرتهم، وقد عاشوا قرونا بين ظهرانى المسلمين، لهم ذمة الله تعالى، وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، وقد طردهم العالم، ولفظهم لفظ النواة، من أسبانيا وغيرها، ولم يجدوا صدرا حنونا، إلا فى دار الإسلام، وأوطان المسلمين، ولم يفكر المسلمون يوما أن يحاربوا اليهود.

والحقيقة أن اليهود هم الذين قاتلونا، وبدءوا بحربنا، وأخرجونا من ديارنا ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

اليهود هم الذين صمموا علي إبادة وجودنا الإسلامي في فلسطين وأحكموا لذلك خطتهم، ودبروا أمرهم [١]

وأكتفى هنا بالتركيز على ثلاث نقاط كبيرة وهامة، فى صراعنا مع اليهودية وصراع اليهودية معنا، وهى: تهويد العالم، والماسونية، ودولة إسرائيل.

* * *

(١) انظر كتابنا (القدس قضية كل مسلم) فصل: (حقيقة المعركة بيننا وبين إسرائيل).

تهويد العالم

تريد الصهيونية العالمية أن تهيمن على العالم شرقيه وغربيه، وبعبارة صريحة: تريد أن (تهود) العالم. وليس معنى (تهويد) العالم أن يدخل فى الديانة اليهودية، فاليهود لا يعنون بنشر دينهم، وهو بطبيعته ليس دينا عالميا انتشاريا. إنما هو (دين قومى) مغلق على أهله. إن عقائده وشرائعه وطقوسه وأحلامه وجنته تدور حول (إسرائيل) وشعب إسرائيل، وملك إسرائيل. حتى (الله) ذاته، هو (رب إسرائيل) وليس (رب العالمين) كما هو عندنا نحن المسلمين.

فما معنى (التهويد) إذن؟

التهويد المقصود هنا: أن يسخر اليهود العالم لمصلحتهم، ليدور فى فلكهم، وتحقيق أحلامهم، وأن يغسلوا أدمغة البشر ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، مما فيها من مفاهيم ومواريث فكرية، ليملأوها بما يشاؤون من أفكار، يلقنونها على أنها حقائق مسلَّمة، وإن كانت فى الواقع أباطيل وترهات.

التهويد هنا: أن يكونوا هم (عقل العالم) كما تدل على ذلك (بروتوكولات) حكماء صهيون، التى نشرت فى لغات العالم المختلفة، وإن شكك فيها الكثيرون، ولكن الواقع يصدقها بالفعل.

ولقد رأينا هذا التهويد وآثاره فى مجالات شتى، لا يجحدها إلا مكابر، وإن كنت لا أحب المبالغة فيها إلى الحد الذى تصوره بعض الكتب مثل (الدنيا لعبة إسرائيل) وكتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) وغيرهما. فأنا أعارض التهويل، كما أعارض التهوين.

ومن آثار التهويد فى العالم: ما رأيناه من محاولة اليهود الاستيلاء على الثورة الشيوعية منذ نشأتها، وما كان لهم من ضلع فى إشعالها. وسنتحدث عن ذلك بتفصيل عند حديثنا عن (الشيوعية).

وحسبنا هنا أن نتحدث عن (تهويد المسيحية) كما نشير إلى محاولة أخرى من محاولات التهويد للعالم.

● **تهويد المسيحية :**

ومن أخطر ما صنعته اليهودية - ولا تزال تصنعه - هو تهويد المسيحية. ومقتضاه تجنيد المسيحيين المتدينين أو (الأصوليين) لتبنّى قضية (إسرائيل) وملك (إسرائيل) وتأثير ذلك على مئات الملايين من المسيحيين البروتستانت، الذين يؤمنون بالعهد القديم (أسفار التوراة الخمسة) إيمانهم بالعهد الجديد، ويرتبطون عقائديا وعقليا وعاطفيا بأرض التوراة - أى فلسطين - وشعب التوراة. وهذا ما جعلهم يتعاطفون مع تطلعات الصهيونية الحديثة وأحلامها الاستعمارية التوسعية فى (أرض الميعاد) كما يسمونها، وقد بدا ذلك فى كثير من رجالهم فى بريطانيا وفى أمريكا بجلاء ووضوح.

بل أكثر من ذلك : أن نجد هذا التأثير يمتد من الجماهير الشعبية، إلى القيادات السياسية المؤثرة من صناع القرار، وأصحاب النفوذ، حتى رؤساء الجمهوريات، وقد رأينا ذلك بأعيننا، وسمعنا تصريحاتهم بآذاننا، ولمسنا آثار سياستهم بأيدينا.

ومن أكثر الأمثلة بروزا فى الدلائل على ذلك (بلفور) وزير خارجية بريطانيا الذى أعطى الوعد المشهور سنة ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى - لليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين. فقد كان تأثير (التهويد) عليه منذ طفولته، كما تحكى ذلك ابنة أخته ومؤرخة حياته بلا نسمه روغاول. قالت : لقد تأثر بلفور منذ نعومة أظفاره بدراسة التوراة فى الكنيسة، وكان كلما اشتد عوده ازداد إعجابه بالفلسفة اليهودية ... وقد اقتبست منه فى طفولتى : أن المسيحية وحضارتها مدينتان بالشئ الكثير لليهودية ... وقد كانت أطروحات (شعب الله المختار)، وحقه فى أرض الميعاد، وتحقيق النبوءة بتجميع اليهود فى دولة إسرائيل

فى فلسطين، من أبرز معتقدات (بلفور) التوراتية، التى ورثها فى طفولته، وتربى عليها، فى إحدى الكنائس الإنجليزية [١]. أ . هـ

وقالوا: إن بلفور كان يعتبر اليهود (منفيين) يعيشون بعيدا عن وطنهم، فخالجته الفكرة بوجوب إعادة وطنهم القديم إليهم.

حتى قال بعض الكتاب الأمريكيين: إن بلفور كان أكثر فهما من هرتزل لطموحات الصهيونية [٢]!

رأينا ذلك جليا كل الجلاء فى سياسة جيمى كارتر، وفى مذكراته، التى أعلن فيها بصراحة: أن تأسيس (إسرائيل) المعاصرة، إنما هو تحقيق للنبوءة التوراتية، إذ قال أمام الكنيست الإسرائيلى سنة ١٩٧٩ : إن العلاقة بين أمريكا وإسرائيل علاقة فريدة، متجذرة فى ضمير وأخلاق ودين ومعتقدات الشعب الأمريكى.

ورأيناه فى سياسة رونالد ريغان، وفى سياسة خلفه جورج بوش، وفى سياسة الرئيس الحالى بيل كلينتون، وتأييدهم المطلق والدائم - على كل المستويات العسكرية والسياسة والاقتصادية والإعلامية - لإسرائيل.

بل رأينا ذلك فى سياسة المرشحين المعارضين لهم فى الانتخابات، وكلهم يخطبون ود إسرائيل ويتسابقون: أيهم أكثر ركضا، وأسرع خطا فى إرضائها.

وليس هذا من عمل اللوبى اليهودى الصهيونى فى أمريكا وحده، وهو غالبا ما يستخدم نفوذه فى الإعلام والاقتصاد والسياسة، ليفرض وجهته، ويملى إرادته فى إنجاح من يريد إنجاحه فى الانتخابات، وفى تهديده بإسقاطه بعد الانتخابات، بما ينشرون له من فضائح يعرفونها، ويحتفظون بها للاستخدام عندما يشتهون.

---

(١) البعد الدينى فى السياسة الأمريكية، يوسف الحسن نشر مركز دراسات الوحدة العربية ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢.

ولكن اللوبى يستغل (العنصر الدينى) عند الكثيرين فى تجنيدهم لتأييد إسرائيل، ومطالب إسرائيل.

وأكثر من هذا أنهم يغسلون أدمغة هؤلاء، ومن وراءهم من الفئات المؤثرة، والجماعات الضاغطة، والجماهير الغافلة، وإدخال ما يريدون من أفكار ومفاهيم تخدم فكرتهم، وتؤيد دولتهم، وتوالى جماعتهم .. إدخال هذه المفاهيم فى رؤوسهم، حتى يؤمنوا بها، ويعتقدوا أنها جزء من عقيدتهم، وليست مسربة إليهم.

وهذا ما لمسه الذين يعملون للقضية الفلسطينية من قديم، وكيف استطاع اليهود أن يوظفوا الدين المسيحى فى خدمة قضيتهم، وخصوصا لدى البروتستانت.

نقل الشيخ عبد المعز عبد الستار فى كتابه (واقترب الوعد الحق يا إسرائيل) عن المجاهد الكبير الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين رحمه الله قال: كنت أرُدّ زيارة للمندوب البريطانى حاكم فلسطين، فقال لى: إن أمى علمت بوجودك وتود مقابلتك، فقلت له: أهلا وسهلا، وجاءت العجوز، فكان أول ما قالته لى: أرجوك ألا تقف ضد إرادة الرب، فقلت لها: يا سيدة، ومن يستطيع أن يقف ضد إرادة الرب؟ قالت: أنت، لأنك لا تريد أن تعطى اليهود الأرض التى أعطاها الله لهم، قلت: إنها أرضى وبيتى وكيف يعطيها الله لهم وأنا أين أذهب؟ قالت: إنها إرادة الله! ولما انتهت المقابلة قلت لابنها: إن والدتك طيبة متأثرة باليهود، قال: لا، بل نحن البروتستانت نؤمن بهذا والأناجيل تبشر به [1].

وما قالته هذه المرأة العجوز وابنها يقوله اليوم ملايين من (الأصوليين المسيحيين) الذين يعتبرون العرب ومن وراءهم من المسلمين (أعداء الله) لأنهم يعارضون (إرادة الرب). ومن ذلك القس الأمريكى الشهير (روبرتسون) الذى

---

(١) واقترب الوعد الحق: ص ١٦.

يقدم برنامجا تلفزيونيا، له عشاقه ومشاهدوه، ويبدو برنامجه باستمرار معاديا للعرب وهو يعتبرهم أعداء الله، وأنه لا مجال للعدل مع الفلسطينيين، طالما أن رغبة الله هي في تأسيس إسرائيل، وفي تعيين حدودها » (١) .

وهذا ما رأينا أثره بجلاء في مواقف الرؤساء الأمريكيين منذ عهد ترومان، إلى اليوم، وهو ما يجسد « البعد الديني المسيحي » (٢) في السياسة الأمريكية في الصراع الإسرائيلي مع العرب .

وقد أثرت الأدبيات اليهودية في تكوين العقيدة المسيحية، ولا سيما لدى البروتستانت، وقد دارت هذه الأدبيات حول محاور ثلاثة :

الأول : أن اليهود هم شعب الله المختار، والأمة المفضلة على سائر الأمم .

الثاني : أن ثمت ميثاقا إلهيا ربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين، وأن هذا الميثاق الذي أعطاه الله لإبراهيم عليه السلام : ميثاق سرمدي حتى قيام الساعة .

الثالث : هو ربط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح بقيام دولة صهيونية : أي بإعادة تجميع اليهود في فلسطين، حتى يظهر المسيح فيهم .

هذه المحاور الثلاثة هي التي تؤلف اليوم – كما ألفت في الماضي – قاعدة « الصهيونية المسيحية » التي تربط الدين بالقومية، والتي تسخر الاعتقاد الديني المسيحي لتحقيق مكاسب يهودية (٣) .

تعتقد الصهيونية المسيحية أن ثلاث إشارات يجب أن تسبق عودة المسيح :

---

(١) انظر : البعد الديني في السياسة الأمريكية ص ١١٥ .

(٢) قد ألف في ذلك د . يوسف الحسن كتابه القيم الموثق بالوقائع والأدلة « البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني » نشره مركز دراسات الوحدة العربية . وهو في الأصل رسالة دكتوراه قدمها إلى جامعة القاهرة في العلوم السياسية .

(٣) انظر : الأصولية الإنجيلية لمحمد السماك ص ٣٦، ٣٧ . والبعد الديني في سياسة أمريكا . ليوسف الحسن .

١ – الإشارة الأولى هى : قيام إسرائيل، وقد قامت سنة (١٩٤٨م)، بمعاونة بريطانيا البروتستانتية والغرب بصفة عامة.

٢ – والإشارة الثانية هى : احتلال مدينة القدس، وقد احتلت سنة (١٩٦٧م). وقد كان لهذا الاحتلال تأثير كبير على الصهيونية المسيحية، فقد اعتبروا انتصار إسرائيل على العرب مؤذنا بقرب تحقيق الحلم بعودة المسيح.

٣ – والإشارة الثالثة هى : إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، وهذا ما تعمل له إسرائيل منذ زمن، وما تقوم به من حفريات تحت بنيان المسجد الأقصى، بحجة البحث عن آثار يهودية مطموسة، وفى مقدمتها الهيكل المزعوم.

ومن المعروف أن الهيكل قد دمر من قديم، ورغم بحث اليهود وحفرياتهم لم يعثروا له على أثر، وأعتقد أن تواصل هذه الحفريات يعرّض المسجد العظيم لخطر الانهيار، كما أعتقد أن اليهود يعرفون متى سيحدث ذلك، وهم الذين يحددون ذلك اليوم المشؤوم لا قدر الله.

إن اليمين المسيحى الأصولى فى أمريكا، الذى يتدين بنصرة إسرائيل، ويتعبد بإعانة اليهود على اغتصاب فلسطين من أهلها، وتشريدهم من ديارهم، واحتلال دورهم وأرضهم بدلا عنهم، واستمرار إمدادهم بالمال والسلاح والفيتو، هذا اليمين المتطرف هو أثر من آثار التهويد الدائم للعقلية المسيحية. وهو يمين قوى متمكن، حتى إنه يملك ألفا وخمسمائة (١٥٠٠) قناة تليفزيونية، وسبعة آلاف (٧٠٠٠) من محطات الإذاعة.

وليس هذا ابن اليوم، ولا وليد الأمس القريب، إنه بدا منذ عهد الإصلاح، منذ (مارتن لوثر) سنة ١٥٢٠م.

ولكن الأخطر من ذلك هو تأثير اليهودية على الكنيسة الكاثوليكية نفسها، كما نرى ذلك واضحا فى الكاثوليك الأمريكان، فهناك ملايين من كاثوليك أمريكا – وعددهم يبلغ خمسة وستين مليونا – لا يقلون فى تحمسهم

للصهيونية ومشروعها الإمبريالى العدوانى التوسعى، عن البروتستانت الذين اشتهروا بولائهم لليهودية وشعبها وأرضها من قديم.

بل ما لنا نذهب بعيدا، وها هو أثر التهويد يتجلى فى الكنيسة العظمى للمسيحية، فى (الفاتيكان) نفسه، وفى مجمعه المقدس، وفى (باباه) الأعظم، المتحدث باسم المسيح، وقد رأينا كيف اخترق اليهود هذا السور العالى، ودخلوا عقر دار المسيحية الأم، وأثروا بوضوح فى موقف الكنيسة وموقف البابا الحالى (يوحنا بولس الثانى) وفى تغيير الموقف التاريخى للمسيحية الذى استمر ألفى (٢٠٠٠) عام، يرى أن اليهود أعداء المسيح، وأنهم مسؤولون عن دمه و(صلبه)، وأنهم ملعونون أينما ثقفوا، وأنهم لا يستحقون عناية الرب ولا تأييده وأنهم ليسوا أهلا أن يمنحهم الله الملك، ما داموا لا يعترفون بالمسيح مخلِّصا، فكيف وهم يقولون عنه وعن أمه السوء، ويلعنونه فى بِيَعهم!!

وها هى الكنيسة الكاثوليكية تغير موقفها تماما بزاوية قدرها (١٨٠) درجة، وتبرئ اليهود من دم المسيح، ويعتذر البابا (يوحنا بولس الثانى) علنا عما وقع لليهود على أيدى المسيحيين طوال القرون الماضية. كما تجلى ذلك فى زيارته الأخيرة للأراضى المقدسة فى فلسطين. (فى شهر مارس سنة ٢٠٠٠م).

فى حين لم ينبس ببنت شفة للاعتذار عما جرى للمسلمين من مذابح جرت فيها الدماء أنهارا وغاص الناس إلى ركبهم فيها، فى الحروب الصليبية الشهيرة، مع ما بعث به بعض المسيحيين العرب الكاثوليك إلى البابا من رسائل مخلصة يلتمسون منه الاعتذار أو ما يشبه الاعتذار، إلى العرب والمسلمين عن جرائم الحروب الصليبية.

● **تهويد العقل العربى:**

وأدهى من ذلك وأمر محاولة (تهويد العقل العربى والإسلامى) بحيث يخضع للمسلّمات اليهودية الصهيونية، ويردد ما تذيعه أبواقها، ويستسلم لما تمليه سياستها، وينسى ما اغتصبته من أرض، وما شردت من رجال ونساء،

وينادى بالسلام الذى تريده دولة العدوان والاغتصاب، وفق مفهومها هى للسلام، وتفسيرها للسلام. إنه سلامها هى، وأمنها هى، فهى سيدة المنطقة، وهى مالكة الزمام، وما على الجميع إلا الخضوع والاستسلام. تحكَّم الذئب فاخضع أيها الحمل!.

هذه (الإسرائيليات) الجديدة، يجب أن تسود، وأن يقبلها الفلسطينيون، ويقبلها العرب، ويقبلها المسلمون، ويقتنعوا بها، ويدعوا إليها، على أنها أفكارهم الشخصية، وخلاصتها - كما تمليها إسرائيل - تأييد (مسيرة السلام) التى تجلب الخير والمنافع الاقتصادية للمنطقة وأهلها، وتجنبهم الحروب وأعباءها، وأخطارها ومشاكلها وقد جربنا الحرب عدة عقود من الزمن، فماذا حققنا من ورائها؟.

وربما زاد هؤلاء على ذلك فاستدلوا ببعض نصوص من القرآن على صواب موقفهم، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٦١] فحرفوا الكلم عن مواضعه، واستدلوا بالآية فى غير ما سيقت له.

على أن اليهود لم يجنحوا للسلم يوما ما، فلا زالوا يحتلون القدس ويعتبرونها العاصمة الأبدية الموحدة لوطنهم، ولا زالوا يقضمون الأراضى الفلسطينية ويضمونها إلى أملاكهم، ويقيمون عليها المستوطنات، التى لم يتوقف بناؤها يوما، وقد زادت اليوم فى عهد (ايهود باراك) الذى استبشر به دعاة السلام، بعد سقوط (نتنياهو) وكان اللاحق شرا من السابق، وكانوا كما قيل:

وليس فيهم من فتى مطيع   فلعنة الله على الجميع!

وظهر فى بلد كبير كمصر كتّاب وصحفيون وإعلاميون، يريدون لمصر وللعرب طرّا أن يكسروا كل الحواجز مع دولة العدوان، وأن يهيلوا التراب على صراع الماضى ومآسيه، وأن نتعامل مع الصهاينة جيرانا وشركاء، وأبناء عمومة، وأن نغير لغتنا وأسلوبنا القديم، الذى يقوم على التحريض والتأجيج، والذى لم يعد له جدوى اليوم.

وأن نستعمل لغة جديدة، نحذف فيها كل ما يثير العداوات، حتى الآيات القرآنية التى تتحدث عن اليهود وتطاولهم على الله تعالى، وقتلهم لأنبيائهم، وغدرهم بمحمد ﷺ وشدة عداوتهم للمؤمنين وغير ذلك، لا داعى لتكرارها فى أجهزة الإعلام.

يجب أن نحذف من إذاعاتنا وتلفازاتنا وصحفنا وأجهزة إعلامنا مئات الآيات القرآنية، من سورة البقرة، وآل عمران والنساء والمائدة والأعراف والأنفال والتوبة والأحزاب والحشر وغيرها، حتى لا نجرح شعور اليهود.

كما يجب ألا نتحدث عن صلاح الدين الأيوبى، ونور الدين محمود، وسيف الدين قطز وغيرهم من أبطال تاريخنا الإسلامى، حتى لا نحرض الجيل الجديد أن يحذو حذو هؤلاء، ويحمل روح الجهاد، ونحن مقبلون على عصر السلام!!

أولئكم هم (جماعة كوبنهاجن) الذين فتحوا صدورهم وأذرعتهم لإسرائيل، ودعوا لفتح الأبواب على مصاريعها أمام إسرائيل.

● الماسونية ذراع طويلة لليهودية العالمية:

وسأكتفى فى حديثى عن الماسونية بنقل فقرات معبرة من كتاب رجل متخصص فى دراستها وتتبعها وكشفها، وله فيها رسائل وكتب، وهو الجنرال التركى رفعت أتلخان، ومن كتابه الشهير (أسرار الماسونية) فى طبعته العربية.

وسأنقل الفقرات مع مصادرها مجردة من التعليق، فهى وحدها كافية، صارخة بالمقصود، وفيها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وإليك قارئى العزيز هذه الفقرات:

● من وراء الماسونية؟

* إن الماسونيين يتخذون من «خطة تمكين اليهود» من الاستيلاء على العالم أساسا لأعمالهم [١].

* إن الماسونية بعيدة عن معاداة اليهودية، وإن اليهود أحرار فى الانتساب إليها على قدم المساواة مع غيرهم [٢].

* لا يوجد محفل ماسونى خال من اليهود، وإن بيع اليهود لا تحتضن المذاهب بل هناك المبادئ فقط، وكذلك الحالة عند الماسونية، ولهذه العلة تعتبر المعابد اليهودية حليفتنا اليهودية، ولذا نجد بين الماسونيين عددا كبيرا من اليهود [٣].

* لقد تيقن اليهود أن خير وسيلة لهدم الأديان، هى الماسونية، وإن تاريخ الماسونية يشابه تاريخ اليهود فى الاعتقاد بربط كيانها بخمسة آلاف سنة، منذ بدء الخلقة، وإن شعارهم هو «نجمة داود المسدسة» ويعتبر اليهود الماسونيون أنفسهم – معا – الأبناء الروحيين لبناة هيكل سليمان. وإن الماسونية التى تزيف الأديان الأخرى، تفتح الباب على مصراعيه لإعلاء اليهودية وانتصارها. وقد استفاد اليهود من بساطة الشعوب وحسن نيتها فدخلوا فى الماسونية واحتلوا فيها المراكز الممتازة، وبذلك غدت وسيلة اجتماعية وسياسية، وثقافية لتحقيق «أهداف اليهود» وإن لم يوجد يهود فى صفوف الماسونيين القدامى، إلا أن اليهود بعد القرن الثامن عشر قد دخلوا فى الماسونية وحازوا على مراكز ممتازة فيها .. وبذلك نفثوا «الروح اليهودية» فى المحافل الماسونية وسخروها لأغراضهم [٤].

* وكتب محرر إنجليزى مبينا العلاقات بين الماسونية واليهودية «إن الماسونى

---

(١) تاريخ الماسونية الحرة ص ٨.
(٢) مجلة أكسيا الماسونية ١٩٠٨ ص ٩٨.
(٣) مجلة أكسيا الماسونية سنة ١٩٠٨.
(٤) السجلات الماسونية.

وإن لـم يكـن يـهـوديا بالولادة، إلا أنه رجل مـتــهـود». وإن هولت زنكر رئيس محاكم فينا قد عبر عن هذا الرأى بسخرية قائلا «إن بين الماسونيين المائة فى فينّا مائة واثنين من اليهود» يقول جول ليمتر: إن التساند والاتحاد الملحوظين بين ماسونيى العالم يرجع إلى كثرة العناصر اليهودية بينهم.

* يتضح من التدقيقات التى أجريت بحق الماسونية: أن فى محافلها أعضاء كبارا من اليهود الذين ينتمون إلى الجمعية السرية. وأن وظيفة هؤلاء هى توحيد المساعى وتنسيقها بين مختلف المحافل وتوجيهها لخدمة اليهودية، وتبين من هذا: أن الماسونية هى واجهة ظاهرية لتنظيم سرى كامن خلفها.

* إن والتر رتيناو الوزير الألمانى اليهودى وعضو جمعيتى بنى بريث، واليانس يونيفيرسال إسرائيليت اليهوديتين قد صرح قائلا: «إن ثلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعارفين فيما بينهم يديرون الأمور في أوروبا. والآن في العالم كله، وينتخبون أخلافهم ..»

ولايسعنا في هذه العجالة أن نلقي ولو بشرارة من العلم لإيضاح هذه المجاهل التي تتعلق بأسرار الحياة.

وإن التنظيم السرى المعروف باسم الإخاء اليهودى قد رافق التاريخ منذ أجيال سحيقة، لأنهم يسعون متعاونين .. وإن أثر المنظمات اليهودية واضح فى معالم الحياة الاجتماعية للبلد الذى يحل فيه اليهود .. وإن هذه التنظيمات هى التى ربطت يهود العالم بأواصر متينة، وأقواها هى المنظمة اليهودية «اليانس يونيفرسال إسرائيليت» فى باريس، ومنظمة بنى بريث فى نيويورك. ولقد صرح رئيس منظمة «اليانس يونيفرسال إسرائيليت «السياسى الفرنسى إسحاق بيرم فى حفلة افتتاح هذه المنظمة فى سنة ١٨٦٠ قائلا « إن الاتحاد الذى نعمل لأجله ليس باتحاد سويسرى أو ألمانى أو فرنسى أو إنكليزى، إنما هو اتحاد يهودى عالمى، ويجب أن تستولى الفكرة اليهودية على العالم، وإن عملنا عظيم ومقدس، وانتصاره مؤكد، وإن الشبكة التى ألقاها بنو إسرائيل تبتلع العالم يوما بعد يوم،

وإنهـا آخـذة بالاتسـاع، ولا بد لنا من تحين الفـرص، لا نهـاب من أحـد، وإن يوم انتقال ثروة العالم إلى بنى إسرائيل ليس ببعيد.

* إن غاية الماسونية قد انبثقت من اليهودية، وإن أكثر عادات الماسونيين مقتبسة من معبد سليمان، كما أن أكثر الإشارات والرموز عبرانية (١).

* إن منظمة بنى بريث فى مقدمة الجمعيات اليهودية، أسست فى نيويورك سنة ١٨٣٤ ولها محافل كثيرة فى أوربا والشرق وهى أقوى جمعية يهودية فى الشرق، وإن محفلها فى لندن الممثل من قبل انتشتاين قد أبدى فعاليات كثيرة فى الأيام الأخيرة (٢).

* إذا كان هنالك استعمار لا يغلب فهو استعمارنا، لأننا نتقدم دون معارضة وبخطوات متزنة ومتينة نحو أهدافنا (٣).

* إن اليهودية والماسونية قد انتهجتا سياسة واحدة بالتعاون مع المعارضين فى فرنسا وجابهوا نابليون بقوى متزايدة يوما فيوما، وبذلك تمكنوا من هدم سلطان اليسوعيين فى فرنسا (٤).

* إن نابليون الأول كان لعبة بيد الماسونيين، وهم الذين أعلوا من شأنه، ثم ساقوه إلى حرب ما حقة فى روسيا فى سنة ١٨١٢ فأوقعوه فى الهاوية (٥).

* لقد حان الوقت الذى يجب فيه إفشاء سر القوانين المالية الرفيعة اليهودية التى بقيت خافية عن الأنظار حتى الآن (٦).

● علاقة الماسونية بالمذاهب السياسية:

إن من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الماسونية طوال القرن الماضى

---

(١) وماذا تقوله الماسونية وزعماؤها فى بلاد العرب والإسلام عن هذه التصريحات من جمعيتين يهوديتين فى أمريكا وأوربا؟.

(٢) مجلة تريينال جويف سنة ١٩٢١ عدد ٦١.

(٣) ١٩٢٢ – حاخام فينا ZP. Chages .

(٤) الحرب الجامعة – للجنرال الألمانى لوند رودوف – ص ٢٨.

(٥) الحرب الجامعة – للجنرال لوندرودوف – ص ٢١٢.

(٦) International Bankalliace - Pares

هي المذاهب الحرة التي تعتبر من نتاج الفكر البشري، وإن دعاة التقدم وأنصار الفكر منذ الثورة الفرنسية، اتخذوا دستور الماسونية الكلمات الثلاث (الحرية، والمساواة، والأخوة) شعارا لهم. إن الانتصار الذى أحرزته المبادئ الحرة قد ساعد الماسونية فيما بعد على التقدم بخطوات سريعة ، كما أن المذاهب والأفكار الأخرى، مثل الإنسانية والمادية والتجريبية واللاإرادية والمثالية والسلبية والاشتراكية قد تُقبلت بحرارة المبادئ الإلهية.

ويقول فيس هاويت مؤسس جمعية الشعلة اليافارية الماسونية «عليكم بوضع المبادئ الجديدة دون أن تفكروا فى عواقبها».

ولقد تعجب العلماء الذين حيرتهم الدقائق والمشاكل العلمية التى كانت تتردد فى مجال الشك، حيرتهم أن رأوا هذه النظريات والمشاكل العلمية تنشر فى أعمدة الصحف، كأفكار مبسطة تتناولها عامة المثقفين بشكل حقائق ثابتة، وتتلقفها الطبقات المثقفة كأنها حقائق علمية ثابتة [١].

إن الأفكار المستقلة التى لا تساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء المر، والأراجيف من قبل الماسونيين. وعلى سبيل المثال .. إن الأديبين الكبيرين الروسيين دستوفسكى وغرغول قد تعرضا لهجوم ماسونى عنيف وحتى إنهما قد اتهما بالجنون ظلما.

إن الماركسية واللاقومية هما وليدتا الماسونية، لأن مؤسسيها كارل ماركس وانجلز هما من ماسونى الدرجة الحادية والثلاثون، ومن منتسبى المحفل الإنكليزى، وإنهما كانا من الذين أداروا الماسونية السرية، وبفضلهما أصدرا (البيان الشيوعى) المشهور، وإن المجلة الألمانية الماسونية (لاتونيا) قد أعلنت فرحها واستبشارها بانتشار الاشتراكية فى مقال لها بتاريخ ١٢ تموز سنة ١٨٩٤ وقالت: «إن الماسونية قد وجدت فى المبادئ الاشتراكية خير معوان لها، فلا بد لنا من معاضدتها [٢].

---

(١) A. Le Fever Le Religion P. 573

(٢) بيان المشرق الأعظم الفرنسى ١٩٠٤ ص ٢٣٧.

● الماسونية والدين:

في مؤتمر الطلاب الذى انعقد فى سنة ١٨٦٥ فى مدينة (ليبج) التى تعتبر إحدى المراكز الماسونية أعلن الماسونى المشهور Lafarge في الطلاب الوافدين من ألمانيا وأسبانيا وروسيا وانكلترا وفرنسا قائلا: «يجب أن يتغلب الإنسان على الإله! وأن يعلن الحرب عليه، وأن يخرق السماوات، ويمزقها كالأوراق» [١].

إن الإلحاد من عناوين المفاخر، وليعش أولئك الأبطال الذين يناضلون فى الصفوف الأولى وهم منهمكون فى إصلاح الدنيا.

* سوف نقوى حرية الضمير فى الأفراد بكل ما أوتينا من طاقة وسوف نعلنها حربا شعواء على العدو الحقيقى للبشرية الذى هو (الدين) وهكذا سوف ننتصر على العقائد الباطلة وعلى أنصارها [٢].

* ويجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء للأديان، وعلينا ألا نألوا جهدا فى القضاء على مظاهرها [٣].

● المذهب الإنسانى [٤] والماسونية:

* سوف تتخذ الإنسانية غاية من دون الله [٥].

* إن الماسونية هى الكيان البشرى الموجه نحو النور [٦].

* إن الماسونية تتولى تربية الإنسان بشرف مع إدراك الإنسانية أو بالأحرى: إن الماسونية تتخذ من النفس الإنسانية معبودا لها [٧].

---

(١) يا لها من فكرة خارقة من عقل شتيت مهووس - المترجمان.
(٢) المحفل الماسونى الأكبر سنة ١٩٢٢ ص ١٩٨.
(٣) مضابط مؤتمر بلغراد الماسونى سنة ١٩١١.
(٤) المذهب الإنسانى - هو مذهب الدعوة إلى عبادة الإنسان بذل كافة الوسائل لإعلاء شأنه دون النظر لأى دافع آخر أو بتعبير آخر- مذهب تأليه الإنسان.
(٥) مضابط المشرق الأعظم سنة ١٩١٣.
(٦) Ritrural Macon dutres Soye
(٧) Revist Dllamassoneria Italyana Vol. 19.P.78

* إن ذخر البشرية الذي لا يقدر بثمن هو عدم (الاعتراف) بأي حقيقة مقدسة وأن الحقائق تنبثق من نظرة الإنسان ذاته، فعليه لا بد من المحافظة على هذه الحقيقة .. وأن جمال الإلحاد هو في هذا .. وإن هذا لهو أساس الإلحاد[١] .

* من الواجب علينا تنشئة أخلاق تضاهي الأخلاق الدينية في قوتها[٢] .

* إننا لا نكتفي بالانتصار على المتدينين ومعابدهم .. إنما غايتنا الأساسية هي إبادتهم من الوجود [٣] .

إن النضال ضد الأديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة [٤] .

● **دولة الكيان الصهيوني :**

وإذا كانت الصهيونية أو اليهودية العالمية تحاربنا عن طريق (الماسونية) في الخفاء ومن وراء حجاب، فإنها تحاربنا جهرة وعلانية بوساطة دولتها التي قامت على الاغتصاب والعدوان والمذابح البشرية من أول يوم، إنها دولة الكيان الصهيوني، المسماة (إسرائيل) .

إن العنف الدموي – وهو إحدى السمات البارزة للصهيونية – قد تجسد أبلغ التجسيد في هذه الدولة . وفيها مارس زعماؤها الإرهابيون هوايتهم، وحققوا هويتهم . فقد قال مناحم بيغن في كتابه (الثورة) : أنا أحارب، إذن أنا موجود! ومناحم بيغن هو أحد زعماء العصابات الصهيونية الإجرامية قبل قيام دولتهم . وزعيم ائتلاف الليكود بعد قيام الدولة، وهو المسؤول الأول عن مجزرة (دير ياسين) الشهيرة .

---

(١) Jean Jaures 1895 P.13

(٢) تعميم للمشرق الأعظم سنة ١٩١٣ .

(٣) مضابط المؤتمر الماسوني العالمي سنة ١٩٠٠ ص ١٠٢ .

(٤) مجلة اكاسيا الماسونية سنة ١٩٠٣ ص ٨٦٠.

وهذه القسوة جزء من طبيعتهم العدوانية، وهى قديمة فيهم، وقد وصفهم كتابهم (التوراة) بأنهم (الشعب الغليظ الرقبة) كناية عن القسوة.

ووصفهم القرآن بقوله مخاطبا لهم: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤].

● إسرائيل الخنجر المسموم فى جسم العروبة والإسلام:

وبهذا نعلم أن أعظم آليات الصهيونية أو اليهودية العالمية فى حربها مع الإسلام هى: إقامة الدولة العدوانية فى أرضنا، دولة العنصرية الطاغية، والقومية الباغية، وقد باتت تملك ترسانة نووية، وجنودا مجندة، ومساندة أمريكية وغربية بلا حدود، وها هى – بعد أن استلبت الأرض، وانتهكت العرض، ولوثت المقدسات، وشردت الأبناء والبنات – تملى ما تريده من سلام أو استسلام – بشروطها التى تفرضها بمنطق القوة، لا بقوة المنطق – على فلسطين وعلى العرب، السلام الذى يخدم إسرائيل، ويحفظ إسرائيل، ويبقى لإسرائيل القوة والهيبة والهيمنة والتحكم فى المنطقة كلها.

والعجب كل العجب أن يسلم الفلسطينيون، وتسلم العرب – إلا من رحم ربك – لما تريده إسرائيل، ويهرول الكثيرون هنا وهناك إلى مسيرة السلام المزعوم.

ولولا بقايا من أولى العزم والإيمان، من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، من جند الإسلام الصادقين، فى فلسطين وفى لبنان، وقفوا فى وجه الطوفان، وقالوا بملء أفواههم: لا. ثم لا، وصدقت أفعالهم أقوالهم، ووقَّعوا على هذا الإباء المؤمن، والإيمان الأبى، بدمائهم الزكية، لولا هؤلاء وأمثالهم لقلنا: على الأمة العفاء.

وهذا ما يجعل الصهيونية ورجالها يزدادون حنقا وغيظا على الإسلام، وعلى الدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية، فهى العقبة الأولى، وهى العدو الأول لأطماعها وأحلامها.

ولا غرو أن يزداد الإسلاميون عداوة لها، فهى التى تكيد لهم فى كل

موطن، وتؤلب عليهم كل القوى وتصفهم بالأوصاف المخيفة والمقلقة للناس، من العنف والدموية والإرهاب، وتحرِّض حكوماتهم عليهم، وتعمل على عقد المؤتمرات التى تطاردهم، ولا تميز بريئا من مسئ فكل من يدعو إلى عقيدة الإسلام، أو شريعة الإسلام، فهو إرهابى دموى عنيف! وإن كان يقاسى فى بلده من الاضطهاد والأذى ما يقاسى.

● الصهيونية أخبث أنواع الاستعمار:

وقد بينا فى أكثر من دراسة لنا: أن الإرهابى الأكبر هو إسرائيل نفسها، التى تمثل أخبث أنواع الاستعمار، وأعلى مراحل الاستعمار.

ففى العصور الحديثة عرف الناس الاستعمار البريطانى والفرنسى والإيطالى والأسبانى والهولندى وغيرها، وكلها شر على من استعمروهم.

ولكن الاستعمار الصهيونى أشد وأنكى، فهو، كما يقول أخونا. د.حسان حتحوت [1]: استعمار إحلالى توسعى عنصرى إرهابى ظالم.

١ - استعمار إحلالى:

إنه استعمار إحلالى، بمعنى أنه استعمار استيطانى، يريد تفريغ البلاد من أهلها ليحل هو محلهم ما استطاع، ويزعجه أن يرى معدل المواليد العرب أعلى منه لدى اليهود، بما فى ذلك من تهويد ديموجرافى .. وهو ليس مثل الصليبيين يملك وطنا آخر يستطيع أن يعود إليه، فلا نية لديه إلا البقاء. وهو لا يحاول التخلص من العرب بالتهجير أو الاضطرار إليه أو هدم البيوت أو تغيير الجغرافيا فقط، بل بجلب مزيد من اليهود من أنحاء العالم ليحلوا محل العمالة الفلسطينية، وهى الخط الحيوى الباقى للفلسطينيين. وقد صرح بهذا ساستهم ومفكروهم، مثل البرفسور «بن زيون دينور» الذى أعلن أن ليس فى بلادنا متسع لشعبين.

---

(١) انظر: فصل (فلسطين) فى كتابه القيم (بهذا ألقى الله: رسالة إلى العقل العربى المسلم) ص ١٩٥، ١٩٦.

ومثل « يورى لبرانى » (مستشار بيجان للشؤون العربية) الذى قال : سنختزل الجالية العربية إلى طائفة من الحطابين وجرسونات المطاعم! ومثل« شيب الداود » الذى قال : إما « إسرائيل الكبرى » وإما « إسماعيل الكبرى » . (يعنى بإسماعيل الكبرى : الدولة العربية التى تجمع العرب تحت راية واحدة، وهذا يعني : انتهاء إسرائيل) .

٢ - استعمار توسعى :

وهو ثانيا استعمار توسعى . ما زالت خريطة من النيل إلى الفرات فى الكنيست والخطان الأزرقان فى أعلى وأسفل العلم اليهودى يرمزان للنيل والفرات وسئلت « جولدا مائير » عن حدود دولة إسرائيل كما تراها فقالت : عندما نصل إلى الحدود سنخبركم! .

وصرح « بن جوريون» بأن الدولة اليهودية تطمح أن تشمل حدودها جنوب لبنان وجنوب سوريا والأردن وشبه جزيرة سيناء (ولهذا لم يتضمن اتفاق « أوسلو » شيئا عن « الحدود » وستظل سرا عند قادة إسرائيل، لا يفصحون عنه، إلا عندما تتحقق الأحلام) .

٣ - استعمار عنصرى :

وهو استعمار عنصرى . وفى تصريح سابق « لرفائيل ايتان » الذى كان رئيس الأركان قال : إن من يتهم البيض فى جنوب إفريقيا بالعنصرية كذاب .. السود هناك هم الذين يريدون التحكم فى الأقلية البيضاء، تماما مثلما يريد العرب أن يتحكموا فينا! وعندما صوتت الدول الإفريقية بجانب قرار الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية عنصرية فى عام ١٩٧٥ (القرار الذى تم لحسه فيما بعد)، كان تعليق « بيجن » : كيف تحسب الشعوب التى كانت إلى عهد قريب تعيش فوق الأشجار أنها أصبحت تقود العالم؟!

بل إن العنصرية قائمة فى اليهود بين بعضهم والبعض . « الأشكينازى » وهو اليهودى الأوروبى الأبيض يرى نفسه أرقى من « السيفارديم » . وبينما يشكل

السيفارديم سبعين بالمائة من اليهود، فقد رسم نظام للتعليم والمصروفات الدراسية بحيث لم يسمح لهم بأكثر من ستة بالمائة فى الجامعات وثلاث بالمائة عند التخرج.

أما اليهود الأحباش الذين طنطنوا بهم فحثالة المجتمع لدرجة أنه عند التبرع بالدم تنتقى زجاجات دم اليهود الأحباش فتراق، ويرمى بالدم حتى لا يستعمل، وعندما اكتشفت هذه الفضيحة أحدثت مرارة كبيرة لدى الأحباش، وإحساسا بالاضطهاد والتفرقة العنصرية ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ** ﴾ [الحشر: ١٤] بل إن اليهود الأرثوذوكس أصدروا فتوى بأن المحافظين واليهود الإصلاحيين ليسوا يهودا.

٤ - استعمار ظالم:

وأما أنه استعمار ظالم، فبديهية لا تحتاج إلى تدليل. ولكن نحب أن يشهد شاهد من أهلها. فالأستاذ «جودا ماجنس» أول رئيس للجامعة العبرية يقول: إن لليهود حقا فى مطالبة العالم بالعدالة، ولكنى على غير استعداد للحصول على العدل لليهود عن طويق الظلم للعرب. ويقول البروفسور «بنيامين كوهين» الأستاذ بجامعة تل أبيب: لقد كان اليهود على الدوام ضحايا القسوة، فكيف جاز لهم أن يكونوا على هذه القسوة؟ وهنا لك الكثيرون منهم يرون هذا الرأى. وفى أمريكا حركتان يهوديتان كبيرتان اسمهما: «السلام الآن» و«الأرض مقابل السلام»، وينكرون الظلم الواقع على الفلسطينيين ويرون إعطاءهم وطنا والعيش معهم فى حسن جوار. ومثلهم عدد ضخم من اليهود داخل فلسطين [١].

٥ - استعمار إرهابى:

وهو كذلك استعمار إرهابى، فهذا أشد وضوحا، فالإرهاب لحمته وسداه،

---

(١) عن كتاب (بهذا ألقى الله) للدكتور حتحوت السالف الذكر.

والإرهاب هو الذى مهد لقيام الدولة منذ عهد العصابات المعروفة: الهاجاناة، والأرجون، والاسترن، والتى اقترفت الفظائع.

والإرهاب هو الذى أسس الدولة، وأقامها بالحديد والنار، فقتل النساء والأطفال والشيوخ بطرق وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلا، حتى كانوا يراهنون على ما فى بطون الحوامل: أذكر هو أم أنثى؟ ثم يبقرون بطنها – وهم يتضاحكون – ليروا من الفائز منهم؟ ثم يذبحون الأم والطفل معا!.

والإرهاب هو الذى وسع الدولة؟ بأكثر مما أعطاهم قرار التقسيم، ثم ضم إليها ما ضم فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م.

والإرهاب هو الذى يهدد الجيران من العرب، أن يملكوا أى قوة نووية أو غير نووية، يجب أن يملكوا هم القوة وحدهم، ولهذا ضربوا من قديم المفاعل النووى العراقى، بل هم يقتلون الشبان النوابغ من العرب فى المجال النووى، كما دل على ذلك أكثر من حادثة. بل هو يهدد المسلمين جميعا، إذا حاولوا ذلك، كما نرى فى الموقف المحنق المغيظ من امتلاك باكستان قنبلة نووية، كما فعلت جارتها وغريمتها الهند.

والإرهاب هو الذى يقتل – بيد الدولة وأجهزتها وبأمر رؤسائها وقادتها – أبطال المقاومة الذين يدافعون عن أرضهم ومقدساتهم وأهليهم، كما رأينا فى اغتيال الشقاقى وعياش والشريف، ومحاولة اغتيال خالد مشعل.

الإرهاب الصهيونى هو الذى قتل – من قديم – المصلين فى مسجد يافا، وهو الذى صنع مجزرة دير ياسين، وهو الذى قتل أطفال مدرسة (بحر البقر) فى مصر، وهو الذى قتل المصلين بعد ذلك فى مسجد الخليل في فجر رمضان، وهو الذى قتل من قتل فى النفق، وقتل من قتل فى (قانا) بلبنان، وقتل أخيرا العمال البرآء بالقرب من حاجز (ترقوميا) بمنطقة الخليل، ولا زال يقتل ويقتل ولا تزال يده مغموسة بدماء الأبرار.

والعجب أن يفعل الإرهاب الصهيوني ذلك كله، ويدعى أننا نحن الإرهابيون، أما هو فبرئ من كل تهمة، براءة إخوة يوسف من إلقائه في الجب! [1].

● **قلق الصهيونية من الصحوة الإسلامية:**

ومن أظهر الأدلة على عداء الصهيونية أو اليهودية العالمية: ما تتحدث عنه التقارير المختلفة، والبيانات المتعددة، التى تنشرها الصحف خاصة، وأجهزة الإعلام عامة، أو تتناقلها وكالات الأنباء من مشاعر الخوف والقلق والانزعاج من ظهور الصحوة الإسلامية، وتجلياتها المتنوعة فى الحياة الإسلامية، والتحذير منها، والتحريض عليها، والتربص بها، والكيد لها، على كل صعيد.

وقد عرضت نماذج من هذه التقارير فى كتابى (الإسلام والعلمانية وجها لوجه) ردا على محامى العلمانية - الذى خسر القضية - الدكتور فؤاد زكريا، الذى ادعى دعوى جريئة - وما أكثر اجتراءاته - قال فيها بالحرف الواحد:

«وفى اعتقادى أن من أشد أساطير حياتنا بطلانا، القول الذى يشيعه كثير من أشياع الحركة الإسلامية بأن الاستعمار بوجه عام، والصهيونية بوجه خاص، يخشون الصحوة الإسلامية، ويعملون على محاربتها؛ ففى مصر كان السادات يشجع التيار الإسلامى فى نفس اللحظة التى قرر فيها أن يكون توجهه أمريكيا ... وفى إسرائيل تقف سلطات الاحتلال إلى جانب الطلاب، المنتمين إلى الجماعات الإسلامية فى جامعات الأرض المحتلة ... إلى آخر ما قاله من أباطيل.

ولا أدرى كيف يجترى الكاتب على مثل هذا القول، وآلاف الشواهد تكذبه؟! وكيف يطاوعه قلمه أن يكتبه، وهو يعلم فى قرارة نفسه أن الحركة الإسلامية مضطهدة من الغرب والشرق على السواء، وأن ما حاق بها من محن ومآسٍ مريرة، كان بإيحاء القوى الخارجية المعادية للإسلام ؟!

---

(١) انظر: كتابنا (القدس قضية كل مسلم) ص ١٣٦ - ١٤٢ نشر مكتبة وهبة.

والحق أن ما يقوله الكاتب مخالف تمام المخالفة لمنطق الدين، الذى تعلن نصوصه القاطعة موقف القوم من الإسلام وأهله، وخصوصا العاملين والمتحركين منهم؛ يقول القرآن: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة: ٨٢]. ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]. ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]. ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهو مخالف تمام المخالفة لمنطق التاريخ؛ فمنذ الصراع مع بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة، وأهل خيبر من اليهود؛ ومنذ معركة مؤتة، وغزوة تبوك، وموقعة اليرموك مع النصارى، ثم معارك حطين، وبيت المقدس، والمنصورة، ودمياط، وغيرها مع الصليبيين، والحرب لم تتوقف، وهى مستمرة، وإن تغيرت الأسلحة ، وتبدلت الأسماء.

وهو مخالف تمام المخالفة للواقع، الحافل بالشواهد والأدلة على أن القوم لا يخشون غير صحوة الإسلام، وخروج (المارد) من القمقم، الذى حبس فيه بالقهر أو الحيلة.

وأستطيع أن أنقل هنا شيئا قليلا، مما نشرته الصحف العربية – نقلا عن مصادر غربية وصهيونية – من قلق اليهود والصليبيين المستمرين من الصحوة الإسلامية، ورعبهم من أى تحرك؛ إسلامى، وعملهم الدءوب لإخماد كل حركة بالدم والحديد، خشية أن تتحول إلى ثورة، فدولة.

على أن ما نشر بالعربية هو شئ قليل قليل، مما ينشر باللغات العالمية، وكذلك ما ينشر هو قليل قليل، مما يكتب فى تقارير سرية بين دوائر المخابرات، وصناع القرارات، وموجهى السياسات، من وراء الستار.

● الوثائق والحقائق تتكلم:

ولن أعتمد – فيما أثبته هنا عن موقف اليهودية والاستعمار من الصحوة

الإسلامية – على استنتاجات الدعاة ،والمفكرين والباحثين المسلمين وتنبؤاتهم، بل على المعلومات الموثقة المنقولة عن المصادر اليهودية والغربية نفسها، دون تدخل بتفسير أو تعليق. فالحقائق – وحدها – هى التى تتكلم. ولن أذكر هنا كل ما سجلته فى كتابى السالف الذكر، بل سأكتفى بأهمه.

١ – نشرت صحيفة «يدعوت أحرنوت» الإسرائيلية المعروفة فى ١٨/٣/١٩٧٨ مقالا رئيسيا، حللت فيه الهجوم الإسرائيلى على جنوب لبنان، الذى جرى فى ١٥/٣/١٩٧٨، وانتقدت فيه بشدة قيام التلفزيون الإسرائيلى بإجراء مقابلات مع الخائن المارونى سعد حداد، وانتقدت تمادى التلفزيون اليهودى فى إبراز معالم الفرح والبهجة، التى ظهرت فى بعض القرى المارونية النصرانية، إزاء احتلال الجيش اليهودى لجزء كبير من جنوب لبنان. وبررت الصحيفة انتقادها بأن ذلك التصرف الطائش تسبب فى حدوث ردة فعل عنيفة بين المسلمين فى لبنان، وكل البلاد العربية، وحتى فى فلسطين المحتلة أيضا، وأن ذلك قد حرك فيهم الروح الإسلامية من جديد، وهو الأمر الذى ظلت «إسرائيل» وأصدقاؤها يحاولون كبته، والقضاء عليه طيلة الثلاثين عاما الماضية، وأردفت الصحيفة تحليلها قائلة:

«إن على وسائل إعلامنا أن لا تنسى حقيقة هامة، هى جزء من استراتيجية إسرائيل فى حربها مع العرب، هذه الحقيقة هى أننا نجحنا بجهودنا، وجهود أصدقائنا [1] فى إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، طوال ثلاثين عاماً، ويجب أن يبقى الإسلام بعيدا عن المعركة إلى الأبد، ولهذا يجب ألا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا فى منع استيقاظ الروح الإسلامية بأى شكل، وبأى أسلوب،

---

(١) يعنون بأصدقائهم :الحكام العلمانيين الذين يدعون الوطنية، وهم متفقون مع اليهود سرا في ضرب أي تحرك إسلامي.

ولو اقتضى الأمر الاستعانة بأصدقائنا [1] **لاستعمال العنف والبطش**، لإخماد أية بادرة ليقظة الروح الإسلامية فى المنطقة المحيطة بنا ».

واختتمت الصحيفة تحليلها قائلة :

« ولكن تليفزيوننا « الإسرائيلى » وقع فى خطأ أرعن، كاد أن ينسف كل خططنا، فقد تسبب هذا التصرف فى إيقاظ الروح الإسلامية، ولو على نطاق ضيق، ونخشى أن تستغل الجماعات الإسلامية، المعروفة بعدائها لإسرائيل، هذه الفرصة لتحريك المشاعر ضدنا، وإذا نجحت فى ذلك، **وإذا فشلنا – بالمقابل – فى إقناع « أصدقائنا » بتوجيه ضربة قاضية إليها فى الوقت المناسب** ، فإن على إسرائيل حينذاك أن تواجه عدوا حقيقيا « لا وهميا »، وهو عدو حرصنا أن يبقى بعيدا عن المعركة.

وستجد إسرائيل نفسها فى وضع حرج، إذا نجح المتعصبون، أولئك الذين يعتقدون أن أحدهم يدخل الجنة، إذا قتل يهوديا، أو إذا قتله يهودى ».

٢ – ذكرت صحيفة القبس الكويتية فى عددها الصادر فى ٢٦ / ١ / ١٩٧٩، نقلا عن وكالات الأنباء العالمية أن موشيه دايان، قال فى خطاب ألقاه أمام وفد من الأمريكيين اليهود المتعاطفين مع إسرائيل : « إن على الولايات المتحدة والدول الغربية أن تأخذ العبرة من أحداث إيران الأخيرة، التى تمخضت عن اندلاع ثورة إسلامية، بشكل لم يكن متوقعا أبدا ».

وقال دايان : « إن على دول الغرب، – وعلى رأسها الولايات المتحدة – أن تعطى اهتماما أكبر لإسرائيل باعتبارها خط الدفاع عن الحضارة الغربية، فى وجه أعاصير الثورة الإسلامية، التى بدأت من إيران، والتى من الممكن أن تهب بشكل مفاجئ وسريع ومذهل فى أية منطقة أخرى فى العالم العربى، وربما فى تركيا وأفغانستان أيضا.

---

(١) يعنون بأصدقائهم : الحكام العلمانيين، الذين يدعون الوطنية، وهم متفقون مع اليهود سرا فى ضرب أى تحرك إسلامى.

وبنبرة غاضبة حاقدة أكد موشيه دايان أن **عدوه الأول هو الإخوان المسلمون، وأنه لن يطمئن على مستقبل إسرائيل إلا إذا تم القضاء عليهم.**

وانتقل موشيه دايان بعد ذلك إلى تهديد عرب فلسطين المحتلة المسلمين قائلا:

«إن عليهم أن يدركوا أن إسرائيل لن تسمح بانجرافهم نحو الاتجاهات الإسلامية المتعصبة، وأنه في الوقت الذي تشعر فيه إسرائيل أن العرب، الذين بقوا في فلسطين قد بدأوا في التمسك بالاتجاهات الإسلامية المتعصبة، فإنها لن تتردد في القذف بهم بعيدا، لينضموا إلى إخوانهم «اللاجئين».

٣ - اعترف مسئول صهيوني كبير في سلطات الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين المحتلة، في مقابلة صحفية أجرتها صحفية هاآرتس الإسرائيلية، في عددها الصادر في ٢ شباط ١٩٧٩، بأن هناك مزيدا من الدلائل تشير إلى تزايد المد الإسلامي، الذي بدأ يظهر بين عرب «إسرائيل» على حد تعبير المسؤول اليهودي، والذين يبلغ عددهم حوالي نصف مليون [١]، وبين عرب الضفة الغربية وقطاع غزة، الذين يبلغ عددهم حوالي مليون [٢].

وقال المسؤول اليهودي: **«إن الذي يثير قلقنا هو أن مواقف العرب داخل إسرائيل بدأت تتحول من مواقف مبنية على قاعدة قومية، إلى مواقف تستند إلى قواعد دينية**، وأن الشباب العربي بدأوا يتحولون عن زعاماتهم التقليدية إلى الزعامة الدينية، التي يمثلها علماء الدين، وهم في غالبيتهم من الشباب، الذين لا يستبعد أن تكون لهم ارتباطات بحركات إسلامية متعصبة».

ومضى المسؤول اليهودي يقول:

«إن خطرا حقيقيا بدأ يهدد الاستقرار في الشرق الأوسط، وقسما كبيرا من

---

(١) هم الآن مليون ومائة ألف عربي. (٢) هم الآن حوالي ضعف ذلك العدد.

إفريقيا، وهذا الخطر هو خطر انتشار ثورة إسلامية شاملة، يقوم بها متدينون متطرفون».

٤ – وفى ندوة عقدها أهم معهد أبحاث إسرائيلي متخصص فى رصد الشؤون العربية، كان موضوع احتمال انتشار «يقظة إسلامية» فى فلسطين المحتلة، هو الموضوع الرئيسي ، الذى تناوله عدد من كبار المتخصصين اليهود فى الشؤون العربية، خلال ندوة خاصة نظمها معهد «شيلواح» فى جامعة تل أبيب فى أواخر شهر كانون الثانى ١٩٧٩ .

وقد أجمع العلماء اليهود المشاركون فى الندوة على أن اليقظة الإسلامية، التى اجتاحت إيران بصورة مفاجئة ومذهلة وبدون سابق إنذار محسوس، تنذر بأن ما حدث فى إيران، يمكن أن يحدث فى أى مكان آخر فى المنطقة المحيطة بفلسطين المحتلة، ويكاد يكون أمرا لا مفر منه أمام اليهود من التحسب له بشكل جدى.

وفيما يلى مقتطفات من أقوال العلماء اليهود المتخصصين فى الشؤون العربية، الذين شاركوا فى الندوة:

البروفسور شارون: مستشار مناحيم بيغن – رئيس وزراء الاحتلال الصهيونى – للشؤون العربية قال:

«ما من قوة فى العالم تضاهى قوة الإسلام، من حيث قدرته على اجتذاب الجماهير، فهو يشكل القاعدة الوحيدة للحركة الوطنية الإسلامية».

البروفسور «يوشواح بورات» قال:

«إن المساجد هى – دائما – منبع دعوة الجماهير العربية إلى التمرد على الوجود اليهودى».

البروفسور «الباريش» قال:

«إن الإسلام قوة سياسية واجتماعية، قادرة على توحيد الجماهير، وخاصة

فى الضفة الغربية، حيث يقوم علماء الدين المسلمون لمهمة توحيد الصفوف ضد اليهود».

- البروفسور «موشيه شارون» قال:

«إن الجهود الأولى التى بذلت منذ أكثر من نصف قرن بواسطة علماء الدين المسلمين؛ من أمثال مفتى فلسطين الأسبق الشيخ أمين الحسينى، والشيخ حسن البنا فى مصر، وغيرهما من العلماء المسلمين، والتى ما زالت، حتى الآن، كان لها تأثير كبير فى كسب العالم الإسلامى إلى جانب العرب الفلسطينيين باسم الإسلام وباسم حماية الأماكن المقدسة الإسلامية».

وختمت الندوة أعمالها بالإشارة إلى عدة نقاط، كان أهمها الاعتراف بوجود يقظة إسلامية حقيقية، بدأت فى الظهور بين عرب فلسطين المحتلة، رغم كل الجهود، التى بذلها اليهود خلال الثلاثين عاما الماضية لدمجهم فى المجتمع الإسرائيلى.

٥ - نقلت وكالة الأنباء الفرنسية فى نبأ لها من بيت المقدس بتاريخ ١٩ شباط «فبراير» ١٩٧٩، أن السلطات الإسرائيلية قامت باعتقال اثنى عشر عالما من علماء المسلمين، ومعظمهم من الشباب فى بيت المقدس.

وذكرت الوكالة أن سلطات الاحتلال الإسرائيلى بدأت تبث رجالها فى المساجد، لرصد الشباب المسلم، الذى يرتاد المساجد بصورة متزايدة.

٦ - نقلت صحيفة «القبس الكويتية» فى عددها الصادر فى ١٩٨٦/٦/٣٠ عن صحيفة «فورتشن» مقالا تحت عنوان «الصحوة الإسلامية تقلق أمريكا ... وإسرائيل تتوقع جهادا إسلاميا مقدسا لتحرير الأراضى». وجاء فى مقال «فورتشن» ما يلى:

«إن صحوة الإسلام الجديدة، تزعزع الإسرائيليين كثيرا، فإسرائيل تعرف تماما أنه إذا فشلت محادثات السلام مع مصر، فإنها ستكون هدفا لحرب «الجهاد الإسلامى»، التى ستشنها الصحوة الإسلامية المتزايدة ...».

وتردف صحيفة «فورتشن» قائلة:

«إنه حتى فى الجامعات العبرية فى إسرائيل بدأ الطلاب العرب المسلمون يبدون اهتماما متزايدا بالعودة إلى دينهم، وبدءوا يمارسون ضغوطا على السلطات اليهودية للسماح بفتح كليات للثقافة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، فى الجامعات اليهودية، كما بدأ العديد منهم يطلقون لحاهم ويؤدون العبادات الإسلامية، فى حين بدأت الفتيات المسلمات فى ارتداء الزى الإسلامى الشرعى».

وقالت «فورتشن» فى مقالها:

«إن استفتاء جرى مؤخرا فى الضفة الغربية أظهر أن سكانها - وخاصة المثقفين منهم - يطالبون بالعودة إلى الإسلام، بعد أن يئسوا من جميع الأنظمة والأيديولوجيات، التى تنازعت أفكارهم سنوات طويلة».

وأردفت الصحيفة تقول:

«إن الإسرائيليين يشعرون أنهم يعيشون فى بحر متلاطم، يسيطر عليه الإسلام، وإن إسرائيل مهددة بالغرق والاندثار فى هذا البحر الإسلامى».

٧ - وأول ما نطالع فى ملحق صحيفة «ها آرتس» عن ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية فى قرى المثلث العربى، المحتلة منذ عام ١٩٤٨، مقالا عنوانه «الإسلام يعم قرى المثلث فى إسرائيل ...».

وجاء فى المقال:

«إن يوم الجمعة من كل أسبوع، أصبح عيدا لغالبية سكان (باقة) الغربية وهي من أكبر قري المثلث العربي في إسرائيل» ويردف المقال قائلا:

«إن سكان قرى المثلث لم يكونوا إلى ما قبل أشهر قليلة، وعلى مدى الثلاثين عاما الماضيَة، لم يكونوا يكترثون أبدا أو يهتمون بيوم الجمعة، فقد كان يمضى كأى يوم آخر من أيام الأسبوع، أما الآن، فقد أصبح ليوم الجمعة أهمية كبيرة، إذ ما أن يبدأ مؤذن المسجد برفع صوته بالأذان، حتى يهرع جميع السكان إلى المسجد، ليؤدوا الصلاة».

ويمضى المقال قائلا:

«إن من يزر قرية «باقة» الغربية يوم الجمعة، يشعر أن النشاط فيها قد انتقل من الشارع العام، ومن المتاجر والمساكن والمقاهى، إلى المساجد الثلاثة التى فى القرية، وليس باقة الغربية وحدها، التى يشعر فيها الزائر بذلك، بل إنه يشعر بنفس الشعور، حين يزور قرى قلنسوة، وكفر قاسم، وأم الفحم، والطيبة، وكفر قرع، والطبرة، وغيرها من القرى العربية».

إن ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية فى المناطق، التى يقطنها عرب فى «إسرائيل» ليست مقتصرة على القرى وحدها، بل إنها تبرز فى المدن أيضا وخاصة فى عكا، وإجمالا فإن القطاع العربى من إسرائيل يعيش حاليا مرحلة العودة إلى الإسلام، فقد أخذ الجميع، وخاصة الشباب يؤمون المساجد، بعد أن كانوا يمضون وقتهم فى المدن الكبرى فى المقاهى والنوادى والاجتماعات الحزبية، وهذه لم تشهد الأقلية العربية لها مثيلا من قبل».

وفى نفس ملحق صحيفة «ها آرتس» اليهودية الصادر بتاريخ ١٣/٧/١٩٧٩م، والذى خصصته كاملا عن اليقظة الإسلامية بين شباب قرى المثلث العربى بفلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، نطالع مقالا آخر تحت عنوان:

«العودة إلى الإسلام من جديد، أسئلة .. وتساؤلات ..».

يقول المقال:

«طوال الثلاثين عاما المنصرمة، كانت الاقلية العربية في إسرائيل تمارس نشاطا سياسيا متحفظا، غالبا ما كان تحت مظلة الحزب الشيوعي الاسرائيلي، أما الآن فان الأقلية العربيه بدأت تتجه اتجاها مختلفا نحو جذورها وأصولها الدينية، ولقد أصبحت ظاهرة تزايد اليقظة الاسلامية في صفوف الاقلية العربية، موضع اهتمام السلطات الرسمية، التي تنظر - بريبة وخوف - إليها».

ويردف المقال قائلا:

«إن ظاهرة تزايد اليقظة الاسلامية بين «عرب إسرائيل!!» أصبحت مصدر قلق أكيد لكل يهودى، فلقد أصبح كل يهودى يتساءل بقلق وخوف هذه التساؤلات:

ما هى أهداف هؤلاء الشباب، الذين يعودون إلى الإسلام من جديد ...؟!

ومن هؤلاء الذين يقفون وراء هذه الظاهرة ..؟!

وهل حركتهم هذه حركة عفوية، لن تلبث أن تزول أم أنها ستتحول إلى حركة إسلامية ثورية، كما حدث فى مناطق أخرى فى الشرق الأوسط؟!

وقبل أن يبدأ المقال فى محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، يشير إلى أن الخطر الحقيقي الذي تمثله ظاهرة العودة إلي الإسلام بين عرب إسرائيل هو «أن الآلاف من الشباب، الذين يعودون إلى الإسلام من جديد، هم من طلاب المدارس الابتدائية والثانوية ومعاهد المعلمين، أى أنهم من الجيل المثقف، ومن جيل المستقبل».

وينتقل الكاتب بعدئذ إلى الإجابة عن التساؤلات حول أهداف اليقظة الإسلامية، ومن هم الذين يقفون وراءها، فيقول: **إنه لاحظ أن الكثير من رجال الدين، الذين لهم نشاط مرموق، غالبا ما يكونون من أعضاء الحركة الإسلامية**، التى يصفها الكاتب اليهودى بقوله:

«إنها حركة دينية متعصبة، أنشئت فى مصر عام ١٩٢٩م، وانتشرت فى أنحاء العالم العربى».

ويردف المقال قائلا:

«إن النشاط الإسلامى ليس مقتصرا على رجال الدين وحدهم، بل أن **الواعظات** المسلمات لهن دور كبير فى تزايد اليقظة الإسلامية بين عرب إسرائيل - حسب تعبيره - ففى قرية «باقة» الغربية مثلا، تلقى واعظة شابة، تأتى من نابلس، دروسا دينية كل يوم ثلاثاء أمام نساء وفتيات القرية، وقد كان لهذه الدروس أثر كبير فى عودة الكثيرات إلى الإسلام، وامتلاء المساجد بهن فى الأماكن المخصصة لهن».

٨ - ونقلت صحيفة الشرق الأوسط فى ٢٨ / ٢ / ١٩٨١، التى تصدر بالعربية فى لندن وجدة فى وقت واحد، تحليلا بثته وكالة رويتر حول اكتشاف تنظيم إسلامى فى فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨م، وجاء فى التحليل:

«إن الصحوة الإسلامية التى انتشرت بين سكان الأراضى المحتلة فى فلسطين، تثير قلق سلطات الاحتلال الإسرائيلى، وإن هذه السلطات تنظر بقلق بالغ إلى تزايد أعداد المترددين على المساجد، وخاصة الشباب الذين أصبحوا ينادون – علانية – بضرورة العودة إلى أصول الدين والإسلام».

وأنهت وكالة أنباء رويتر تحليلها قائلة :

«إن السلطات الإسرائيلية لا تخفى قلقها من أن تكون هذه الصحوة الدينية بين شباب فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨م، قد أدت إلى تشكيل منظمات إسلامية شبه سرية على غرار جماعة الإخوان المسلمين».

٩ – نشرت جريدة «الرأى» الأردنية فى ١٢ / ٤ / ١٩٨١م، ترجمة حرفية لدراسة نشرتها جريدة «يديعوت أحرنوت» فى ملحقها الأسبوعى الأخير، ونقتطف من الدراسة هذه العبارات :

«إن الحركة السرية، التى تنشط فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، قد رسمت خطواتها بروح الإسلام، ولم تتأثر بأية روح قومية أو وطنية أخرى».

«الشباب المسلم فى فلسطين بعد أن فقد الأمل فى جميع الحركات العربية، أصبح يصرخ بأعلى صوته :

(لا عزة ولا قوة، إلا بالإسلام).

«إن المساجد التى كانت فى السابق مقرا لتجمع الشيوخ والعجائز، أصبحت اليوم مليئة بالشباب».

«الفتيات المسلمات يشاركن فى نشاطات الحركة الإسلامية فى فلسطين».

«الخطب فى المساجد تحولت إلى خطب سياسية، فيها تحريض واضح ضد الحكم الإسرائيلى».

«الحركة الإسلامية تتسع وينتمى إلى صفوفها اليوم، أكثر من عشرين بالمائة من شباب القرى العربية فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م».

« دعاة الحركة الإسلامية يقولون لمؤيديهم: إنه من أجل بث روح الإسلام فى فلسطين فلا بد من اللجوء إلى ضرب الاحتلال ومقاومته فى سبيل الله».

١٠ - نقلت صحيفة «الرأى» الأردنية فى عددها الصادر فى ١٤/٨/١٩٨١م، عن مجلة «نيوزويك» الأمريكية مقابلة، أجرتها مراسلة النيوزويك فى نيويورك، السيدة «مارلين ديسنر» مع «أهارون ياريف» أحد مديرى المخابرات الإسرائيلية السابقين، والرئيس الحالى لمركز الدراسات الاستراتيجية فى جامعة تل أبيب، ومن الأسئلة التى وجهت إلى «أهارون ياريف» هذا السؤال:

«هل سيكون بمقدور الأقطار العربية على المدى البعيد أن تزيل إسرائيل..؟».

وكان جواب «أهارون ياريف» كما يلى:

«لا أعتقد أن العرب - بأوضاعهم الحالية - يستطيعون أن يزيلوا إسرائيل من الوجود. حتما مع وجود أسلحة جديدة ومتطورة، ولكن الأمر قد يصبح أكثر خطورة بالنسبة لإسرائيل فى المستقبل، إذا نجح المتعصبون المسلمون فى تغيير الأوضاع فى الأقطار العربية لصالحهم. **ولكننا نأمل أن أصدقاءنا الكثيرين سينجحون فى القضاء على خطر المتعصبين المسلمين فى الوقت المناسب**».

١١ - نقلت صحيفة «القبس» الكويتية فى عددها رقم ٣٣٨٦، الصادر فى ١٢/١٠/١٩٨١، نص مقابلة إذاعية، أجراها راديو إسرائيل مع مناحيم بيغن، قبل أسبوعين من مقتل السادات، وفيما يلى أهم ما ورد على لسان مناحيم بيغن فى تلك المقابلة:

«سؤال المذيع: ألا تقلقك المصاعب، التى تواجه الرئيس السادات من قبل المعارضة؛ بسبب معاهدات كامب.ديفيد ...؟.

جواب بيغن: إننى أدرك تماما الأخطار، التى تهدد صديقنا الرئيس أنور السادات، ولست أنكر أنني حذرته مرارا من أولئك المتعصبين المتطرفين، الذين

يحملون أفكارا عدائية لإسرائيل، ويريدون العودة إلى تطبيق قوانين وعادات العصور الوسطى، بل العصور الحجرية. (يقصد قوانين الشريعة الإسلامية).

وعندما كنت فى أمريكا قام الرئيس السادات بحملة اعتقالات ضد أعدائه من الإخوان المسلمين [1]، وقد سمعت اعتراضات كثيرة هناك ضد هذه الحملة باعتبارها تتعارض مع التقاليد الديمقراطية، ولكننى دافعت عن إجراءات السادات بحرارة، **وأقنعت المعترضين بأنه يجب عليهم أن يتناسوا التقاليد الديمقراطية، حين يتعلق الأمر بالمسلمين ... انتهى ..**

هذه أخبار وتصريحات وتحليلات، نقلتها بحروفها من مصادرها [2]، دون أن أعقب عليها بكلمة واحدة، لتتحدث هى للقارئ بنفسها. وإن فيها لعبرة لكل ذى لب، وذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

فهل تقنع هذه الأقوال الموثقة كاتبنا أستاذ الفلسفة، الذى يكابر ويمارى فى أشد الحقائق وضوحا، ليعلن – فى جرأة يحسد عليها – أنها من أشد الأساطير فى حياتنا بطلانا؟!.

وهبنى قلت: هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء؟!!

* * *

---

(١) الواقع أن الاعتقالات شملت كل قوى المعارضة الإسلامية، والوطنية، والقومية.

(٢) اعتمدنا فى هذه النقول الموثقة من مصادرها على الدراسة الوثائقية، التى أعدها ونشرها الأخ الفاضل الأستاذ زياد أبو غنيمة، ونشرتها دار الفرقان فى عمان. وينبغى أن يضاف هنا ما كتبه الأستاذ عادل حسين فى صحيفة «الشعب» المصرية، التى يتولى رئاسة تحريرها، تقريرا وتعبيرا عن موقف أمريكا واليهود من الصحوة الإسلامية، من خلال زيارته لأمريكا، أوائل ١٩٨٧م.

(٣)

الشيـــــوعيـــــة

- الشيوعية باعتبارها فكرة (عقيدة ونظاما)
- الشيوعية باعتبارها دولة تعادى الإسلام
- لماذا نرفض الشيوعية؟
- الشيوعية مذهب مادى ضد عقيدتنا
- ضد شريعتنا وقيمنا الأخلاقية
- ضد الحريـــــة
- مذهب متناقض
- ضد وحدة الأمة
- استعمار جديد
- التخريب من الداخل علاقة اليهودية بالشيوعيـــــة
- أداة الصليبية لحربنا
- دعوة رجعية
- مذهب لا حاجة بنا إليه

الشيوعية

العدو الثالث للحل الإسلامى - بعد الاستعمار والصهيونية - هو الشيوعية .

والشيوعية عقيدة وفكرة ومذهب، كما أنها نظام ودولة وحكومة، منبثقة عن العقيدة . وهى - بكلا الاعتبارين - تحارب الإسلام، وتعتبره عدوا مبينا لها، وخطرا على وجودها وامتدادها .

● عقيدة الشيوعية تناقض الإسلام:

فهى - باعتبارها عقيدة وفكرة - تعادى الأديان كلها، وتخص الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة، كما تعد الدعاة إلى الإسلام ألد أعدائها .

إنها (فكرة مادية) تقوم على فلسفة (المادية التاريخية) التى قال بها (ماركس) والتى لا ترى وجوداً إلا للمادة، ولا تؤمن بما وراء المادة أو الحس (الميتافيزيقا) . وما دام (الله) الخالق للكون والإنسان غير مادى بمعنى أنه لا يرى ولا يلمس ولا يشم ولا يذاق، ولا يدرك بأى حاسة من الحواس المعروفة، فهى لا تؤمن بوجوده، بله أن تعترف بحاكميته لخلقه، وحقه - جل شأنه - فى أمرهم ونهيهم والتشريع لهم .

إن فلسفة ماركس تؤكد ما قاله الفلاسفة الماديون قديما وحديثا، مثل (فويرباخ) الذى قال : ليس صوابا أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله ! .

فالدين فى نظر الشيوعيين (خرافة) روّجتها طبقات الملوك والنبلاء والأثرياء والإقطاعيين وأمثالهم، لإلهاء الفقراء والمستضعفين والطبقات الكادحة والمسحوقة فى المجتمعات البشرية، عن المطالبة بحقوقهم، والثورة على ظالميهم، على أمل أن يعوضوا عن ذلك فى الجنة .

والدين بهذا الاعتبار يعد (مخدرا) أو (أفيونا) للشعوب، كما قال ماركس ومن تبعه.

على حين يرى الإسلام أن الدين هو جوهر الحياة، وروح الوجود الإنساني، والحياة بغير دين، هى حياة الأنعام، لا حياة الإنسان ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

والشيوعية لها فلسفة فى تفسير الكون والحياة والإنسان والتاريخ، تناقض فلسفة الإسلام وفكرته الكلية فى تفسير هذه الأشياء. فالكون هو هذا المادى المنظور، ولا يوجد كون آخر غير منظور، ولا خالق يدبر هذا الكون. والحياة هى هذه التى نعيشها، ولا حياة أخرى وراءها للحساب والجزاء ... والإنسان هو هذا الغلاف الطينى المادى الذى نراه، ولا روح فيه. والتاريخ إنما تحركه وتسيره عوامل اقتصادية بحتة، وعلاقات الإنتاج وأساليبه هى التى تحدد مسيرته. أما العوامل الروحية والأخلاقية والفكرية، فليس لها اعتبار يذكر، فى حين اعتبر القرآن هذه العوامل النفسية هى التى تغير الحياة، وتصنع التاريخ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

الشيوعية تقوم على فلسفة حتمية الصراع بين الطبقات، أما الإسلام فيقوم على ضرورة الإخاء والتعاون بين الناس كما فى الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانًا» [١] وفى القرآن: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢].

● **نظام الشيوعية يناقض شريعة الإسلام:**

والشيوعية ليست مجرد عقيدة وفلسفة نظرية، بل هى عقيدة ينبثق منها نظام للحياة، يصبغ حياة المجتمع كلها بصبغته، فى الاقتصاد، وفى الاجتماع،

(١) جزء من حديث متفق عليه.

وفى السياسة، وفى الثقافة، وفى التربية، وفى التشريع، وفى التقاليد، وفى الفنون، وفى كل شئون الحياة فردية وأسرية واجتماعية، مادية ومعنوية، محلية ودولية.

وهى - بهذا الاعتبار أيضا - تعارض الإسلام ويعارضها، على خط مستقيم. فالإسلام يتميز بأنه عقيدة وشريعة ومنهج كامل للحياة يصحب الإنسان بأحكامه ووصاياه، منذ أن يولد إلى أن يموت، بل من قبل أن يولد، وبعد أن يموت. وكما يصحبه (زمانيا) فى رحلة حياته كلها، طالت أم قصرت، يصحبه (مكانيا) فى جوانب حياته كلها، فى البيت وفى الطريق، وفى المسجد وفى المزرعة أو المصنع أو المتجر، أو المدرسة أو الجامعة أو المكتب أو المحكمة أو الديوان. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

ولا يخلو عمل أو تصرف من تصرفات الحياة إلا وللإسلام فيه حكم من أحكامه الشرعية الخمسة: الوجوب، أو الاستحباب، أو التحريم، أو الكراهة، أو الإباحة، ابتداء من أدب المائدة إلى بناء الدولة.

وللإسلام أحكام قاطعة تعد من الثوابت التى لا يجوز التنازل عنها أو التفريط فيها، مثل أحكام الزواج والطلاق والمواريث، وحل البيع، وحرمة الربا، وتحريم المسكرات والزنى والاعتداء على الملكية الخاصة للناس، وإقامة الحدود والقصاص ... إلخ.

وللشيوعية فى كثير من هذه الأحكام مواقف مضادة، ومن هنا لا بد من الصدام مع الإسلام، الصدام الفكرى أولا، ثم الصدام العملى بعد ذلك.

فإذا كانت الشيوعية تصطدم بالمسيحية مثلا بوصفها عقيدة، فهى تصطدم بالإسلام بوصفه عقيدة ونظاما ومنهاجا متكاملا للحياة.

● الشيوعية باعتبارها دولة:

علمنا أن الشيوعية ليست مجرد عقيدة ومذهب ونظام للحياة، وقد كانت كذلك منذ عهد ماركس وإنجلز، ولكنها بعد عهد لينين، أصبحت دولة

وحكومة، بل دولة كبرى، تعتبر الدولة الثانية وأحد قطبى العالم، وإحدى القوتين العظميين.

وهذه الدولة تتوجس خيفة من الإسلام من جهتين: من داخلها، ومن خارجها.

فمن ناحية الداخل، نجدها تضم ملايين المسلمين فى داخل روسيا نفسها من التتار والقوقازيين وغيرهم.

كما يضم الاتحاد السوفيتى (جمهوريات إسلامية) هى فى حقيقة أمرها (أوطان إسلامية) كاملة، لها استقلالها، ولها هويتها، ولها حضارتها وتاريخها، ضمت بالقوة القاهرة إلى الاتحاد السوفيتى، وأدخلت قسرا تحت الستار الحديدى، وعدهم الناس ضمن (الأقليات الإسلامية).

هؤلاء المسلمون قاوموا الثورة الشيوعية، وضربوا بيد من حديد، وسحقتهم القوة الجبارة سحقا، وذبحت الملايين، وسجنت وشردت، ونكلت وعذبت، واستخدمت كل أدوات البطش والقهر، حتى رضخ الناس أخيرا، حين قلمت أظفارهم، وخلعت أنيابهم، وكسرت أسلحتهم وأدواتهم، ولم يبق لهم ما يدافعون به عن أنفسهم.

وكلما بدا منهم شئ، وحتى بدون أن يبدوا شئ ،مجرد هواجس أو مخاوف تُعرّض هؤلاء المسلمين لإبادات منظمة، بالتقتيل أو بالتهجير، من أرض إلى أرض، محاولة للتغيير (الديمجرافى) وخصوصا النفى إلى صحراء (سيبيريا).

هذا من ناحية الداخل، أما من ناحية الخارج، فإن الإسلام يقف عقبة فى سبيل انتشار الشيوعية فى العالم العربى، والعالم الإسلامى، فى آسيا وفى إفريقيا، وهو السد المنيع الحائل دون المد الشيوعى.

ورغم وجود أقوى حزب شيوعى فى آسيا فى بلد إسلامى - وهو إندونيسيا - لم يستطع أن يستولى على الحكم، وفى أول فرصة انهار الحزب ولم تقم له قائمة.

وكذلك كان أقوى حزب شيوعى فى إفريقيا فى بلد إسلامى آخر، هو السودان، وقد سقط الحزب كذلك على أم رأسه، فلم يستطع أن يجد له فرصة بعد ذلك.

هناك بلدان إسلاميان صغيران دخلتهما الشيوعية فى غفلة من المسلمين:

البلد الأول: هو (ألبانيا) من أوروبا الشرقية.

والبلد الثانى هو: (اليمن الجنوبى) من الجزيرة العربية.

وكلا البلدين شقى بالشيوعية، ولم يطعم الناس فيه من جوع، ولم يأمنوا من خوف، ولم تحقق الشيوعية لهم (الجنة) التى وعدتهم بها، ولم يجن الناس من ورائها غير الشوك والحنظل، والثمرة من جنس البذرة ﴿ **وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً** ﴾ [الأعراف: ٥٨].

● علاقة الشيوعية باليهودية:

وهناك عامل آخر يزيد نار العداوة الشيوعية اشتعالا للإسلام ودعاته، ذلك: أن الشيوعية أو الماركسية، أو الاشتراكية العلمية هى بنت اليهودية. وعلاقة الشيوعية باليهودية علاقة وثيقة لا تنكر، فى روسيا أو فى غيرها، قبل الثورة البلشفية فى روسيا وبعدها فى الفكر والتخطيط والتمويل والتنفيذ.

ومن أدلة ذلك:

١ - أن كارل ماركس مؤسس الشيوعية نفسه من أسرة يهودية عريقة. فقد كان جده حاخاما معروفا، وكذلك كان والده، وإن اضطر إلى اعتناق البرتستانتية فى منتصف عمره، لكى يستطيع أن يمارس مهنته فى بيئة ألمانية تكره اليهود ولا تثق بمعاملاتهم، وتقيد عليهم ممارسة بعض المهن والحرف.

لقد ظلت العقيدة اليهوذية تعمل عملها فى نفس ماركس، وأخذت «المشكلة اليهودية» قدرا كبيرا من كتاباته وتفكيره. وقد ألقى اللوم فى اضطهاد اليهود على الظروف الاقتصادية التى تكتنف الجماعات التى يعيش بينها اليهود،

لا على العناد اليهودى نفسه الذى يريد أن يفرض منزلته (كشعب الله المختار) على الجماعات الأخرى، بكل الوسائل (ومنها الربا) مما يدفع هذه الجماعات إلى المقاومة والاستنكار والانتقام من اليهود.

ولقد كان ماركس وثيق الصلة بل التلمذة على مؤسس النظرية الصهيونية وفيلسوفها الأول «موثه هيس» الذى وضع أسس الحركة الصهيونية نظريا وتطبيقيا فى كتابه العميق «الدولة اليهودية» وفى بحثه الآخر «روما والقدس» اللذين استوحى منهما «هيرتزل» الزاد الفكرى للترويج للحركة الصهيونية.

التقى كارل ماركس و«موثه هيس» سنة ١٨٦٢ لقاء صداقة عميقة متواصلة طويلة، وبلغ إعجابه به حد العشق والافتتان، كما يلحظه كل مطلع على كتب ماركس، مثل أطروحته عن «المشكلة اليهودية» وخصوصا رسائله إلى «أورباخ» وقد وصف صديقه «موثه هيس» بما يلى:

«إننى قد اتخذت هذا العبقرى قدوة لى ومثالا، لما يتحلى به من دقة فى التفكير، وتوارد فى الخواطر، وتوافق فى الآراء مع عقيدتى وما أومن به .. فهو رجل نضالى فى الفكر والسلوك ...».

وكثير من أقطاب الفكر الصهيونى المعاصر يؤكدون صلة ماركس بالصهيونية، وإخلاصه لها، مثل الحاخام «لويز رونس» فى كتابه «أغرب من الخيال» الذى يقول فيه: «إن كارل ماركس حفيد الحاخام «مردخاى ماركس» كان فى روحه واجتهاده وعمله ونشاطه، وكل ما قام به وأعد له من فكر وأسلوب، أشد إخلاصا لإسرائيل من الكثيرين ممن يتشدقون اليوم بأدوارهم فى مولد الدولة اليهودية» (١).

٢ - لقد انتهى كارل ماركس فى دراسته للمشكلة اليهودية إلى أنها لا تنحل نهائيا إلا بالتحويل الاشتراكى للعالم بأسره، وإذابة الأديان والقوميات

---

(١) موسكو وإسرائيل للدكتور عمر خليفة ص ٣٠، ٣١.

كلها فى بوتقة الماركسية. وما دامت الماركسية فكرة وحركة تتوخى إخضاع المجتمع إلى «طليعة ثورية» تجمع فى يدها كل مقدرات الأمة، فقد وجد اليهود فى هذه الفكرة ما يتفق واعتقادهم بأنهم «شعب الله المختار» لذلك جاهدوا أن يكونوا هم هذه «الطليعة القيادية» المختارة، لكل الحركات الماركسية فى العالم.

ولا غرو أن وجدت تعاليم ماركس فى روسيا يهوديا خارق الذكاء، حديدى العزم، استطاع أن يحول الماركسية من فكرة وحركة إلى ثورة ودولة تتسلم زمام الحكم فى روسيا، ذلك هو «لينين» الذى لولا أساليبه الجهنمية ما كان هناك احتمال لوصول الماركسيين فى أى مكان إلى سدة الحكم، كما هو رأى أكثر المؤرخين.

كان لينين يهودى الأصل، وكانت زوجته ورفيقة حياته فى العمل الماركسى يهودية أيضا. وكذلك الأغلبية الساحقة من زملائه وأعوانه فى الحركة الماركسية، خارج الاتحاد السوفيتى وداخله، فى سدة الحكم البلشفى، وفى أيام منفاه، أمثال « تروتسكى » و« رادك» و« روزا لوكسمبورغ » وعشرات غيرهم من أقطاب الحركة الماركسية كلهم من اليهود من مختلف الجنسيات.

ولهذا لا نعجب إذا كان أكثر زعماء الحكم الشيوعى الجديد من اليهود، بعضهم روس، وبعضهم بولنديون، وبعضهم من ألمانيا، ومن غيرها من البلاد والتبعيات.

٣ – وفى الأيام الأولى من تسلم البلشفيك (الشيوعيين) الحكم فى روسيا، وفى الأسبوع الأول بالضبط من حكم «لينين» سنة ١٩١٧، أصدرت الحكومة السوفيتية الجديدة قرارين رئيسين:

أحدهما: اعتبار العداء لليهود جريمة يعاقب عليها القانون.

وثانيهما وهو أهمهما: إعلان الحكومة السوفياتية برياسة «لينين» التأمين الكامل لحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين.

وقد نشرت ذلك مجلة «فرنسا القديمة» في مجلد عام ١٩٢٠ [١] أي في الأيام المعاصرة لحكم لينين نفسه. ولفت النظر إلى هذا القرار كاتب عربي هو الأستاذ «إبراهيم الحلو» في كتابه «الشيوعي والصهيوني توأمان» [٢].

وليس شئ أدل على هذا القرار من تغلغل النفوذ اليهودي في الدولة الاشتراكية الأم منذ بدء قيامها، حتى إنها لتصدر في الأسبوع الأول من حكمها مثل هذا القرار الخطير، في نفس الوقت الذي صدر فيه أيضا «وعد بلفور» المشهور، وإن هذا الوعد الإنجليزي وذاك القرار الروسي ليدلاننا على مدى المكر اليهودي ومبلغ سيطرته على القوى السياسية الكبرى في العالم، وإن كان الناس يعرفون وعد «بلفور» ويذكرونه، ولكنهم يجهلون قرار «لينين» الذي ظهر أثره جليا فيما بعد في محافل هيئة الأمم، ودور الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية قاطبة، في خلق إسرائيل وإبقائها.

٤ - وفي معبد الماركسية الرئيسي في موسكو ظل خبراء الشؤون العربية السوفيات مقصورين على المثقفين من الثوريين اليهود، من مختلف الجنسيات.

فأكبر خبير في أول سنوات الحكم البلشفي سنة ١٩١٧ - ١٩٢٧ في الشؤون العربية والإسلامية كان المدعو «ميخائيل بافلو فيتش» واسمه الحقيقي «لازار فالثمان» وهو يهودي عيّنه البلشفيك رئيسا للجمعية العلمية للدراسات الشرقية، وتولى هذا اليهودي تحرير مجلة «الشرق الجديد» التي أصبحت مصنعا

---

(١) موسكو وإسرائيل ص ٤٨، ٤٩.

(٢) صادر في دمشق وليس عليه تاريخ. انظر موسكو وإسرائيل ص ٣١، ٣٢.

فكريًا ومرجعا رئيسيا لأى تخطيط عقائدى أو سياسى أو تنفيذى، بالسياسة السوفيتية، وللماركسية العالمية فى «الكومنترن» بشأن قضايا العرب والإسلام.

وتكفل الاجتهاد اليهودى بإعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى من الزاوية الماركسية، ليفهم أهل الحل والربط فى السياسة السوفيتية وفى «الكومنترن» مواطن الضعف والقوة فى دنيا العرب والإسلام.

ومن أمثلة هذا الإعداد والاجتهاد لدرس سبل الوصول الماركسى إلى الساحة العربية: هذا البحث المبكر الذى نشره اللسان الرسمى لأعلى مرجع فى المعهد السوفيتى كله «المجلة القانونية للحزب الحاكم».

فى هذا البحث جاء هذا القول:

عالم العرب تتفاوت جماعاته فى مستوى النضوج الاقتصادى والاجتماعى، من وجهة النظر الاشتراكية العلمية، ولكنهم جميعا يتحدون فى شئ واحد، وهو رسوخ العقيدة الدينية الرجعية فى طباعهم، ثم يليها النزعة القومية، وهى نزعة أساسها اللغة والثقافة العربية الإسلامية «فلا بد من التغلب أولا على الدوافع الثقافية؛ لأنها أسهل منالا وأقل استحكاما .. فالوعى فى دنيا العرب ضعيف، والتسرب إليه وتوجيهه يساريا أمر ممكن، وخصوصا أن شعار «مكافحة الاستعمار» سريع الرواج فى الوسط العربى القومى والدينى.

«والتعليم يساعد على التوسع فى التوجيه الثقافى والتعليمى والإعلامى من الزاوية اليسارية .. وخير مكان للدخول إلى ذلك هو من المركز التقليدى للثقافة العربية .. من القاهرة» [1].

٥ - ولا عجب أن رأينا دعاة الماركسية الثورية الأوائل فى العالم العربى من اليهود.

فأول حزب شيوعى فى مصر أسس سنة ١٩٢١ على يد يهودى يدعى

---

(١) موسكو وإسرائيل ص ٤٨، ٤٩.

« روزنبرغ » وهو صاحب مخزن لبيع الجواهر فى الاسكندرية، ثم تطورت الحركة الماركسية على يد جماعة من اليهود فى مصر رمز لها باسم « حد تّو » أى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، والذى أسس هذه الحركة وموّلها ورعاها يهودى أجنبى إيطالى الأصل « متمصر » آسمه « هنرى كوريل » [١] صاحب « بنك كوريل » بالقاهرة [٢].

ومن عجب أن يكون هذا المليونير اليهودى الأجنبى هو الداعية الحنون لرعاية الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين المصريين!!.

وكل المنظمات اليسارية فى مصر كان يقوم عليها اليهود: حركة « دال شين » يرأسها يوسف درويش وريمون دويك وهما يهوديان. وحركة « اسكرا » يرأسها « إيلى شوارتز » وهو يهودى. وحركة « م ش م » ترأسها أوديت وسلامون زوجها وهما يهوديان. وهذه هى التنظيمات الشيوعية الرئيسية فى مصر قبيل الحرب الفلسطينية وخلالها، وهى التى اندمجت وانقسمت بعد ذلك حتى وصلت إلى حوالى ثلاثين منظمة .. لم تخرج عن سيطرة اليهود [٣].

وتاريخ اليسار الماركسى الثورى فى العراق مدين أيضا لليهود فى التنظيم والحضانة، والتمويل من أمثال المليونير « قطاف » وغيره، كما يعلم ذلك كل مطلع

---

(١) كان هذا اليهودى الماركسى معتقلا معنا سنة ١٩٤٩ فى معتقل « هاكستب » بالقرب من القاهرة. فقد جمع هذا المعتقل الإخوان والشيوعيين، وكان (كوريل) يحرك الشبان المصريين والسودانيين الشيوعيين كأنهم دمى فى يده!.

(٢) وثائق الحركة اليسارية المصرية التى نشرها هنرى كوريل نفسه، وطبعها ووزعها الحزب الشيوعى الفرنسى عام ١٩٥٦ ، وكذلك سلسلة المقالات التى نشرها الأستاذ أحمد زين العابدين المحامى، أحد زعماء اليسار فى السودان فى مجلة « النداء » السودانية أعداد مايو ١٩٦٦ أنظر: موسكو وإسرائيل ص ٢٩ .

(٣) انظر: دراسة فى فكر منحل للأستاذ جلال كشك ص ١٤٩ .

على تاريخ الحركة الماركسية فى العراق [١] وكان سكرتير الحزب الشيوعى فى عام ١٩٤٧ هو «شلومو دلال» [٢].

واللجنة المركزية الأولى للحزب الشيوعى السورى اللبنانى، كان سكرتيرها العام هو «جاكوب تيبر» وكان «تيبر» هذا يهوديا روسيا قدم من فلسطين إلى بيروت واسمه الحزبى: الرفيق «شامي» [٣].

وحتى بعد انتخاب القيادة الجديدة برئاسة أول شيوعى مسلم الأصل، وهو خالد بكراش أرسلت فرج الله الحلو إلى تل أبيب لتنسيق العمل، وأستقدمت اليهودى «نخمان ليفنسكى» بوصفه مستشارا أو خبيرا فى التنظيم الماركسى [٤].

● **حملة الشيوعية على الإسلام منذ قيام دولتها:**

وحملة الشيوعية على الإسلام، ومحاولة مسخه وتشويهه ونشر الأكاذيب من حوله – قضية قديمة، ليست بنت اليوم، ولا وليدة الأمس القريب. إنها برزت سافرة مكشوفة القناع منذ سيطر الشيوعيون على الحكم فى روسيا.

فقد عقد أعضاء «الكومنترن» – وهو الهيئة الدولية للشيوعية – مؤتمرا فى مدينة «باكو» بالقوقاز (من ١٩/٧ إلى ٨/٧ سنة ١٩٢٠) كان رئيسه «كارل راديك» اليهودى الماركسى العتيد. وكان اللحن الرئيسى لهذا المؤتمر – كما وصف راديك – هو خلق شعار «حركة التحرير الوطنى» للشعوب العربية والإسلامية.

وقد تمخض مؤتمر «باكو» عن بيان أو «مانيفيستو» موجه إلى الشعوب

---

(١) موسكو وإسرائيل ص ٢٩. (٢) دراسة فى فكر منحل ص ١٤٩.
(٣) تاريخ الأحزاب الشيوعية فى العالم العربى ص ١٦.
(٤) صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان – محمد على الزرقا، وإلياس مرقص.

الإسلامية. اشتمل هذا البيان على عبارات ونداءات - بشأن القضية الفلسطينية - لازالت دستورا للماركسية الدولية والعربية إلى اليوم. مثل:

« ... انظروا ما فعل الاستعمار البريطانى فى فلسطين. لقد ساعدوا اليهود الأبرياء (كذا).

« .. فإذا استمر هذا العداء ستضعف قوى الطرفين: العربى واليهودى، ليسود الاستعمار البريطانى والرجعية العربية عليهما معا. وتتمزق صفوف الجماهير العربية واليهودية معا .. ».

والذى يعنينا فى هذا الموضوع هو ما احتواه البيان الماركسى فى ذلك العهد المبكر، من شتائم وأكاذيب ضد الإسلام ونبيه، تستفز شعور أدنى المسلمين غيرة على دينه.

من هذه الشتائم السافلة هذه الفقرة:

« يا شعوب الشرق.

« كم من مرة دعتكم حكوماتكم الرجعية إلى الحرب المقدسة ... إلى الجهاد ... ومشيتم إلى الحرب تحت راية النبى الخضراء ... ولكن مثل تلك الحروب كانت خدعة لكم، لا يستفيد منها سوى الرجعية والإقطاع ... وتلك الراية كانت زائفة؛ لأن النبى نفسه زائف ومخادع، جاء بدعوة تخدم الرجعية والإقطاع ».

هذه فقرة من البيان الذى أراد به مصدّروه بلشفة العالم الإسلامى، والذى علقت عليه المجلة العسكرية السوفيتية حينذاك، والتى كان يشرف عليها اليهودى « تروتسكى » وزير الحربية وخليفة « لينين » فوصفته بأنه « قرآن جديد للمسلمين »!.

ولا غرو أن غضب المسلمون فى الاتحاد السوفيتى نفسه، حين نشرت أخبار المؤتمر وبياناته، وثاروا على عنف التحدى لعقيدتهم الإسلامية، مما اضطر « لينين » نفسه - وكذلك « ستالين » - أن يرسل توبيخات شديدة لأعوانه « اليهود » الذين

أشرفوا على مؤتمر «باكو» لتسرعهم فى مواجهة الإسلام بهذه السرعة وهذا العنف[1].

● **أساليب الشيوعيين فى محاربة الإسلام:**

وللشيوعية أساليب متنوعة فى حرب الإسلام، ومقاومة الاتجاه الإسلامى. فمن هذه الوسائل:

● **الدراسات المضللة:**

١- ويعنى بها الدراسات الخبيثة المضللة التى يقوم بها كتاب الشيوعية ومستشرقوها، فكما أن للمسيحية مبشريها الذين يلبسون مسوح الدين، وهم يستحلون الكذب على الإسلام ونبيه وتاريخه، نرى للشيوعية مبشريها الذين يتزيون بزى أهل العلم والبحث وما هم من العلم والبحث فى شئ إنما هم ناشرو أكاذيب، ومروجو أباطيل.

ومن أمثلة ذلك النشرة التى كتبها أحد مبشرى الماركسية الروس، رنشرها شيوعيو العراق - فى عهد عبد الكريم قاسم - وعرفت باسم «الكراسة الرمادية» وهى تحتوى جملة من التهم الملفقة الباطلة التى يضللون بها من ليس لهم أدنى علم بأصول الإسلام وتاريخه.

وقد رددنا عليها فى بحث نشر فى مجلة الأزهر ومستقلا تحت عنوان «الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين[2]» وقد ترجمه الأزهر إلى الإنجليزية.

ولا بأس أن أضع أمام القارئ بعض النماذج «العينات» التى كتبها

---

(١) موسكو وإسرائيل ص ٤٠ - ٤٥ وقد نقل المؤلف هذه الوقائع والنصوص من مراجع الشيوعيين أنفسهم.

(٢) اشتركت فيه مع أخى وزميلى أحمد العسال، وكان ذلك بتكليف من الأستاذ الدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر فى عهد الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

الشيوعيون الروس فى موسوعتهم عن «الإسلام» ليعلم القارئ الواعى المنصف إلى أى درك انحط هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم الموضوعية والعلمية فى البحث والتفكير.

وأنقل هذه الفقرات من كتاب (أضواء على الشيوعية) .

كتبت الموسوعة الروسية تهاجم نبى الإسلام وكتابه فى الصفحة ٥٩٩ من المجلد الثامن تقول: «إن القرآن هو الكتاب المقدس الأساسى للإسلام. وهو عبارة عن مجموعة من المواد الدينية والعقائد تستخدمه الطبقات الاستغلالية وعلماء الدين الإسلامى الرجعيون كسلاح لخديعة الجماهير الكادحة وقهرها !

وتمضى الموسوعة الشيوعية فى انتهاكها حرمة الإسلام فتقول:

«ولد محمد حوالى ٥٧٠م وتوفى عام ٦٣٢م، ويعتبر موحدا للإسلام. ويصوره العرف الإسلامى الدينى كأعظم الأنبياء وخاتمهم. وكان أول من وضع سيرة محمد هو ابن إسحاق من المدينة، وكان هذا جامع خرافات شعبية وأساطير. ويوجد فى هذه السيرة عدد كبير من الخرافات والأساطير!!

بل إن سيرة محمد فى هذه الأيام تستمد بالدرجة الأولى من مواد شبه خرافية. من القرآن، وهو مواد يتقبلها دعاة الإسلام البرجوازيون دون أى اعتراض.

وقد أرغم سكان مكة بقوة السلاح على اعتناق الإسلام والاعتراف بسلطته.

ولقد أصبح لمحمد فى أذهان الأجيال من المسلمين مكانة التقديس فهو صانع المعجزات وشفيع المؤمنين أمام «الله»، وأما المعاصرون المتعصبون للإسلام فإنهم يبذلون جهدهم للإفادة من شخصية محمد الخرافية فى محاولتهم إضعاف النضال الطبقى.

وتضيف الموسوعة المضللة أيضا فى مجلدها الثانى والعشرين صفحة ٤٨٨ ما يلى:

«إن الإسلام كغيره من الديانات الأخرى يقوم دائما بدور رجعي بحيث يكون سلاحا للضغط الروحي بأيدى الطبقات المستغلة، تشهره على الطبقات العاملة الكادحة. وقد استخدم الإسلام لاستعباد الشعوب في الشرق.

والرأى القائل «بشيوعية» الإسلام في أول عهده، وأن «محمدا» وهو الرجل المفترض فيه بأنه مؤسس الإسلام، وأنه كان ثائرا ومصلحا اجتماعيا كبيرا. إنما هو رأى قصد به أن يخفى الجوهر الحقيقى للإسلام، فالقرآن الذى يدافع بشدة عن نظام الاستعباد والذى يعتبر الرقيق نظاما من عند الله. والذى يشجع الاستغلال وعدم المساواة فى الملكية والمركز الاجتماعى بين الناس، إنما ينهض دليلا على بطلان ذلك الرأى المضلل. ولم يكن الإسلام يستخدم كأداة لتنظيم المذابح بين الشعوب الرازحة تحت الظلم فحسب، بل كان يستعمل ضد روسيا أيضـــا.

ففى النصف الثانى للقرن التاسع عشر أخذت فكرة التوسع الإسلامى تنتشر فى بلاد الشرق وهى حركة رجعية تهدف إلى توحيد الشعوب الأسلامية».

بل جاء أيضا فى هذه الموسوعة المليئة بالمهاترات فى المجلد الثامن عشر صفحة ٥١٦ بالذات ما يلى:

«على أثر الانتصار الذى أحرزته ثورة أكتوبر الاشتراكية فى روسيا، أصبح الإسلام أداة داخلية مناهضة للثورة بأيدى المستعمرين. ففى عام ١٩١٩ أقيمت إمارة فى شمالى القوقاز عين عليها شيخ أعلن أنه سيقيم حكمه على أساس أحكام الشريعة الإسلامية، وفى تركستان طالب علماء الدين الإسلامى الذين كانوا عملاء للاستعماريين الأجانب بأن تدار شؤون البلاد بمبادئ الإسلام، وقاموا بالتظاهر ضد نظام الحكم السوفياتى تحت ستار الدفاع عن الإسلام، ونتيجة لانتصار الاشتراكية وتصفية الطبقات الاستغلالية فى الاتحاد السوفياتى، دمرت أصول الإسلام الاجتماعية كما دمرت أصول غيره من الأديان. ولم يعد الإسلام

في الاتحاد السوفيتي اليوم سوى بقية شكل من أشكال مبادئ المجتمع الاستغلالي »[1].

● **التخريب من الداخل :**

ومن وسائل الشيوعية في حرب الإسلام : التخريب من الداخل، وذلك بالتسلل إلى داخل المجتمع الإسلامي، واصطياد السطحين المخدوعين الذين تضللهم الشعارات البراقة، فيركضون وراء سرابها مصدقين، والمحرومين الذين أجج النظام الاجتماعي في صدورهم نار الحقد على كل الأوضاع القائمة، فلم يعودوا يفكرون إلا في الهدم والتدمير، والعملاء الذين يتسترون بالثورية والماركسية، لينفذوا منها لضرب الإسلام في عقر داره ويعادي أهله أنفسهم.

ولقد فشلت الشيوعية سنين عددا، ولم تجد في ديار العرب مسلما واحدا يؤمن بها، وينخرط في حزبها، كما يتبين ذلك في تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، والأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط بصفة عامة، فقد كان أعضاؤها الأوائل من اليهود أولا، ثم انضم إليهم بعض النصارى، وأخيرا استطاعوا أن يوقعوا في شباكهم أفرادا من أبناء المسلمين.

وكان هذا نصرا كبيرا بلا شك : أن يحول الشباب المسلم ولاءه إلى المادية الجدلية بدل الرسالة الإسلامية، وأن يؤمن بزعامة ماركس ولينين بدل محمد رسول الله، وأن يتغنى بالبيان الشيوعي بدل التعبد بتلاوة القرآن الكريم، وأن يتجه إلى موسكو بدل مكة والمدينة.

أصبح هؤلاء ينتظرون الوحي دائما من موسكو، وغدت هي قبلتهم الجديدة فلها ولاؤهم، وإليها اتجاههم وحجهم، ومنها استمدادهم. ولا عجب أن تجد من هؤلاء من يخرج على إجماع أمته كلها، إذا كان مخالفا لوحي سادته في موسكو.

---

(١) انظر: كتاب (أضواء على الشيوعية) ص ٤٢ ـ ٤٥.

لقد نامت موسكو وبكين وغيرهما من عواصم الشيوعية ملء الجفون، حين أفلحت فى تخريج تلاميذ مخلصين، بل عبيد مطيعين، يحملون عنها عبء التبشير بالدعوة الماركسية، والعداوة للرسالة المحمدية، والمقاومة المستميتة للفكرة الإسلامية.

حفظ هؤلاء «أكليشهات» الماركسية واللينينية عن الدين ورجاله وتاريخه، فهم «ينقشونها» كما هى بمناسبة أو بغير مناسبة.

كنت أفكّر أن أنقل هنا بعض النماذج لتلاميذ الماركسية، لنعلم أى مدى من التخريب بلغته الشيوعية فى بلادنا، ولكنى اكتفيت بشهرة ذلك عن تسجيله. ثم إن سقوط الشيوعية فى بلادها الأم ثبطنى.

ومن أساليب الشيوعية فى محاربة الإسلام، تحريض الحكومات الموالية على الإسلام والحل الإسلامى، ومقاومة الاتجاه الإسلامى الصحيح، والإيعاز إلى الحكومات العلمانية الموالية لها، والتى تمدها - أو تكبلها - بالقروض والمساعدات، والسلاح والخبراء، والإيحاء إليها بضرب الحركات الإسلامية الواعية بعنف وقسوة، وتشريد رجالها فى غير رحمة ولا هوادة، وشن حملات التضليل الجبارة لتلويث سمعتها، وتحريف أهدافها، وتشويه أساليبها، وتنفير العامة والخاصة من فكرتها ودعوتها.

ولا يزال الناس يذكرون سنة ١٩٦٥ زعيما كبيرا، أعلن بجوار قبر لينين العظيم! اكتشاف مؤامره دبرها الرجعيون الإسلاميون، مؤكدا أمام سادة الكرملين: إنه سيضرب بشدة، ولن يرحم أبدا. !!.

* * *

لماذا نرفض الشيوعية؟

إذا كانت الشيوعية أو الماركسية ترفض الإسلام، وتتخذه عدوا لها، كما بينا في الصفحات السابقة، فإننا – نحن المسلمين – نرفضها كذلك، بل نقاومها ونحاربها، لعوامل وأسباب شتى، يطول الحديث عنها، ولكن ينبغي لنا هنا أن نوجز القول فيها، لنقيم الحجة على المخدوعين، ونخرس ألسنة الخادعين، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة.

١ – الشيوعية مذهب مادى ضد العقيدة:

أول الأسباب في رفض الشيوعية أو النظرية الماركسية: أنها مذهب مادى، ينكر كل ما وراء الحس، وما بعد الطبيعة، فلا يؤمن أن للكون إلها، ولا أن للإنسان روحا ولا أن بعد الدنيا آخرة، ولا أن لله تعالى رسلا وأنبياء أرسلهم لهداية الناس، وكل ما يقال في هذا المجال، إنما هو أباطيل اخترعها الأغنياء لإلهاء الفقراء، والأقوياء لابتزاز الضعفاء، والحكام والمحكومين، فالماركسية أو الشيوعية تتبنى هنا ما قاله بعض الفلاسفة الماديين: أن الله لم يخلق الإنسان، بل الإنسان هو الذى خلق الله!.

يعنون أن فكرة الألوهية لا حقيقة لها، وإنما هى فكرة ابتكرها خيال الإنسان، واستغلها أولو الغنى والقوة والسلطة.

والدستور الروسى الشيوعى يقول: لا إله، والحياة مادة.

والتعليم الروسى، والثقافة الروسية، والإعلام الروسى، كلها تقوم على غرس الفكرة المادية وتثبيتها، ونفى ما عداها. فكلها تتبنى الإلحاد.

إن الشيوعية ليست ضد العقيدة الإسلامية وحدها، بل هى ضد المسيحية، وضد كل الأديان والرسالات الإلهية. لأن أساس الأديان (الوحى) وهو شئ غير مادى.

ومن عور الماركسية أو عماها أنها جعلت العامل المادى هو العامل المؤثر

الفعال – عموما ودائما وعلى كل حال – فى سلوك الفرد، وسلوك الجماعة، وسير التاريخ، ولو اكتفوا بقولهم: إن له تأثيرا مهما ما خالفناهم، فهذا ما يصدقه الواقع، وما يؤيده ديننا الذى أثبت أن من الناس من قتلوا أولادهم من إملاق أو خشية إملاق.

ولكنهم – لعماهم وغلوهم – أغفلوا كل العوامل الأخرى فكرية وروحية وعاطفية وكونية قدرية!.

والعلم والواقع يؤكدان أن بين الفكر والمادة تفاعلا، كلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به، بل المؤكد أن الفكر الإنسانى أعمق تأثيرا من المادة فى توجيه الأفراد وتغيير المجتمعات. يقول الفيلسوف المعاصر برترند رسل: إن التغييرات التى تلحق بأدوات الإنتاج ترتد فى أساسها إلى أسباب ذات طبيعة عقلية، وهى تتمثل فى كشوف العلم ومخترعاته. واستقراء التاريخ لا يؤيد رأى الماركسية فى أن كشوف العلم ومخترعاته تنشأ عن الأوضاع المادية [1].

يقول انجلز فى كتابه «ضد دو.هرنج»:

«ليس الدين سوى انعكاس خيالى وهمى فى أذهان الناس من القوى الخارجية على حياتهم اليومية، وهم انعكاس تتخذ فيه قوى العالم شكل قوى فوق الطبيعة» [2].

ولكن لو كان الدين مجرد انعكاس للظروف الاقتصادية ولأسلوب الإنتاج خاصة، فلماذا عاش دين كالمسيحية ألفى عام رغم تطور أساليب الإنتاج، بل لماذا عاشت اليهودية أكثر من ذلك؟ ولماذا تتعدد الأديان فى البيئة الواحدة رغم وحدة الوضع الاقتصادى وأسلوب الإنتاج؟ لماذا كان فى الهند مسلمون وهندوس؟ وكان فى الشرق العربى مسلمون ونصارى؟

---

(١) الفلسفة الخلقية د. توفيق الطويل ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) تفسير التاريخ للأستاذ الباكستانى عبد الحميد الصديقى ص ١١٠.

ما الظروف الاقتصادية التى جعلت المسيح يخالف اليهود ويأتى بدين جديد؟ وجعلت محمدا يرفض الوثنية ويدعو إلى التوحيد؟ وما أسلوب الإنتاج الذى تغير، فأوحى إليه هذا القرآن العظيم؟ إن الرحى والطاحون والمغزل اليدوى كانت قبل الإسلام بقرون وقرون، وظلت بعده بقرون وقرون، فما الذى حدا بهذا النبى وبأصحابه أن يخاصموا قومهم، وتعرضوا للبلاء والاضطهاد والعذاب، ويعرضوا مصالحهم الاقتصادية للخطر والضرر، حتى أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله. ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

إن الإنسان – بناء على فلسفة ماركس – ليس مسؤولا عن تصرفاته وسلوكه، لأنه مجبر عليها لا محالة، يقهره عليها الوضع الاقتصادى وأسلوب الإنتاج الذى يعيش فيه، ومقتضى هذا التفسير أن كل أنواع الظلم والاستغلال والفجور والشرور لها ما يسوغها ويبررها. فقد كانت فى وقتها أمورا لا مفر منها، تفرضها أساليب الإنتاج، ومظالم عصر الرق الرومانى، ومظالم عصر الإقطاع، ومظالم الرأسمالية الغربية كلها، لم تكن فى الحقيقة مظالم، إنها أثر حتمى للوضع الاقتصادى، أو لأسلوب الإنتاج الذى ساد فى المجتمع.

وكأن ماركس بهذه الفلسفة البائسة يعتذر عن ظلم الظالمين، أو يحامى عما اقترفت أيديهم من موبقات فى حق المستضعفين والمسحوقين.

ثم إن الشرف والصدق والعدل والشهامة وغيرها مما نعتبره فضائل لا مكان لها فى قاموس الماركسية. فليس عندها (قيمة) ثابتة، ولا فضائل دائمة. فكل هدف الماركسيين أن يدحروا خصومهم، ويبنوا مجدهم ولو فوق أشلائهم.

«إن حركة العمال (البروليتاريا) متحررة من أساطير الدين، ومن الديموقراطية والأخلاق السامية، التى ليست كلها إلا سلسلة صنعتها الطبقة

المتوسطة (البرجوازية) للسيطرة على الطبقات الفقيرة واستعبادها، وما من شئ أخلاقى سوى ما يمهد للقضاء على الرأسمالية قضاء تاما نهائيا. والقانون الأعلى هو انتصار الثورة ونجاحها».

يقول ألكسندر جرى: إن ماركس واضع أساطير، الحقيقة فيها أمر ثانوى، ماد امت الأسطورة تصورما يرغب هو فى أن يعتقده، وما دام فى هذه الحقيقة قوة تلهم العمل، هذه الفلسفات لا داعى لأن تكون صحيحة فى نفسها، ولكنها يجب أن تتفق مع عواطف الجماهير المكافحة» (١).

● **الشيوعية ضد الشريعة:**

وكما رفضنا الشيوعية لأنها ضد عقيدة الأمة، فنحن نرفضها أيضا، لأنها ضد شريعة الأمة التي ارتضتها، وارتضاها الله لها، وأتم بها عليها النعمة، حينما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

جاء ذلك فى القرآن بعد أن ذكر جملة أحكام، تتعلق بالوفاء بالعقود، وبالحج وشعائره، وبالمحرمات من الأطعمة، وكلها من أحكام الشريعة التى تعبد الله بها عباده.

الشيوعية لا تعترف بهذه الشريعة، ولا تعترف بالله تعالى آمرا أو ناهيا، محللا أو محرما، فلا تقبل أحكامه فى العبادات، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة، ولا أحكامه فى شؤون الأسرة من الزواج وما يتعلق به، والطلاق وتوابعه، وحقوق الزوجية، وحق الميراث، وغير ذلك، فهى ترفض تعدد الزوجات، وكذلك الطلاق، والميراث بضوابطه الشرعية.

وهى ترفض أحكام الشريعة فى الملكية وحقوقها، وواجباتها، وفى طرائق تملك المال، وتنميته، وفى سائر أجزاء النظام الاقتصادى فى الإسلام.

---

(١) تفسير التاريخ ص ١٢٥.

وهى ترفض أحكام العقوبات الإسلامية مثل حد الزنى، وحد السرقة، وحد الحرابة، وحد القذف، وحد الشرب، وحد الردة، وغيرها من العقوبات النصية والتقديرية (التعزيرية).

ورفض الشيوعية لشريعتنا، لا يحتاج إلى مزيد بيان، لأن هذا أمر معروف، ولا نزاع فيه.

● **الشيوعية ضد الأخلاق:**

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها ضد ثبات الأخلاق، والقيم الأخلاقية، فلا شئ عندها ثابت.

إن الماركسية تنكر أن فى الحياة قيما أخلاقية ثابتة، وفضائل عامة مطلقة، إنما توجد قيم نسبية متغيرة تتطور بتطور الأحوال المادية، وبخاصة الأوضاع الاقتصادية، وبعبارة أدق: بأساليب الإنتاج، فالنظام الرأسمالى الذى يقر الملكية الفردية يقتضى تحريم السرقة حتى تصان الملكية. فإذا انتفت الملكية الفردية بدا تحريم السرقة غير ذى موضوع! وهكذا الحرية الفردية، والعفة الجنسية، وغيرها من الفضائل، إنما كانت فضائل فى مرحلة معينة، وليس من الضرورى أن تبقى فضائل أبدا!

لقد نظرت الماركسية العوراء إلى القيم الجزئية المتطورة التى تنشأ من تغير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وعميت عن أن وراء هذه – القيم النسبية المنوطة بظروفها وأسبابها – قيما إنسانية عليا أصيلة يلتقى عندها البشر فى كل زمان ومكان.

يقول «انجلز» رفيق ماركس وشريكه فى فلسفته وبيانه الشيوعى:

«إننا نرفض كل زعم ينادى بتعاليم أخلاقية قبْلية مقررة باسم الدين، أو أى ناموس أخلاقى خالد ثابت، يراد به أن تكون للعالم الأخلاقى مبادئ ثابتة تسمو على التاريخ وعلى الفوارق القومية. ونحن نؤكد – على العكس – أن كل نظرية

أخلاقية غابرة لا تنتج – فى التحليل الأخير – إلا عن الوضع الاقتصادى فى المجتمع المعاصر لها» [1].

ويعلن لينين فى خطاب شهير له سنة ١٩٢٠ : «نحن نقول: إن أخلاقنا كلها تهدف إلى مصلحة النضال الطبقى البروليتارى وتشتق من هذه المصلحة ... وعندنا أن الأخلاق كل الأخلاق تنبع من مصالح الصراع الطبقى» [2]. فالنضال الطبقى لا يتبع الأخلاق ولا يلتزم بها، بل الأخلاق هى التى تتبعه وتبرر كل ما يفعله أو يريد فعله.

أقام ماركس نظريته المادية على أن الإنسان حيوان منتج، فالخصيصة الأولى للإنسان – عنده – هى الإنتاج، لا التفكير كما قال قوم، ولا الأخلاق كما قال آخرون، ولا التدين كما قال غيرهم.

وبهذا أصبح الإنتاج – فى نظره – أعظم مقومات الحياة فى المجتمعات الإنسانية.

وهذا فى الحقيقة – كما لاحظ بعض النقاد – يخالف واقع الإنسان، فإن الإنتاج نفسه تسبقه صفات إنسانية تجعله ممكنا. منها: أن يكون للإنسان مطالب غير مطالب الحيوان، وأن تكون له قدرة تمكنه من تدبير مطالبه بالإنتاج، وإنتاج ما يريد وفقا لمطالبه وكفاياته، وهذه مقدمات ينشأ عنها الإنتاج، ولا يكون هو سببا فى وجودها [3].

● **الشيوعية ضد الحريـــة:**

ونرفض الشيوعية، لأنها ضد الحرية، ونحن نحب الحرية، ونمقت الاستبداد والدكتاتورية، ونحب أن نكون عبيدا لله وحده لا للطواغيت. وقد قال الإمام على بن أبى طالب: لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا.

---

(١) المذاهب الأخلاقية للدكتور عادل العوا ج ٢ ص ١٠٩ نقلا عن كتاب انجلز: ضد دوهرنج ص ١٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الفلسفة الخلقية للدكتور توفيق الطويل ص ٢٨٩.

الشيوعية فى كل بلاد الدنيا عدو لحرية البشر، وفلسفتها قائمة على وأد الحريات السياسية. واتخاذ الدكتاتورية سبيلا لها. فما تكاد تقبض العصبة الاشتراكية على زمام الحكم، حتى تنصب المشانق والمقاصل لقصف رقاب المعارضين، وحتى تسل سيف الإرهاب على المواطنين، وتفتح السجون والمعتقلات، والمنافى، وتصادر الأموال والملكيات، وتعمل على تصفية خصومها بكل أسلوب، رضيته الأخلاق أو لم ترضه، فكل أسلوب عندها مشروع، والغاية تبرر الوسيلة، والأخلاق والأديان التى تحرم القسوة والاضطهاد والتعذيب ونحوها إنما هى صناعة برجوازية.

والثوريون أنفسهم يجاهرون بهذا ولا يخفونه، بل يباهون به كأنه مأثرة أو مفخرة.

يقول لينين فى رسالة له إلى مكسيم جوركى: لا بأس بقتل ثلاثة أرباع العالم، ليكون الربع الباقى شيوعيا!

لقد ادعى ماركس أن النظام الشيوعى يؤدى إلى دكتاتورية العمال وإلى الديمقراطية، ولكننا لو بحثنا الأسس التى يقوم عليها نظام الحكم فى الدول الشيوعية لوجدنا أنه أبعد ما يكون عن الحكم الديمقراطى، إذ ليس له من صفات هذا النظام إلا الاسم، فهو حكم دكتاتورى بحت. وكان الأمر يهون لو كان النظام نظام دكتاتورية عمالية حقا، ولكنه فى الواقع دكتاتورية فرد أو عدة أفراد، أما بقية أفراد الطبقة العمالية، فإنهم يقاسون من هذه الدكتاتورية.

حقا إن النظام السوفيتى فى تكوين سلطاته له مظهر الديمقراطية، ولكنه من الناحية الواقعية الفعلية حكم دكتاتورى، فهناك مجالس للقرى، ومجالس للمقاطعات، ومجالس للجمهوريات، ثم مجلس السوفيت، وكلها تتم بالانتخاب، وهذه الهيئة الأخيرة، كان لينين يسميها البرلمان العالى. وهذه الهيئات مرتبة ترتيبا تصاعديا، ابتداء من مجالس القرى حتى الهيئة المركزية، التى تعين رئيس الاتحاد، وتشرف على النواحى التشريعية والتنفيذية، وكل هذه

الهيئات محصورة عضويتها فى الحزب الشيوعى الذى يشرف فى الواقع على الحياة السياسية الروسية عن طريق البليتبورو Politburo والأورجبورو Orgburo والأمانة أو السكرتارية. ولكن حق الانتخاب محصور فى الحزب الشيوعى وأعضائه، وهذا الحزب لا يضم جميع الروس، ففى سنة ١٩٤٧ كان أعضاؤه ستة ملايين، بينما كان تعداد الشعب الروسى ١٩٠ مليونا ثم إن هذا الحزب الوحيد ليس مفتوحا للجميع، إذ لا تقبل عضوية أى فرد إلا بعد توفر عدة شروط، من أهمها أن يزكيه ثلاثة من أعضائه. ولا يمكن لشخص أن يرشح نفسه للانتخاب إلا إذا وافق الحزب الشيوعى على ترشيحه. ثم إن وظائف رئيس الدولة ورئيس الوزارة والوزراء، وغيرهم من كبار رجال الحكم محصورة فى كبار رجال الحزب الشيوعى، بحيث تكونت فى روسيا طبقة من الوزراء والمستوزرين بيدهم مقاليد الأمور، كما فى كثير من الدول الرأسمالية، وهذه الطبقة التى نستطيع أن نسميها طبقة الحكام - طبقة جديدة - لها امتيازاتها ومستواها المعيشى، ومركزها الأدبى، وفوق كل الطبقات: (اللجنة المركزية) للحزب.

وعلي رأس الجميع (الزعيم) الذي يضفى عليه لون من (التأليه) الذي رفضته الشيوعية حين جاء من قبل الدين ثم تقبلته حين جاء بل فرضته من قبل الأيديولوجية)[1]

● **الشيوعية مذهب متناقض:**

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها - من الناحية الفكرية النظرية - مذهب متناقض، يهدم بعضه بعضا. يتمثل هذا التناقض فى عدة أشياء نذكر منها:

أن الماركسية لا ترى فى الوجود قيمة مطلقة ولا شيئا أبديا، كل المبادئ والقيم والأفكار هى نسبية متغيرة، لأنها - كما ذكرنا من قبل - انعكاس للظروف الاقتصادية أو لأسلوب الإنتاج، فإذا تغير تغيرت تلك القيم والأفكار. وكان يجب أن ينطبق هذا على الماركسية نفسها، وفكرتها عن التاريخ، فإنها ليست إلا انعكاسا للعصر الذى عاش فيه ماركس وأحواله الاقتصادية. وعلى هذا

---

(١) انظر: كتاب (الشيوعية اليوم وغدا) ص ١٤٦ وما بعدها.

لا تعود الماركسية صحيحة مطلقة فى كل زمان ومكان. ربما كانت صالحة لزمان ماركس وبيئته، ولا تصلح للأزمنة التى تليه، والبيئات التى لم تعشها، فالمفروض مع تغير الزمن أن تتغير النظرة والتفسير. ولكن الماركسيين لا يقبلون هذا أبدا. فوقعوا بهذا فى تناقض لا مخلص لهم منه بحال. ولم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يحل هذا الإشكال.

ويبدو تناقض الماركسية الفكرى فى صورة أخرى: ذلك أن ماركس يرى الصراع بين الطبقات أمرا حتميا، حتى إذا نجحت الشيوعية انتهى هذا القانون الحتمى.

ومن تناقض الماركسية أنها ترفض الغيبيات التى يجئ بها الدين، لأنها لا تؤمن إلا بما هو محس وواقع، ثم تفحصها فإذا هى مشحونة بالتنبؤات التى لا يسندها حس ولا يؤيدها واقع.

ومن تناقض الماركسية أنها ترفض الجنة التى وعدت بها الأديان، لأنها لا تؤمن إلا بالحاضر المادى الملوس، ثم إنها تعد معتنقيها بجنة من نوع آخر، جنة فى هذه الدنيا، جنة المجتمع الشيوعى الذى تزول فيه الطبقات، ويأخذ فيه كل بقدر حاجته لا بقدر عمله، وتزول الدول بشرطتها وعقابها وسجونها.

وقد مر أكثر من نصف قرن على قيام الثورة الماركسية فى روسيا، ولم نر هذه الجنة ولا ظلالها، وقد سقطت الشيوعية ولم تقترب من هذه الجنة الموعودة.

إن المادية الجدلية التى دعا إليها ماركس تؤمن بمبدأ الصيرورة أى بالتغير الدائم، والتبدل المستمر، نتيجة لتغير الظروف الاقتصادية، وبمقتضى مبدأ «النقيض» الذى أخذه ماركس من فلسفة هيجل الفيلسوف الألمانى الشهير بفلسفته المثالية.

ولكنها تخرج على هذا المبدأ الجدلى حين تبشر بمجتمع أخير لا يقبل النقيض، هو المجتمع الشيوعى المثالى الكامل!

والحقيقة كما قال أحد النبهاء: إن الماركسية لا تمحو الطبقات بحذفها،

ولكنها تستعيض عنها بطبقة أخرى. لها نبيها، ولها قديسوها، ولها جنها، ولها شيطانها، ولها طقوسها.

ومن تناقض الماركسية أنها رفضت الدين الذى ورثته الإنسانية عن طريق النبوات الهادية، والكتب السماوية. ثم اصطنعت هى عقيدة لها كل ما للدين من خصائص.

● **الشيوعية ضد وحدة الأمة:**

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها ضد وحدة الأمة، فنحن نؤمن بأن المسلمين - حيثما كانوا - أمة واحدة، تجمعهم وحدة العقيدة، ووحدة العبادة، ووحدة الآداب، ووحدة القبلة، ووحدة المشاعر، ووحدة التشريع، عبر القرآن عن رابطتهم بعنوان الأخوة، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] واعتبرهم أمة واحدة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] وصور الرسول الكريم ترابطهم وتعاطفهم بأنهم «كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» متفق عليه، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وتؤكد الشريعة وحدة الأمة بعدة أحكام أساسية تقررها: وحدة المرجعية الفكرية والتشريعية للأمة، ووحدة دار الإسلام مهما تباعدت أقطارها. ووحدة القيادة المركزية المتمثلة فى الخلافة.

والشيوعية ترفض الدين - كما ترفض القومية - رابطة بين الناس.

بل هى تعمل على تقسيم المجتمع الواحد، فهى تؤجج صراع الطبقات لتستفيد منه في النهاية، وتنادي العمال أن يتحدوا أي ضد الطبقات الأخرى. والإسلام يؤاخى بين الطبقات جميعها، ويوجب إقامة العدل بينها، ولا ينحاز لطبقة ضد أخرى.

● **الشيوعية استعمار جديد:**

ونرفض الشيوعية، لأنها ضد سيادتنا، إنها استعمار جديد، ونحن نرفض

الاستعمار، أيا كان نوعه أو شكله أو اسمه، سواء كان استعمارا إنجليزيا أم أمريكيا أم روسيا أو صينيا، سواء كان لونه أزرق أم أحمر أم أصفر.

وقد أثبتت لنا الوقائع المشاهدة أن الشيوعية هى أعلى درجات الاستعمار. فإن الاستعمار التقليدى يكتفى باحتلال الأرض، وانتهاب الخيرات، واصطفاء فئة من السكان يُسلِّمهم الزمام، ويحركهم من وراء الستار. أما الاستعمار الشيوعى فلا يكتفى باحتلال الأرض حتى يحتل العقول والأفكار، ولا يكتفى بفئة تواليه بل يعمل على إخراج الشعب كله قهرا من عقائده ومُثله. وإخضاعه لأفكاره ونظامه، وإبادة كل فريق يتمرد أو يتردد فى طاعته والخضوع لسلطانه.

ثم إن الاستعمار التقليدى يمكن مقاومته حتى يحزم أمتعته ويرحل. أما الاستعمار الشيوعى، فهو إذا دخل أرضا لا يفارقها ولا يبقى فيها قوة ما تقدر على المقاومة. وإن راودت فكرة المقاومة يوما شعبا ما فى بلد ما، فيا ويله ثم يا ويله. وعند المجر وتشكوسلوفاكيا الخبر اليقين، فقد دكتهما الدبابات الروسية، والقوات الروسية، حتى استسلم البلدان.

● **الشيوعية بنت اليهودية:**

ونرفض الشيوعية، لأنها بنت اليهودية، واليهود الآن هم عدونا الأول، هم الذين اغتصبوا الأرض، وسفكوا الدم، وشردوا الأهل، وهتكوا كل حرمة، ولم يرقبوا فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة.

وقد وضحنا هذه القضية (صلة الشيوعية باليهودية) فى الصفحات الماضية بما يكفى من الوقائع والأدلة.

● **الشيوعية أداة الصليبية فى حربنا:**

ونرفض الشيوعية، لأنها أمست الآن الأداة الأولى للصليبية الغربية فى حربنا.

إنها يئست أن تدخلنا فى دينها، فاكتفت بأن تخرجنا من ديننا. لم

تستطع أن تجلعنا نصارى، فلتحاول أن تجعلنا شيوعيين .. لتفسح المجال للمبشرين الماركسيين بعد فشل المبشرين المسيحيين.

إن المهم هو هدمنا، ولا بأس أن يكون بمعاول حمراء.

المهم أن نتخلى عن مصدر قوتنا ووحدتنا «الإسلام» وإن أصبحنا بغير دين قط.

المهم أن نتخلى عن القرآن، وإن استبدلنا به «رأس المال» لا الإنجيل.

المهم أن نقطع حبالنا بمحمد - ﷺ - وإن صحبنا بعده ماركس ولينين، لا المسيح ولا بولس.

لا تعجبوا فإن حقد الصليبية الأسود المسموم، يجعلها تستعين علينا بألد أعدائها!.

لا تعجبوا فقد قال مبشر نصراني في أفريقيا لطبيب مسلم كان هناك، نحن لم نستطع أن نحولكم إلي مسيحيين فلنجتهد أن نحولكم إلي شيوعيين، أن دعاة الشيوعية هم مبشروننا الجدد عندكم.

ولا تعجبوا من اتفاق الطرفين علينا، فالكفر كله ملة واحدة كما قال فقهاؤنا، وصدق الله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩].

● **الشيوعية معناها التبعية لغيرنا:**

ونرفض الماركسية أو الشيوعية، لأننا نرفض التبعية العقائدية والفكرية لغيرنا، نرفض التسول ومد الأيدى إلى غيرنا، وقد جعلنا الله أغنياء بما عندنا من عقيدة ومنهج للحياة، وفلسفة كاملة للإنسان والكون والتاريخ. فإن من قيمنا الأصيلة أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

إن تسول الأغنياء جريمة يحرمها الدين، وتنكرها الأخلاق، وترفضها الأعراف، وتعاقب عليها القوانين، وهذا ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد.

نحن نرفض التسول، ونرفض أيضا الاستيراد: استيراد العقائد والمذاهب من عند غيرنا، وعندنا عقيدتنا الشاملة الكاملة المتوازنة.

إن استيراد بضاعة أجنبية، مع وجود بضاعة وطنية خير منها وأيسر، لا يجوز فى عرف الاقتصاديين ولا غرف العقلاء من الناس كافة. إن الاستيراد من صديق فى هذه الحالة لا يجوز، فكيف من عدو؟

وإذا كان استيراد البضائع الأجنبية ضد المصلحة الاقتصادية، فإن استيراد العقائد ضد الدين والإيمان. إنه الكفر البواح الذى لا يقبله الله بحال.

ولا يغرنك ما يقال من التفرقة بين العقيدة الاجتماعية والعقيدة الدينية، فهذا محض وهم، أو لعب بالألفاظ. فالعقائد كلها دينية فى طبيعتها وجوهرها، وإن كانت إلحادية فى مضمونها. ولهذا أطلق بعض الدارسين على هذه «الأيديولوجيات» العلمانية تسمية «أديان بغير وحى» وسماها آخرون: الأديان البديلة.

نعم، نرفض الشيوعية لأننا نرفض التبعية الفكرية والأيديولوجية، نرفض أن نكون ذيولا وقد خلقنا الله رؤوسا، وأن نكون تلاميذ لفروخ اليهودية العالمية. وقد شاء الله لنا أن نكون معلمين للبشرية وشهداء على الناس. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

● الشيوعية دعوة رجعية:

ونرفض الماركسية أو الشيوعية لأنها دعوة «رجعية» دعوة إلى «الانتكاس» بالبشرية، وليس إلى «تقدم» الإنسانية، هى رجوع بالإنسان إلى العبودية، ورجوع بالفكر والإيمان إلى الجبرية، ورجوع بالإنسانية إلى الوثنية، ورجوع بالأخلاق والقيم إلى الحيوانية، كما أنها انحطاط بالإنسان من أفق (الرشد) الذى يؤمن بالغيب إلى حضيض (الطفولة) الإنسانية. فالطفل هو الذى لا يؤمن إلا بالحس، فإذا رشد ونضج بدأ يدرك المعنويات، ولا يزال يرتقى حتى يؤمن بالغيبيات.

● **الشيوعية مذهب لا حاجة بنا إليه :**

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها مذهب لا يعالج مشاكلنا، ولا يلبى مطالبنا، وليس بنا حاجة إليه.

لقد قامت الشيوعية، لتعالج مشكلات الرأسمالية المتجبرة، المصاصة للدماء، التى تأكل عرق العمال ولا تعطيهم من الأجر ما يكفيهم.

ونقول: إن هذه الرأسمالية التى أدركها كارل ماركس، وشن عليها غارته، لم تعد موجودة الآن فى أى جزء من العالم بتلك الصورة البشعة التى شهدها القرن التاسع عشر.

لقد شاهد ماركس الرأسمالية وهى في أوْج قسوتها وعنفوانها وشراهتها. وقد عدلت الرأسمالية المطلقة من اتجاهها وسلوكها، وقامت (نقابات العمال) فى البلاد الرأسمالية بحماية حقوق العمال وفرض مطالبهم العادلة علي المؤسسات بل علي الحكومات في كثير من الأحيان، وأصبح فى كثير من البلاد الرأسمالية من أنواع الضمانات الاجتماعية والمعيشية، ما يجعل العامل آمنا على نفسه وأهله وولده ومستقبله، ومن المؤكد أن العمال فى البلاد الشيوعية – بلاد دكتاتورية العمال – لا يحصلون على فتات العمال فى بلاد الرأسمالية.

أما فى بلادنا، فلم تبلغ درجة الرأسمالية الكبرى فى وقت من الأوقات، حتى نحتاج إلى اشتراكية ماركس للتحرر من نيرها، والتخلص من وطأتها وضراوتها.

على أن ماركس قد يكون معذورا، لأنه لم يقدر له أن يطلع على نظام آخر يخلو من عيوب الرأسمالية، ويشتمل على أحسن ما فيها من عناصر ومزايا.

ومن يدرى، لعله لو اطلع على نظام الإسلام الذى يقر الملكية الخاصة، ويحميها، ولكنه لا يتدخل لحمايتها إلا إذا جاءت من طرق مشروعة، ثم هو يضع قيودا على المالك فى تنميته لما يملك وتثميره له، وفى تصرفه واستهلاكه وإنفاقه، كما يلزمه بواجبات اجتماعية مالية، بعضها موكول لضميره، وبعضها

تقوم الدولة على تنفيذه، وأبرز هذه الواجبات هو الزكاة التى بها يزكى المالك نفسه، ويطهر ماله.

وهذه الزكاة هى الحد الأدنى فى المال، وحق الله الذى لا يسقط بل لا ينقص بحال، ولكن فى المال حقوقا سوى الزكاة تحددها الضرورات والحاجات التى تصيب المجتمع. إن الزكاة هى أول الحقول فى المال وليست آخرها.

لقد جاء الإسلام ليحد من طغيان الأغنياء، وليرفع من مستوى الفقراء، وليقيم التوازن الاقتصادى، ويحقق العدل الاجتماعى، ويربط بين الاقتصاد والإيمان، وبين الاقتصاد والأخلاق، ويجعل الأمة كلها كالأسرة الواحدة، بل كالجسد الواحد .. لو اطلع ماركس على محاسن هذا النظام، وقواعد هذا المنهج، لربما وجد فيه ضالته، وأغناه عن منهجه الذى شط فيه عن الصواب، وحاد عن الصراط المستقيم.

* * *

(٤)

الحكــــام المنافقــــون

- الحكام المرتدون مفروغ منهم
- الحكام المنافقون هم المشكلة
- موقفهم من محكمات القرآن

الحكام المنافقون

ليس للحل الإسلامى مشكلة مع الشعوب الإسلامية، فالشعوب – فى مجموعها – مع هذا الحل قلبا وقالبا، وهى تتنادى فى سائر الأقطار بوجوب تحكيم الشريعة الإسلامية.

وطالما نادينا – بل تحدينا – العلمانيين أن يستفتوا هذه الشعوب، استفتاء حرا نزيها، حول القضية المصيرية: أيحكمون بالشريعة الإسلامية أم بالقوانين الوضعية؟ أيسيرون وراء شرع محمد أم قانون نابليون أم منهاج ماركس؟

وأنا موقن بأن الأغلبية العظمى لن تبيع محمدا ﷺ بأحد من الخلق، لا نابليون ولا ماركس ولا غيرهما.

مشكلة الحل الإسلامى ليست مع الشعوب، ولكن مع الحكام، الذين فُرِضوا – أو أكثرهم – على الأمة، فى هذا الزمن الأخير.

● الحكام المرتدون مفروغ منهم:

ولن أتحدث هنا عن الحكام الذين انسلخوا من أمتهم كما تنسلخ الشاة من جلدها، ومرقوا من دينهم كما يمرق السهم من الرمية. وأصبحوا فى واد وجمهور أمتهم فى واد، فهزأوا بالعقيدة، وسخروا من الشريعة، واستخفوا بالقيم، ولم يرضوا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالقرآن منهاجا، فكفروا كفرا بواحا، وارتدوا ردة صراحا، ولم يعرفوا صلاة ولا صياما، ولا عبادة لله جل شأنه.

عرفنا ذلك فى الشيوعيين الأقحاح، وفى العلمانيين الصرحاء، الذين اعتبروا الدين معوقا للأمة، أو مخدرا للشعوب. وقامت فلسفتهم جهارا على تجفيف منابع التدين فى حياة المجتمع، بحذف كل ما يغرس التدين الحق وينميه فى الفكر والشعور والسلوك، من التعليم ومن الإعلام، ومن الثقافة. وظهر ذلك فى حياة وتصريحات بعض الحكام فى تركيا وإندونيسيا وتونس وغيرها، فى بعض الأوقات.

وأمثال هؤلاء لن نتحدث عنهم هنا، لأن وعاءهم مكشوف، وموقفهم معروف، وشعوبهم تكرههم وتلفظهم، وتتمنى يوم الخلاص منهم. وقد انتهى بعضهم فعلا من حياة شعبه، وبعضهم لا يزال جاثما على أنفاسه.

هؤلاء قد حصحص فيهم الحق، وتبين الصبح لذى عينين، وفرغت الأمة منهم.

● الحكام المنافقون هم المشكلة:

إنما الذى يستحق الحديث هنا هم الصنف الآخر من الحكام، الذين يظهرون بوجهين، ويتكلمون بلسانين، ويرقصون على الحبلين، ويؤيدون الفريقين المتنازعين، فهم كما قال الشاعر:

يوما يمان إذا ما كنت ذا يمن وإن لقيت معدّيا فعدنانى!

هؤلاء يدعون الإسلام، ويعلنون أنهم مسلمون، وقد تراهم فى المسجد مصلين، أو فى رمضان صائمين، أو فى مكة حجاجا أو معتمرين.

ولكن مشكلتهم الجوهرية مع الشريعة وأحكامها، فهم يقبلون الإسلام عقيدة، ولا يرضونه شريعة، يؤمنون به دعوة، ولا يؤمنون به دولة، يريدونه علاقة بين المرء وربه، لا علاقة بين الإنسان والإنسان، فردا أو جماعة. أعنى: أنهم يريدون حبسه فى ضمير صاحبه، فإن كان لا بد له أن يخرج من حنايا صدره، فإلى المسجد لا إلى الحياة.

فلا علاقة للدين عندهم بالسياسة ولا بالاقتصاد ولا بالثقافة ولا بالاجتماع، فماذا بقى للدين إذن؟

ربما جاز ذلك فى دين كالنصرانية التى يقول إنجيلها: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله ! فأجاز أن تنقسم الحياة قسمين، بين الله وقيصر، أو بين الدين والدولة، أو بين السلطة الدينية (الكنيسة) والسلطة المدنية (الحكومة).

أما الإسلام فيقول: الحياة كلها لله، قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ ﴾

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

ويقـرر القـرآن الكريم فى آيات كـثـيـرة : أن لله من فى السـمـاوات ومن فى الأرض، وما فى السماوات وما فى الأرض، مِلكا ومُلكا.

فـمـاذا يصنع هؤلاء الحكام – إن كـانوا مـسلمين حـقـا – أمـام النصـوص المحْكمـة، الآمرة الناهيـة، من كـتـاب الله، ومن سنة رسـول الله، التى تشـمـل الحـيـاة كلهـا، والتى توجه الإنسـان وتشرع له، من المهـد إلى اللحد، وتصحبه فى رحلة حياته منذ كان جنينا إلى أن يموت.

هناك أحكام تتعلق به جنينا ومولودا ورضيعا وفطيما وصبيا ويافعا وشابا وكهلا وشيخا ومحتضرا وميتا.

وهناك أحكام تتعلق بالأسرة وبالمجتمع، وبالحكومة، وبالاقتصاد وبالسياسة، وبالعلاقات الدولية.

وهذا كله يدلنا على أن الإسلام رسالة شاملة، جاء كتابها تبيانا لكل شئ من رب كل شئ، كما قال تعالى: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى في ختام سورة يوسف: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذا متسق مع فطرة الحياة نفسـهـا، فـهى فى الحـقـيـقـة وحـدة لا تتجزأ، لا ينفصل فيـهـا دين عن دنيـا، ولا عـبادة عن معـاملة، ولا سيـاسـة عن اقتصاد، ولا ثقافة عن سياسة، ولا أخلاق عن ذلك كله.

ولهذا رأينا (الأيديولوجيات) الوضعية نفسها تجتهد أن تقبض على أزمة المجتمع كله، وتوجه شؤون الحياة كلها، فإنها يؤثر بعضها فى بعض.

حتى الكنيسة نفسـهـا التى قال لها إنجيلها: دع ما لقيصر لقيصر، لم تدع لقيـصـر ما له، بل عـملت فى عصور شتى أن تكون هى القيـصـر، فإن لم تستطع نصبت هى القيصر، ووجهت القيصر إلى ما تريد.

لماذا يراد للإسلام وحده، أن ينحصر فى الجانب الروحى، على عكس تعاليمه، وعكس تاريخه كله؟ والإسلام ليس له سلطة دينية متمكنة - كالمسيحية - فإذا زالت عنه السلطة التى تجمع بين الدين والسياسة، أو التى تخلف رسول الله ﷺ فى إقامة الدين وسياسة الدنيا به - كانت النتيجة أن تنزع السلطة كلها من الإسلام، ويبقى معزولا عن الحياة ولا شئ بيديه.

والأهم من ذلك كله: أن الإسلام يرفض أن يعزل عن الحياة، وأن تسلب سلطته فى التشريع والتوجيه والقيادة.

يرفض الإسلام أن يؤخذ عقيدة ولا يؤخذ شريعة، وأن يؤخذ عبادة ولا يؤخذ معاملة، وأن يؤخذ وصايا أخلاقية، ولا يؤخذ أحكاما عملية.

إنه يعتبر هذا (التبعيض) أو (التجزئة) لتعاليمه وأحكامه (كفرا) به، ومروقا منه، ويتوعد من فعل ذلك بأشد العذاب. وهو ما عاب عليه بنى إسرائيل حين أخذوا بعض دينهم وتركوا بعضا، فقرعهم الله سبحانه بقوله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥، ٨٦].

● **موقف الحكام من هذه الآيات القرآنية:**

ونقول للحكام الذين يقولون: إنهم مسلمون، وإنهم يعتزون بالإسلام، وإنهم يصلون ويصومون، ولكنهم لا يطبقون كل شريعة الإسلام فى كل شؤون الحياة المختلفة، بل يأخذون منها ويدعون، فأمسوا هم الحكام على الشريعة، ولم تعد الشريعة هى الحاكمة عليهم. ما موقفهم أمام هذه النصوص الزاجرة البينة فى مثل قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن

يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

ولا يقول قائل: إن هذه الآيات إنما جاءت فى شأن أهل الكتاب، فقد جاءت بلفظ عام، والأصل أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب.

يؤكد ذلك: أنه لا يتصور أن يحكم الله تعالى - وهو الحكم العدل - على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بالكفر أو الظلم و الفسوق، إذا لم يحكموا بكتابهم الذى أنزله الله عليهم، ويعفى من ذلك المسلمين إذا فعلوا فعلتهم، ولم يحكموا بكتابهم الذى أنزل عليهم من ربهم.

أيكيل الله تعالى بكيلين: كيل للمسلمين وكيل لغيرهم؟ أم أن عدله واحد مع الجميع، كما قال تعالى يخاطب المسلمين: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾ [النساء:١٢٣].

أم كان كتاب المسلمين أهون عند الله من الكتب الأخرى، حتى إن من أعرض عن الحكم به لا يعاقب بما عوقب به أهل الكتب الأخرى؟

وهذا مردود يقينا، فإن كتاب المسلمين (القرآن) هو أعظم هذه الكتب، الموصوف بالإعجاز، والحفظ والخلود، والشمول، والهيمنة على سائر الكتب، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ إلى ان قال: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨ – ٥٠].

ومـا مـوقـف هـؤلاء الحكـام الذين يدعـون أنهم مـسلمـون ويصلون ويصومون، ولكنهم يعرضون عن حكم الشريعة إذا دعوا إليها، من قبل العلماء والدعاة الإسلاميين والجماعات الإسلامية، وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول .. ما موقفهم أمام هذه النصوص المنذرة الهادرة كالرعد، القاصفة كالبرق، الواضحة كفلق الصبح، مثل قوله تعالى في سورة النساء:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

[النساء: ٦٠ – ٦٥]

لقد بينت هذه النصوص المحكمة من كتاب الله الكريم، مجموعة أمور تدل على النفاق، منها:

١ - التحاكم إلى (الطاغوت) والطاغوت: كل ما يعظم ويطاع طاعة مطلقة من دون الله تبارك وتعالى، ولذا أطلق على الشيطان، وأطلق على الأصنام المعبودة من دون الله أو مع الله، وأطلق على الكهان الذين يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون فى الدين ما لم يأذن به الله، وأطلق على كل من اتخذهم الناس أربابا من دون الله يشرعون لهم ما شاؤوا. ولو كان مناقضا لحكم الله تعالى وأمره.

ومن هنا كان التحاكم إلى فلسفة البشر، وقيم البشر، وأنظمة البشر، وتقاليد البشر، وقوانين البشر - بمعزل عن هداية الله وشرعه - تحاكما إلى الطاغوت ولا ريب. وهذا هو شأن المنافقين: ﴿ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾.

٢ - الصدود والإعراض عن حكم الله ورسوله إذا دُعوا إليه، وهذا من دلائل النفاق، وخلق المنافقين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

٣ - التظاهر بحسن النية وقصد الخير والإصلاح، والحلف على ذلك كذبا وبهتانا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾.

٤ - نفى الإيمان نفيا مؤكدا بالقسم على من لم يقبل حكم الله ورسوله مع الرضا والتسليم المطلق: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

وما موقف هؤلاء الحكام أيضا من هذه الآيات الزاجرة من سورة النور وهى قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم

مُعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٤٧ - ٥١].

تؤكد هذه الآيات ما قررته آيات سورة النساء من نفى الإيمان عمن قال: آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى عن اتباع ما أُمر به، واجتناب ما نُهِيَ عنه، والإذعان لما حكم ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (بهذا النفى الجازم) ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

كما تبين الآيات أنهم لا يستجيبون لحكم الله وشرعه إلا فيما كان فيه هوى أو مصلحة لهم: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾.

ثم تبين الباعث وراء هذا الموقف الذى لا يصدر من مؤمن ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

ثم تبين الآيات ما يفرضه منطق الإيمان على صاحبه، وهو الإذعان والانقياد والقبول لحكم الله ورسوله بلا تردد ولا تلكؤ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وبذلك تتوافق هذه النصوص الإلهية كلها: فى سورة النساء، وفى سورة النور، وفى سورة الأحزاب، على أن مقتضى الإيمان هو الانقياد المطلق لحكم الله وحكم رسوله، دون ارتياب ولا تبرم، بل مع القبول والرضا، واليقين بأن فيه الخير كل الخير، فى الدنيا والآخرة، فليس الإنسان أعلم من ربه بمصالح خلقه:

﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وليس الإنسان أبر وأرحم بالعباد من ربهم وخالقهم، الذى هو أبر بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها، وقد سخر لهم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وقد وسع رزقه كل حى منهم، كما وسعت رحمته كل شئ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

● اضطهاد دعاة الحل الإسلامى:

وليت الأمر وقف بهؤلاء الحكام المنافقين - عند الإعراض عن حكم الله ورسوله، أو عن شريعة الإسلام، أو عن الحل الإسلامى، بل امتد إلى الوقوف فى وجه كل من يدعو إلى (الحل الإسلامى) وتحكيم شريعة الإسلام فى حياة المسلمين.

والعجيب أن هؤلاء الحكام - وهو غرباء عن الاتجاه الحقيقى لأمتهم - اعتبروا أن ما هم عليه هو الأصل، وهو المشروع، وأن كل من يدعو إلى غيره، إنما يدعو إلى التخريب، وإلى زعزعة الاستقرار، وزلزلة بنيان المجتمع، واتهم بمحاولة (قلب نظام الحكم) إلى غير ذلك من (الاتهامات) المخزونة فى جعبة هؤلاء، والتى سرعان ما تنطلق بها أبواق الإعلام للتشويه، والتشويش على الدعاة الأصلاء المخلصين.

مع أن الواقع يقول بكل وضوح: إن الذى قلب نظام الحكم وحوله من الشريعة الإسلامية التى تؤمن بها الأمة، إلى القوانين والأنظمة الوضعية، المفروضة عليها من خارجها، إنما هو (الاستعمار) الذى كان أول ما فعله حين تحكم فى ديار المسلمين، هو إلغاء أحكام الشريعة الإسلامية، وإحلال قوانينه ومناهجه محلها، كان ذلك بأوامر فوقية من السلطة المستعمرة المهيمنة، ولم يكن بإرادة الشعوب، ولا باختيارها.

وهؤلاء الحكام ورثوا هذه الأوضاع العوج من المستعمر، بعد الاستقلال، وكان مقتضى الاستقلال: أن يتحرروا من آثار الاستعمار التشريعية والثقافية، كما تحرروا من ربقته العسكرية والسياسية، ولكنهم - للأسف - أقروا هذه الأوضاع المنافية لعقيدة الأمة، بل باركوها، وربما وسع بعضهم فى دائرة الانحراف، أكثر مما صنع الاستعمار، فجار على قضايا (الأحوال الشخصية) وشؤون الأسرة، التى كان الاستعمار تركها للشعوب، لخصوصيتها الشديدة، واتصالها بدين الناس، وهويتهم الحضارية.

لو كان هناك قضاء عادل يمثل أمامه هؤلاء الحكام، لتحاكمهم شعوبهم، لكان أول تهمة توجه إليهم: أنهم خانوا شريعة الأمة، وعطلوها عمدا، ومشوا فى ركاب المستعمر، الذين زعموا يوما أنهم حاربوه وطاردوه، وهم اليوم يسيرون فى نفس خطه، ووفق منهجه الذى رسمه.

إن كثيرا من الحكام اليوم كان ينبغى أن يكونوا فى قفص الاتهام، لأنهم أحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، وأسقطوا ما فرض الله، وشرعوا للناس ما لم يأذن به الله. ولكن الواقع المشهود هو العكس: أن يساق الدعاة إلى الله وإلى شرعه ومنهجه إلى السجون والمعتقلات، بمحاكمات عسكرية غير مقيدة بأصول القضاء الطبيعى وتقاليده، أو بغير محاكمات أصلا عند اللزوم.

وكم رأينا الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار الصحابية، والقواعد الفقهية، توظف - بالباطل - ضد هؤلاء الدعاة الصادقين، الذين سيق بهم إلى المعتقلات، وقذف بهم فى جحيم السجون، وصبت عليهم ألوان العذاب والتنكيل، وسلطت عليهم الكلاب لتنهش من لحمهم، والسياط لتشرب من دمائهم، والآلات الجهنمية لتسحق من عظامهم، ولا جرم لهم إلا أن قالوا: ربنا الله، ومرجعنا الإسلام، ودستورنا القرآن، وقائدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

اتهموا هؤلاء الدعاة بأنهم عصوا (أولى الأمر) منهم، وما عصوا أولى

الأمر، وإنما نصحوا لهم، كما أمرهم الله ورسوله، ودعوهم إلى تحكيم شرع الله لا إلى شئ آخر. والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] فكان الواجب عند التنازع مع أولى الأمر فى شئ هو رده إلى الله ورسوله، والرد إلى الله يعنى: الرد إلى كتابه وقرآنه، والرد إلى الرسول، يعنى: الرد إلى سنته ومنهجه، ولكنهم رفضوا الاستجابة إلى أمر الله، ولم يردوا الأمر إلا إلي أهوائهم ومذاهبهم المستوردة من الغرب والشرق.

وأغرب من ذلك: اتهام هؤلاء الدعاة بأنهم يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا، واستشهدوا فى ذلك بآية سورة المائدة التى نزلت فى شأن بعض المرتدين كما يرى بعض السلف، أو فى قطاع الطريق المفسدين في الأرض، كما يرى جمهور الفقهاء، وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

إن مما يندى له الجبين، وتذهب عليه النفس حسرات، وتتقطع له القلوب زفرت: أن نجد هؤلاء الحكام الذين يلبسون لبوس الوطنية، أو يزهون برداء القومية، ينفذون – حرفيا – ما أوصى به أعداء الأمة، وأعداء دينها وتقدمها ووحدتها: من ضرب الدعوة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، والحركة الإسلامية، وإيقاف سيرها، أو – على الأقل – تعويق تقدمها ونفوذها وهيمنتها على الجماهير، وخصوصا الشباب المثقف فى الجامعات والمعاهد.

هذا مع أن هذا الشباب المسلم المؤمن بربه، المعتز بدينه، المتآخى على عقيدته، الحريص على المسلك الطاهر النظيف، فى قوله وفعله، ومأكله ومشربه،

ومدخله ومخرجه، ومعاملته مع نفسه ومع ربه، ومع أهله، ومع مجتمعه، ومع الناس أجمعين ... هذا الشباب هو ثروة طائلة لوطنه، ورصيد هائل لا يقدر قدره في المعركة الوطنية والقومية مع الأعداء، كما أنه عنصر أساسي وهام في البناء والتقدم والتنمية. وهو العنصر المأمون الذي يصعب على أعداء الأمة اختراقه عن طريق الخمر أو المخدرات أو النساء، فقد كفاه الله بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عمن سواه.

ولقد كنا نعذر هؤلاء الحكام أيام النفوذ الاستعماري، الذي كان يتصرف في أوطاننا ومقدراتها تصرف القيم في القاصر، أحيانا مباشرة وبصراحة، وأحيانا أكثر من وراء ستار، ونقول: إن هؤلاء القادة والزعماء ليس لهم في الواقع من الأمر شئ وأنهم يؤمرون فيطيعون، ويُدعون فيلبون، ويعتقدون أن إشارة المستعمر أمر ورغبته حكم. فلما ولى الاستعمار وخرج من ديارنا استبشرنا خيرا، وقلنا قد انزاحت الغمة، وتحررت أعناقنا من الأغلال، وأيدينا من القيود، وأرجلنا من السلاسل، وبقينا أحرارا في بلادنا، نفعل ما نشاء، ونحكم ما نريد.

ولكنا - وا أسفاه! - وجدنا في كثير من الأحيان والأحوال أن المستعمر كان أخف وطأة، وأقل جرأة، وأهون شرا من بعض من ورثه من (الحكام الوطنيين) الذين ركبوا ظهر الإسلام حتى ارتقوا سنام السلطة، وتسلموا زمام الحكم، فإذا بهم يتنكرون للإسلام، وينقلبون على شريعته، ويقفون في وجه دعوته، ويعلنون الحرب الضروس على دعاته، ويتخذون (العلمانية الغربية) شعارا ودثارا لهم، ومرجعية لتفكيرهم وتشريعهم وتعليمهم وسلوكهم. وتفضلوا على الدين فحصروه في المسجد، وفي الاحتفال بالمناسبات الدينية، التي قد يحضرونها بأنفسهم أو بمندوبيهم، وربما كانت أفواههم لا تزال تشم منها رائحة الخمر.

استوى في ذلك الحكام المسلمون أو الذين ينتسبون إلى الإسلام في بلاد العرب، وفي بلاد العجم، من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، من جاكرتا إلى موريتانيا. كلهم - بعد استقلالهم وتحررهم من الاستعمار الغربي - ساروا في ركاب هذا الاستعمار، ومشوا في خطه، ونهجوا نهجه، ونفذوا خططه، وجعلوا

ولاءهم للاستعمار وأهله، ولم يجعلوا ولاءهم لله ولرسوله وللذين آمنوا، على طريقة المنافقين الذين وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى في نفس السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٤، ١٤٥].

وبين الله عز وجل جهة الولاء التي يجب أن يتجه إليها الفرد المؤمن، والجماعة المؤمنة، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

واستوى في الموقف من الإسلام: الحكام اليمينيون الليبراليون الديمقراطيون - كما يسمونهم - والحكام اليساريون الثوريون الاشتراكيون.

فقد حكم الليبراليون اليمينيون بعد استقلال أوطانهم، ولم يوالوا الإسلام، واصطدموا بدعاته، وساقوهم إلى المعتقلات والسجون.

ثم سقط هؤلاء وورثهم الاشتراكيون الثوريون اليساريون، فكانوا شرا منهم على الإسلام ودعاته وجماعاته، كانوا أقل رحمة، وأشد نقمة، وأضرى هجمة، كانت ضرباتهم أقسى وأشد إيجاعا، وأكثر وحشية، وأحد أظفارا وأنيابا!.

كانت ضحاياهم أكثر عددا، وتنكيلاتهم أوسع مساحة، وتنكرهم للإسلام أكثر صراحة، بل أبلغ وقاحة، سالت دماء أغزر، وأزهقت أرواح أكثر، وكان أسلوبهم أشرس وأحقر، حتى شووا الجلود، وسحقوا العظام، وأكلت سياطهم اللحوم، وشربت الدماء. حتى النساء الفضليات علقن من أرجلهن في (زنازين)

العذاب، وحتى استخدمت الأساليب اللا أخلاقية فى التنكيل والتعذيب، مما يخجل المرء أن يبوح به أو يذكره صراحة للناس.

وهناك من خروا صرعى تحت أتون العذاب المكثف المستمر، ولقوا ربهم شهداء، ودفنوا فى الصحارى القريبة، بلا غسل ولا تكفين ولا صلاة!

وفى بعض البلاد العربية أخذ مئات - بل آلاف - من الأحرار الشرفاء، واقتيدوا إلى سجون لا يعلم عنها شئ، ولا يزورهم أحد، وأفرج عن بعضهم بعد بضعة عشر عاما، وقد شوه وحطم بدنيا ونفسيا، وعاد خلقا آخر، وبقى آخرون لا يعرف عنهم أهلوهم شيئا: أفى الأحياء هم أم فى الأموات؟ ولو علموا أنهم ماتوا لقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وسألوا الله أن يأجرهم فى مصيبتهم وأن يخلفهم فيها خيرا. ولكن هذه الحالة التى هى (لا حى فيرجى، ولا ميت فينسى) فهى أشد وأنكى من الموت قطعا.

ومن المآسى التى تذكر هنا أن بعض البلاد كان يحكمها الملوك، فتحولت أنظمتها من ملكية إلى جمهورية، وظن الناس بهذه الجمهوريات الجديدة خيرا، وتصوروا فى بداية الأمر أن الخير سيجرى فى ركابها، وأنها ستطعم الناس من جوع، وستؤمنهم من خوف، وأنهم سيأكلون فى ظلها المن والسلوى أو السمن والعسل، وأنهم سينعمون بالحرية والمساواة والكرامة، وحقوق الإنسان، فإذا هذه الجمهوريات كانت شرا على الشعوب من الملكيات، لم يذق الناس فى عهودها إلا لباس الجوع والخوف، وضاعت حرية الإنسان، وهانت كرامة الإنسان، وأمست شعوب كاملة رهينة بإرادة شخص واحد، يقدس الجميع اسمه، ويسبحون بحمده، وينحنون له، وينفذون أمره، بل إشارته. لا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يعمل، ولا يقول له أحد: لم؟ بله أن يقول: لا!

وكان من مزايا (الجمهوريات) أن رؤساءها يبقون فترة أو فترتين ثم يتغيرون، ولكن الرؤساء فى أوطاننا لا يتغيرون، والدنيا تتغير من حولهم، فهم مفروضون على شعوبهم رغم أنوفها. وإن كانوا يصوغون ذلك فى صورة مطالبات

جماهيرية تطالبهم بالبقاء والاستمرار، وتؤكد ذلك نتائج الاستفتاءات التى يحصلون فيها على ٩٩ر٩٩٪ من الأصوات.

وأعجب من ذلك: أن هؤلاء الرؤساء الذين ابتليت بهم الأمة، قد حولوا هذه الجمهوريات إلى ملكية وراثية بالفعل، وعلى مرأى ومسمع. فكل رئيس يعد ابنه ليكون ولى عهده، ووارث ملكه من بعده، فابن الوز عوام، ومن يشابه أباه فما ظلم. وهكذا عادت كسروية أو قيصرية، لها من القيصر جبروته وسرفه، وليس لها منه جلاله وشرفه، كما قال شوقى رحمه الله.

وبات الناس يترحمون على أيام الملوك، وعهود الملكية، وينشدون قول الشاعر:

رب يوم بكيت منه، فلما صرت فى غيره بكيت عليه!

حتى كتب بعض أساتذة العلوم الاجتماعية والسياسية، يقترح على البلاد العربية، أن تستبدل بالأنظمة الجمهورية الحالية: الملكية الدستورية، فقد وجد أنها أحسن حالا، وخير مآلا، من هذه الجمهوريات الحديثة، ذات المخالب والأنياب، التى تعلن (الديمقراطية) وتمارس (الدكتاتورية).

ولقد كان مما يخفف سطوة الوراثة فى النظام الملكى الدستورى: أن الملك فيه يملك ولا يحكم، بخلاف هؤلاء (الملوك الجمهوريين) فإنهم يملكون ويحكمون، ويورثون الملك والحكم لذرياتهم!!

وقد قال بعض رؤساء الجمهوريات: إن الديمقراطية قد تكون لها أنياب أحد من أنياب الدكتاتورية. وقد استطاع بهذه الأنياب أن يفترس خصومه، وتحت علم الديمقراطية!

والأعجب من كل ما ذكر: أن تجد بعض الكتاب والصحفيين والإعلاميين قد باعوا أنفسهم بثمن بخس - وربما بلا ثمن - لهذه الأنظمة المتسلطة، يبررون لها سلوكها، ويدافعون عن انحرافاتها وتحريفاتها، ويباركون لها كل اتجاهاتها، يصدقونها إذا ادّعت، ويؤمنون عليها إذا دعت، وينظمون قصائد الإطراء، أو يدبّجون مقالات الثناء، فهؤلاء شر على الأمة من الحكام الجائرين والمستبدين.

(٥)

عبيد الفكر الغربى

عبيد الفكر الغربى

العدو الخامس للحل الإسلامى، والفكر الإسلامى، والعمل الإسلامى، هم جماعة (العلمانيين) الذين أسميتهم (عبيد الفكر الغربى)، وإن كانوا من بنى جلدتنا، ويتكلمون بلساننا العربى.

العداوات السابقة - من الاستعمار والصهيونية والشيوعية - عداوات خارجية، وإن كان لها تأثير لا يجحد فى حياتنا الداخلية، بوسائل شتى، أما هذا العدو، والعدو السابق (الحكام المنافقون) فهو عدو من داخلنا مباشرة، وهذا هو الأشد خطرا، والأعمق أثرا.

ونعنى بالفكر الغربى : الفكر النظرى الذى يسود الغرب الحديث فى أوربا وأمريكا. ولسنا نعنى به «الفكر العلمى» القائم أساسا على الملاحظة والتجربة والذى عبرت عنه العلوم الطبيعية والرياضية، التى تفوق فيها الغرب تفوقا ملحوظا. إنما نعنى به الفكر الفلسفى الذى يحدد نظرة الناس هناك إلى الدين والحياة، وإلى الكون والإنسان. فهو يشمل الفلسفة الميتافيزيقية «ما وراء الطبيعة» إثباتا أو إنكارا، والفلسفة الأخلاقية بشتى مدارسها، والفلسفة الاجتماعية بمختلف مذاهبها وتياراتها وفروعها. وقد عبرت عن هذا العلم الفلسفة بشتى مدارسها، والنظريات الأخلاقية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والمذاهب الأدبية.

وسواء كان هذا الفكر ليبراليا أم اشتراكيا، رأسماليا أم شيوعيا، فهو فكر غربى واحد فى الأساس والأصول، والسمات والخصائص. وإن اختلفت صوره وفروعه، وتميز بعضها عن بعض.

أما «الفكر العلمى» القائم على المنهج الاستقرائى أو التجريبى، فلا اعتراض لنا عليه، بل الواقع أن أصله مقتبس من الحضارة العربية الإسلامية التى ارتكزت عليه، وتفوقت فى استخدامه فى شتى المجالات، واعتبره العلماء المسلمون منهجا

قرآنيا، وقد شهد المنصفون من علماء الغرب، ومؤرخو العلم والحضارة فيهم بأصالة المسلمين فى ذلك، وأخذ الغربيين عنهم، كما فى كتابات « بريفولت » و« جورج سارتون » و« جوستاف لوبون » وغيرهم من الشهود العدول [1] كما نقد علماء المسلمين – أمثال ابن تيمية – المنهج أو المنطق الصورى الأرسطى، قبل أن ينتقده الغربيون المحدثون بعدة قرون.

● سمات الفكر الغربى وخصائصه:

هذا الفكر الغربى النظرى فكر خاص له سماته وخصائصه التى ينفرد بها عن فكر الشرق عامة، والشرق العربى والإسلامى خاصة، وهى خصائص عميقة الجذور، لازمته منذ نشأته فى بلاد الإغريق، وانتقاله إلى الرومان، حتى انتقل إلى أوربا المعاصرة، ومن ورائها أمريكا، وأثرت فيه عوامل تاريخية خلال صراعات القرون، تركت « بصماتها » عليه إلى اليوم.

١ – الغبش فى معرفة الألوهية:

أول سمات الفكر الغربى: غبش رؤيته لحقيقة الألوهية، فليست رؤية صافية تقدر الله حق قدره، وإنما هى رؤية غائمة مضطربة، تحيط بها الأوهام والجهالات، بل الحق أن الغرب – كما يظهر من تاريخه – لم يعرف الله جل شأنه معرفة صحيحة، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره، ولم يعرف حقيقة الألوهية الكاملة العالمة القادرة المريدة البارة الرحيمة. وذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية، والوحى المعصوم، معرفة مباشرة، فيما علمنا من تاريخه. ومن ثم سار فى الطريق وحده باحثا عن « العلة الأولى » أو « المحرك الأول » أو « واجب الوجود » فتعثر وتخبط وغلبت عليه الأوهام والأهواء.

حتى الفلاسفة الذين يسميهم تاريخ الفلسفة « الإلهيين » أى الذين اعترفوا بالألوهية فى الجملة، مثل العمالقة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين

---

(١) انظر: رسالتنا: « الدين فى عصر العلم » من رسائل ترشيد الصحوة الإسلامية، نشر مكتبة وهبة.

رفضوا الإنكار والإلحاد، لم يكن تصورهم للألوهية تصورا صحيحا، بل كان تصورا قاصرا مضطربا مشوبا بالكثير من الأوهام والتخليطات.

لنأخذ مثلا «إله» أرسطو «المعلم الأول» [1] لدى الإغريق، لنرى أى إله هو؟ أهو الإله الذى نعرفه نحن، خالق كل شئ، ورازق كل حى، ومدبر كل أمر، العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون، الفعال لما يريد، والقادر على كل شئ؟ أم هو إله آخر غير هذا الإله الذى نعرفه؟

لنستمع فى ذلك إلى أحد مؤرخى الفلسفة المعاصرين ...

يقول «ول ديورانت» فى «مباهج الفلسفة»:

«يتصور أرسطو «الله» بوصفه روحا تعى ذاتها، وهذه هى الأخرى روح غامضة خفية، وذلك لأن إله «أرسطو» لا يقوم أبدا بأى عمل، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة، إلى حد تجعله لا يفعل أبدا، وهو كامل كمالا مطلقا، لذلك ليس بمقدوره أن يرغب فى أى شئ، ولذلك لا يعمل أى شئ! ووظيفته الوحيدة هى التأمل فى جوهر الأشياء، ونظرا لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء، وشكل جميع الأشكال، لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمل فى ذاته. يا لإله أرسطومن إله مسكين! إنه ملك، لا يحل ولا يربط، فالملك يملك ولكنه لا يحكم!.

«ولا غرو أن يحب الإنجليز «أرسطو» فإلهه هو - بوضوح - صورة طبق الأصل عن ملكهم، أو أن ملك هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات» [2].

وإذا كان إله أرسطو مسكينا، لأنه لا يستطيع أن يحل ولا يربط فى الكون، ولا يتأمل إلا فى ذاته فأشد منه مسكنة إله أفلوطين - الذي تنسب إليه الأفلاطونية الحديثة - فإنه لا يتأمل في شئ، حتي في ذاته نفسها!! [3].

---

(١) هكذا أطلقت عليه المدرسة الفلسفية المشائية فى الحضارة الإسلامية: الفارابى وابن سينا ومن وافقهما.

(٢) مباهة الفلسفة ص ١٦١ - ١٦٢ من الترجمة العربية.

(٣) انظر: «الله» للأستاذ عباس محمود العقاد.

٢ - النزعة المادية :

ومن سمات الفكر الغربى : المادية، ونعنى بها تلك النزعة التى تؤمن بالمادة وحدها، وتفسر بها الكون والمعرفة والسلوك، وتنكر الغيبيات، وكل ما وراء الحس، فهى لا تؤمن بإله خالق لهذا الكون، ولا برسل له ينزل عليهم الوحى، ولا بروح خالدة لهذا الإنسان، ولا بحياة أخرى بعد هذه الدنيا، ولا بعالم غيبى غير هذا العالم المنظور، ولا بقيم مثالية فوق المنافع واللذات الحاضرة، لأن كل هذه الأشياء لا يشهد لها الحس، ولا تهدى إليها الملاحظة والتجربة .

الفكر الغربى فكر مادى، يحتقر الروحيات .. حسى، لا يحفل بالمعنويات ... واقعى، لا يؤمن بالمثاليات .

وأود أن أنبه أننا نحكم هنا على الغالب والسائد، فلا يحتج علينا محتج بأن فى الغرب روحيين وأخلاقيين ومثاليين، فيه أمثال جيمى كارتر الرئيس الأمريكى الذى قال : إنه ولد ولادة مسيحية جديدة . فيها المسيحية الأصولية الموالية لليهود، المساندة لإسرائيل، إن العبرة بالأغلب، والنادر لا حكم له، والأكثر له حكم الكل، كما هو معلوم .

وقد غلبت هذه النزعة المادية على الحياة الغربية المعاصرة، سواء منها الجانب النظرى أم الجانب العملى، حتى أصبح معروفا لدى الدراسين المتعمقين أن ديانة الغرب الحقيقية اليوم هى «المادية» .

وربما أنكر هذه الحقيقة أو استغربها الذين ينظرون إلى الأمور من السطح ولا يغوصون إلى الأعماق . إذ المعروف لديهم : أن أمم الغرب فى مجموعها تدين بالمسيحية، وينص كثير من دساتيرها على ذلك، بل على مذهبها من كاثوليكية أو بروتستانتية، وفرنسا تعتبر نفسها حامية الكثلكة فى العالم، وانجلترا كانت تعد نفسها حامية البروتستانتية . وقد ورثها فى ذلك الآن الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا أحزاب مسيحية كاثوليكية كبيرة،

تولى بعضها الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين البريطاني يجعل من أهدافه إقامة حضارة مسيحية ... فكيف يسوغ لنا - بعد هذا - أن نشكك في إيمان الغرب بالدين وتمسكه به؟.

ولكن ينبغي ألا تخدعنا الصور عن الحقائق، ولا القشور عن اللباب، ولا الأسماء عن المسميات.

فالمسيحية عند هؤلاء «شعار» يرتبطون به، و«صليب» يتجمعون حوله، ونزهة إلى «الكنيسة» في أيام الآحاد، وليست «قيما» يؤمنون بها، و«عقائد» يخضعون لها، ويكيفون حياتهم وفقا لها، ونحن نتحدث طبعا عن الغالبية العظمى، لا عن أفراد يعدون شواذ بالقياس إلى مجتمعهم، فهم في قومهم كحلقة في فلاة.

فالغربي الحديث إذا كشفت عن جوهره الحقيقي وجدت إنسانا لا يعرف إلا المادية دينا، والنفعية مذهبا.

وننقل هنا كلمة رجل أوربي باحث متعمق هو «ليوبولد فايس» النمساوي الذي اهتدى إلى الإسلام وتسمى باسم «محمد أسد» في كتابه المعروف «الإسلام على مفترق الطرق» يقول:

«إن الأوروبي الحديث - بما ينطوي عليه من جحود مهمل لوجود النفس على أنها حقيقة عملية - لم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما. لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار في الحياة وراءه ظهريا.

«إن الاتجاه الديني مبني دائما على الاعتقاد بأن هنا لك قانونا أدبيا مطلقا شاملا، وأننا - نحن البشر - مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضياته، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة لخضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية. إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية» [1]!

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٠، ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الثانية.

ثم حلل الكاتب مناهضة المدنية الأوربية للدين، وأعاده إلى سببين أساسيين:

أولهما: وراثة أوروبا للمدنية الرومانية، مع اتجاهها المادى التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية، وقيمتها الذاتية.

والثاني: ثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصرانية للدنيا، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعية فى الإنسان (١).

وقد حلل الحضارة الرمانية – التى هى أم الحضارة الغربية – تحليلا دقيقا، ينبغى لنا أن نسجله، وأن نعيه وعيا جيدا. قال:

«إن الرومانيين فى الحقيقة لم يعرفوا الدين، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية. لقد كانت أشباحا سُكت عن وجودها حفاظا للعرف الاجتماعى، ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية، بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت عن مثل ذلك، ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية.

«تلك كانت التربية التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة، ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة فى أثناء تطورها، ثم إنها بطبيعة الحال قد حورت وبدلت فى ذلك الإرث الثقافى الذى ورثته عن رومية، فى أكثر من ناحية واحدة، ولكن الحقيقة الباقية: أن كل ما هو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية.

«وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعيا بحتا، ولا دينيا – لا على الافتراض بل على الحقيقة – فكذلك هو الجو فى الغرب الحديث.

«إن المدنية الغربية لا تجحد الله ألبتة – أى جحودا مطلقا فى قوة وصراحة – ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة «لله» فى نظامها الفكرى الحالى.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠.

«وهكذا يميل الأوربى الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن وجود الله لا يقع تحت هذا الوجه، ولا تحت ذاك، فإن العقل الأوربى يميل بداءة إلى إسقاط «الله» من دائرة الاعتباراعت العملية» (١).

ولم ينكر «ليوبولد فايس» أن فى الغرب بعض الأفراد المتدينين، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الموجة المادية العاتية، أو يؤثروا فى توجيه التيار الفكرى العام. قال:

«لا ريب أنه يوجد فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذ فقط.

«إن الأوربى الحديث – سواء كان ديموقراطيا أم فاشيا، رأسماليا أم بلشفيا، صانعا أم مفكرا – يعرف دينا إيجابيا واحدا. هو التعبد للرقى المادى، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ...

«إن هياكل هذه الديانة – أى معابدها وكنائسها – إنما هى المصانع العظيمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء! وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما، وقادة الصناعات وأبطال الطيران! . وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال: هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة – أى اللذة – وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح، ومصممة على أن يفنى بعضها بعضا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

«أما على الجانب الثقافى، فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٤ وما بعدها.

الأخلاقية فى مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر، إنما هو التقدم المادى لا غير» [1].

وليست شهادة «ليوبولد فايس» على المدنية الغربية هى الشهادة الوحيدة، فهناك كثيرون غيره من أبناء الغرب المسيحيين شهدوا بما شهد، وأكدوا ما قال، وقد نقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عن الأستاذ «جود» الإنجليزى قوله: «إن نظرية الحياة التى تسود هذا العصر، وتحكم عليه: هى النظرة فى كل مسألة وشأن، من ناحية المعدة والجيب» [2].

وقد أجاد الصحفى الأمريكى المشهور «جون جنتر» تمثيل هذه الفلسفة فى كتابه «فى داخل أوربا» بقوله: «إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام فى الأسبوع، ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة» [3].

وهذه شهادات قديمة، وقد ساء الوضع وتدهور كثيرا، وكثيرا جدا، عما شهده وشهد به هؤلاء النقاد، وقد ذكرت الإحصاءات الحديثة أن ٥٪ فقط من الغربيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد، وإن لم يكن هذا الذهاب يعنى التدين بالضرورة.

٣ - النزعة العلمانية:

ومن سمات الفكر الغربى وخصائصه: النزعة العلمانية - وهى من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما - وهى تلك النزعة التى تفصل بين الدين والدولة، وبعبارة أخرى: بين الدين والحياة الاجتماعية.

فالدين فى نظر الغربى علاقة بين الإنسان وربه، محلها ضميره الذى بين

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٤١.
(٢) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٥٧، الطبعة الثانية.
(٣) المصدر السابق.

جنبيه، فإن خرج عن الضمير، فلا يجوز له أن يتجاوز جدران المعبد، أو الكنيسة، وليس من شأنه أن يوجه الحياة بالتشريع والإلزام، وفرض تعاليمه وأحكامه على المؤسسات التى تحكم المجتمع، وتدير دفته من تعليم وتربية وثقافة وإعلام، وإدارة، واقتصاد، وسياسة وتشريع.

وقد آمن الغرب بهذه الفكرة، بعد صراعه المرير مع المؤسسة الدينية الممثلة فى الكنيسة ورجالها وكهنتها، الذين زعموا أنهم يمثلون فى الأرض إرادة الإله فى السماء، وأن رأيهم دين، وطاعتهم عبادة، ومخالفهم شيطان.

وللأسف كان رأيهم وفكرهم - الذى اعتبروه دينا من عند الله - يؤيد الخرافة ضد الفكر، والجهل ضد العلم، والجمود ضد التحرر، والظلم ضد العدل، والظلام ضد النور.

أقامت الكنيسة «محاكم التفتيش» لمطاردة العلم، ومحاكمة العقل، ومقاومة الابتكار، ومحاربة كل جديد، وفعلت الأفاعيل - التى لم يعرف التاريخ لها مثيلا - ضد العلماء والمفكرين والمخترعين، وقتلتهم أحياء، وحرقتهم أمواتا.

فلما مس الغرب المسيحى نفحة من الشرق الإسلامى، هب يدافع عن ذاته، ويثور على جلاديه، ويرفض الدين الذى حرمه من الدنيا، وحرم عليه العلم والتفكير، دين الكنيسة والبابوات، الذين يملكون قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، ويوزعونها على من يشاؤون.

رفض الفكر الغربى الناهض الدين الذى كبله بالأغلال، ولم يسمح له بالبقاء إلا مستكنا فى الضمائر، فإن خرج فإلى المعابد والكنائس أيام الآحاد لا يعدوها.

ولا غرو أن الغرب بعد أن أنزل الدين عن عرشه، وعزله عن عجلة القيادة، نهض بعد عثرة، وارتقى بعد هبوط، واغتنى بعد فقر، وقوى بعد ضعف، وهذا ما

جعله يزداد إيمانا بما انتهى إليه خلال مسيرته التاريخية: أن لا مكان للدين فى توجيه الدولة والمجتمع.

ومما يؤيد هذا التوجه فى الفكر الغربى: أن الإنجيل نفسه يؤيد هذا الاتجاه ويدعمه، حيث يقول المسيح: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

ومعنى هذا: أنه قبل قسمة الحياة نصفين: نصف للدولة المعبر عنها بـ«قيصر»، ونصف للدين، الذى هو لله.

فهذا الانشطار والانقسام والانفصام بين الله وقيصر، أو بين الدين والدولة هو إحدى السمات الأساسية لفكر الإنسان الغربى.

٤ - الصراع:

ومن خصائص فكر الحضارة الغربية: أنه فكر حضارة تقوم على الصراع، لحمتها وسدادها الصراع، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب.

وهو صراع متغلغل فى كل النواحى، متنوع الأشكال، متعدد المجالات، متباين الأسلحة والأساليب.

إنه صراع بين الإنسان ونفسه، وصراع بين الإنسان والطبيعة، وصراع بين الإنسان والإنسان، وصراع أيضا بين الإنسان والإله!

فالإنسان فى الغرب يصارع فطرته التى فطره الله عليها، إذا أراد أن يحيا الحياة المثالية التى تريدها له ديانته النصرانية، فالوضع المثالى له أن يستقذر الجنس، ويهرب من الدنيا، ويرفض المال، لأن الغنى لا يدخل ملكوت السماوات إلا إذا دخل الجمل سم الخياط، ويحرم نفسه من الطيبات من الرزق، ومن زينة الله التى أخرج لعباده، ويتحمل السيئة من المسئ، ويدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن! فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك - كما هو شأن معظم الناس - ظل يعانى عقدة الصراع بين مثاليته التى يؤمن بها وواقعه الذى يعيشه ويمارسه.

وإنسان الحضارة الغربية فى صراع مع الطبيعة، لأنه ينطلق من أن الطبيعة

عدو له، يجب أن يفرض سيطرته عليها، ولهذا يعبر الغربيون عن ذلك بكلمة «قهر الطبيعة» وهى كلمة لها دلالتها وإيحاؤها. على حين يرى الإسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مسخرة لمنفعة الإنسان، كما فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

وهو ما عبر عنه النبى ﷺ أجمل تعبير وأرقه فى شأن جبل أحد حين قال: «أحد جبل يحبنا ونحبه» (١).

والإنسان فى الحضارة الغربية فى صراع مع أخيه الإنسان، وهو صراع يأخذ صورا شتى.

فهو صراع بين الأفراد من أجل منافعهم الفردية المتباينة، ولا سيما مع سيادة النزعة الفردية، والفلسفة النفعية، وشيوع مقولة «هوبز»: «الإنسان ذئب للإنسان»! وقول كل امرئ بعد ذلك: «أنا وليخرب العالم»!

وهو صراع بين الطبقات والجماعات، وخصوصا مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها، وجورها على غيرها، واحتقارها لمن سواها.

وهو صراع بين الأمم والأجناس، وخصوصا مع حدة الشعور القومى، ونزعة الاستعلاء عند كل أمة، وهو ما أدى إلى حروب إقليمية وعالمية، وما لا نزال نرى أثره فى العلاقة بين البيض والسود، أو البيض والملونين عامة، فى أمريكا وإفريقيا وغيرها.

وهو صراع بين المؤسسات كالصراع بين الكنيسة والدولة، الذى انتهى إلى ما عرف عندنا باسم «العلمانية»، وتعنى: فصل الدين عن شؤون الدولة والمجتمع.

ومثله الصراع بين الدين والعلم، وبعبارة أخرى بين المؤسسة التى تمثل الدين

---

(١) رواه البخارى عن سهل بن سعد، والترمذى عن أنس.

وهى الكنيسة ورجال الأكليروس، والمؤسسة التى تمثل العلم، وهى الجامعات ومراكز البحث وغيرها .. وقد تجسد هذا الصراع فى محاكم التفتيش التاريخية وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآس تشيب لهولها الولدان.

وأدهى من ذلك كله وأمرّ فى الحضارة الغربية: الصراع بين الإنسان والرب أو الإله، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسيين:

١ - وثنية اليونان وآلهتها التى كانت تغير وتدمر وتحرق.

٢ - العهد القديم (التوراة وملحقاتها) الذى يصور الإله حاقدا ناقما غيورا حتى إنه يخلق الإنسان (آدم) ثم يخاف منه، ويخشى أن يزاحمه فى المعرفة أو الخلود، فيحرم عليه الأكل من الشجرة، وهو يصارع إسرائيل، فيصرعه إسرائيل، فلا يفلته إلا بوعد منه لمصلحة نسله وذريته!!

٥ - الاستعلاء على الآخرين:

ومن سمات الفكر الغربى: نزعة الاستعلاء على الآخرين، التى تسرى وتتحكم فى عقول الغربيين كافة، فهم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم عنصرا، وأنقى دما، وأنهم خلقوا ليقودوا ويسودوا ويحكموا، وأن الآخرين خلقوا ليكونوا مسودين ومحكومين لهم. هكذا بالفطرة والخلقة.

ولهذا سقطت هذه النظرة من الناحية العلمية، فلم يثبت العلم أن هناك جنسا أفضل من جنس، من جهة الخلقة والفطرة، ولكنها البيئة والظروف المساعدة، وقد كانت شعلة الحضارة فى يد الشرق قديما، أيام حضارة الفراعنة والفرس والهنود والصينيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الغرب بعد أن مسته نفحة من الشرق الإسلامى عن طريق الأندلس وصقلية، ولقاءات الحروب الصليبية، والدور الآن للشرق لا للغرب الذى أفلس فى قيادة الحضارة وإسعاد العالم بها.

لقد سقطت نظرية الأجناس علميا، ولكنها لم تسقط نفسيا، ولا زال لها تأثيرها فى أنفس الكثيرين، بل الأكثرين من أبناء الغرب فى علاقتهم بالآخرين.

والعجيب أن نجد رجلا عالما كبيرا مثل« د. ألكسيس كارل » من علماء هذا القرن ومن الحائزين علي جائزة نوبل في العلوم يؤمن بتفوق الأجناس البيضاء علي غيرها، كما ذكر ذلك في كتاب (الإنسان ذلك المجهول) ولهذا نجد الأوربيين يعتقدون أن أوربا أم الدنيا، وأن التاريخ منها بدأ، وإليها يعود، وأن التاريخ القديم والوسيط والحديث هو تاريخ أوربا وحدها. وأن الحضارة هى حضارتهم وحدهم، وأن القرون الوسطى تعتبر قرون الظلام، لأنها كانت هكذا عندهم، متجاهلين أن هذه القرون كانت هى الفترة الذهبية التى سادت فيها الحضارة الإسلامية المبدعة المتوازنة.

وهذا الاستعلاء ما أخذه الأوربيون عن الرومان الذين كان العالم فى نظرهم ينقسم إلى رومان وبرابرة، فكل من عداهم برابرة همج!

وقد رأينا الاستعلاء العام لدى الأوربيين عامة ينتقل إلى أقطار منها خاصة، كل يزعم أنه الأنقى سلالة، والأزكى عنصرا. كما صنع « هتلر » ورفع شعار: ألمانيا فوق الجميع، وكما فعل « موسلينى » وجماعته، ورفعوا شعار: إيطاليا فوق الجميع، وكما فعل البريطانيون الذين رفعوا شعار: سودى يا بريطانيا واحكمى! فشأن هؤلاء شأن بنى إسرائيل الذين يزعمون أنهم – بجنسهم – شعب الله المختار!

تلك هى أبرز السمات والخصائص المميزة للفكر الغربى. والتى كان لها نضحها وأثرها على سلوكه وتصرفاته وعلاقته بنفسه وبالآخرين، وكان لها ثمار إيجابية فى بعض الجوانب، كما كان لها آفاتها وثمارها المرة فى جوانب أخرى. وإن الغربيين أنفسهم هم الذين أبصروا هذه الآثار السيئة لهذه الحضارة المادية الصناعية الآلية، وطفقوا ينكرون عليها ماديتها وعلمانيتها واستعلاءها وغرورها، وشرعوا ينادون بوجوب العودة إلى الدين، ويبشرون بمستقبل العقيدة.

- **ماذا نعني بعبيد الفكر الغربى؟**

هذا هو الفكر الغربى الذى نعنيه، وهذه ملامحه ومعالمه الأساسية، فمن هم عبيد الفكر الغربى؟

عبيد الفكر الغربى هم الذين سيطرت على عقولهم مفاهيم هذا الفكر، وقيمه الخلقية، وتصوره للدين وللإنسان وللحياة.

وكدت أسميهم «تلاميذ الفكر الغربى» ولكنى تأملت موقف هؤلاء من الغرب، فوجدته أكثر من «تتلمذ» إن أصدق تعبير له هو «العبودية».

إن التلميذ الذكى يناقش أستاذه، وقد يعترض عليه، بل قد يخالفه ويرد قوله، وهؤلاء قد وضعوا أنفسهم موضع العبيد من السيد، فما يراه الغرب - سيدهم - حسنا فهو عندهم حسن، وما استقبحه فهو عندهم قبيح، كل ما يعتقده الغرب فهو حق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل، وكل ما يدعو إليه فهو خير ورشد!

● **عبيد اليمين وعبيد اليسار سواء:**

وهؤلاء العبيد فريقان:

فريق اتخذ له سيدا من المعسكر الغربى وهم دعاة الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية وهم الذين يسمون «اليمينيين».

وفريق اتخذ له سيدا من المعسكر الشرقى وهم دعاة «الاشتراكية العلمية» أو «الماركسية»، وهم الذين يدعون «اليساريين».

والفريقان يختلفان فى مسائل شتى، ولكنهم تجمعهم أمور جوهرية، هى:

١ - النظرة إلى الحياة والإنسان نظرة مادية تتجاهل موازين الدين وقيمه وأحكامه، ولا تجعل لله مكانا فى توجيه حياة الإنسان، وبخاصة المجتمع والدولة، ولا تجعل لوحيه سلطة الأمر والنهى والإلزام والتقويم.

٢ - تقديس الفكر الغربى واعتباره مصدر الهداية والنور للبشرية كلها وللعالم قاطبة. واتخاذهم قبلة فكرية لهم خارج أوطاننا، فلا يأتيهم الوحى إلا من هناك، من لندن أو باريس أو موسكو أو واشنطن.

٣ - ازدراء الفكر الإسلامى قديمه وحديثه، واعتباره فكرا جامدا أو متخلفا

لا يصلح لهذا العصر، لا تنطلق به نهضة، ولا ترقى به أمة. وذلك نتيجة جهلهم بهذا الفكر، وغربتهم عنه.

٤ – المعارضة بشدة لعودة الإسلام إلى قيادة المجتمع والسيادة على الحياة، واعتبار ذلك (نكسة) يجب أن تقاوم بكل وسيلة، وأن يؤخذ على دعاتها كل سبيل. ولهذا صنفناهم فى «أعداء الحل الإسلامى».

● عبيد ولكن لهم سلطان:

وهؤلاء العبيد لهم فى أوطان العرب والمسلمين سلطان أى سلطان. فهناك كثير من الذين يحررون الصحف، ويوجهون برامج الإذاعات و«التليفزيون» والمسارح والسينما، والقنوات الفضائية، ويديرون أجهزة الدعاية والإعلام، ويؤثرون فى تفكير المجتمع ومشاعره وسلوكه – من هؤلاء الفاتنين المفتونين، والخادعين المخدوعين.

وكثير من أساتذة الجامعات والمعاهد العليا فى بلادنا العربية والإسلامية من هذا الصنف أيضا.

ومن المؤلم حقا أن يكون معظم زعماء السياسة ورجال الحكم فى العالم العربى، والعالم الإسلامى من هؤلاء العبيد، أو من تلاميذهم، فهم بين عبيد لليمين وعبيد لليسار، بين مؤمن بالرأسمالية الليبرالية، وداعية للاشتراكية الثورية.

من أجل هذه العبودية التى نشأ عليها هؤلاء رأينا أكثر حكام المسلمين – كما بينا فى الفصل السابق – فى شتى بلاد الإسلام يعارضون الحكم الإسلامى، ويقفون فى طريق الحل الإسلامى، ويطاردون دعاته، ويضطهدون أنصاره، ويقفون فى وجه الصحوة الإسلامية، وإن اختلفت أساليبهم كما وكيفا فى المطاردة والاضطهاد.

ولكن خطر هؤلاء الحكام ليس كبيرا لو كانوا يعملون وحدهم، فإنهم سيظلون معزولين عن شعوبهم المسلمة، عاجزين عن التأثير فى فكرها ووجدانها وإرادتها وسلوكها.

وإنما يتضاعف خطر هؤلاء بمن يفلسف لهم سياستهم، ويبرر لهم طريقتهم، ويزين لهم الاستمرار فى طريق «التغريب» أو «التأورب» أو «التأمرك» أو «التمركس» إلى آخر الشوط ونهاية المطاف.

الخطر الحقيقى فى قادة الفكر والتوجيه فى الجامعات والتربية والتعليم والثقافة والإعلام، الذين يصنعون للشعوب رأيها وذوقها واتجاهها، لا كما تريد هى، بل كما يريد لها أعداؤها الطامعون فيها، الخائفون منها، الحاقدون عليها.

وعلى هذا الصنف تركزت عين الاستعمار فى بلادنا، وفى سبيل تكوينه كان تخطيطه وتنظيمه، وتربيته وتعليمه.

● **أخطر ما صنع الاستعمار:**

كان هم الاستعمار الأكبر أن يخلق فى كل بلد دخل فيه جيلا جديدا يهضم الحضارة الوافدة، ويتقبل الوجود الدخيل، ويبرأ من قديمه الأصيل، الذى لم يكن ينظر إلا به، ولا يفكر إلا على أساسه، وقد كان محور هذا القديم الأصيل هو الإسلام.

كان الاستعمار يريد أن يصنع من أبناء الشرق المسلم جيلا طيعا، يلين فى يديه لين العجينة فى يد الخباز، جيلا ينتهج نهجه، ويطيع أمره، وينقاد له مختارا، ويقول ما قاله أحد وزراء مصر يوما عن العلاقة بين مصر وبريطانيا: إنه عقد زواج كاثوليكى لا طلاق فيه!

كان الاستعمار يعمل على خلق جيل شرقى الوجه والدم، غربى الذوق والتفكير، يحمل فى شهادة ميلاده أو جواز سفره، اسما عربيا إسلاميا، ويحمل فى رأسه عقلا أوربيا أو أمريكيا خالصا! وكان يريد أن يأتى اليوم الذى لا يظهر فيه على المسرح بنفسه أو بممثليه المباشرين، وأن يدع دوره لوجوه «وطنية» أو «قومية» تؤدى نفس مهمته، وتسير فى نفس طريقه، طريق الهدم بغير فأس، والقتل بغير إطلاق الرصاص! وهذا كان - فى الحقيقة - أخطر ما صنع الاستعمار فى ديارنا، وما خلف من آثار فى أوطاننا.

كان الاستعمار يعمل على أن يقوم بدوره - في التخريب لكيان الأمة المعنوى، ومقوماتها الروحية والخلقية والفكرية - عرب بل مسلمون بالذات، فإن الشجرة - كما قال أحد المبشرين - لا يقطعها إلا أحد أبنائها! ونجح الاستعمار، وتحقق له ما أراد.

تحقق بمن اصطنعهم لنفسه، وصنعهم على عينه، بهؤلاء العبيد من حملة الأقلام، وموجهى الفكر الخاص والرأى العام.

وعرفت ديار الإسلام هذا الصنف «الهجين» من أبنائها الذين وصفهم رسول الله ﷺ منذ أربعة عشر قرنا من الزمان بأنهم «دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها» فلما قيل له: يا رسول الله، صفهم لنا قال «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» (١).

وهذه هي الكارثة حقا، كارثة الذين يريدون أن يخلعوا الأمة من دينها، وهم - مع هذا - ليسوا بإنجليز ولا فرنسيين ولا روس ولا أمريكان، وإنما هم «من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»!

هؤلاء الوطنيون القوميون المتغربون من بنى جلدتنا هم - فى الواقع - أخطر من سادتهم وأساتذتهم وصانعيهم من المستعمرين المكشوفين.

إن الاستعمار على ما له من قدرة وطاقات جبارة، بمن يستخدمه من بنى قومه من المبشرين والمستشرقين، ومن على شاكلتهم، لهم أهون خطرا من هؤلاء

---

(١) من حديث حذيفة بن اليمان عند البخارى ومسلم، وأوله: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ - عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى، قال قلت: يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير (يعنى الإسلام) فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن (أى هو خير غير خالص ولا صاف) قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتى، ويهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ... إلخ الحديث.

العبيد، الذين يتزيون بزى (الأحرار) الثائرين، هؤلاء الأجانب - عن قومهم - الذين يبدون فى صورة الوطنيين الغيوريين.

إن ما يصدر عن الاستعمار عن طريق مبشريه ومستشرقيه يظل قليل الخطر، ضعيف الأثر، ما لم يتبنّه هؤلاء العبيد، ويجعلوه - كذبا - بضاعة وطنية هم أصحابها وصانعوها، وما هم إلا «حمالون» لهذه البضاعة الأجنبية.

إن شعوبنا تنفر بطبيعتها من كل ما يصدر عن عدو دينها ووطنها متى عرفت ذلك وأدركته؛ لأنها تعلمت من دينها وتاريخها وتجاربها أنه لا يضمر لها خيرا، ولا يريد لها قوة ولا رفعة ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ولكن شعوبنا تنخدع بالفكر الدخيل الصادر عن عدوها، إذا جاءها على يد أبنائها الذين أحسنت بهن الظن، إنها تتقبل هذا الفكر المستورد إذا خلع قبعته وزيه الغربى، ولبس الزى الشرقى، ونطق باللسان العربى.

وهذا هو كل ما كان يريده الاستعمار، وما جاهد من أجله، منذ أن احتل أرض الإسلام: أن يرحل هو، ليخلف وراءه من يحمل فكرته، ويتبنى تقاليده وحضارته من أبناء البلاذ أنفسهم. ولا ريب أنه الآن سعيد قرير العين بنتيجة ما صنع، وحصاد ما زرع، فى السنين الطوال، سعيد بتلاميذه الذين «ترجمهم» ترجمة غربية خالصة كاملة، فأصبحوا نسخا أجنبية مغلفة بغلاف شرقى عربى.

إن الاستعمار بنوعيه: القديم والجديد، وبجيشيه: المبشرين والمستشرقين، وبشقيه: الرأسمالى والاشتراكى - لم يعد فى حاجة إلى أن يترجم كتبه إلى شرقنا الإسلامى، بعد أن (ترجم هذه الطائفة) من أهله، هذه الطائفة «العصرية» «المتحررة» «التقدمية»!.

أجل، لقد نام الاستعمار ملء جفنيه، بعد أن (ترجم هؤلاء)، وتركهم يقودون قافلة التعليم والثقافة والأدب والفن فى الطريق الذين رسمه، وإلى

الهدف الذى أراده. وما له لا ينام مطمئن الجنب، سعيد الأحلام، وقد غدا هؤلاء «الكبار» من الكتاب والأدباء «والدكاترة» والموجهين، لسانه الناطق بما يريد، وقلمه المصور لما يحب، بل يده المنفذة لما يود ويشتهى؟!

ومما زاد من خطر هؤلاء العبيد أن الاستعمار قد استطاع بإمكاناته المادية والأدبية، وبوسائله الخفية والعلنية، وبأجهزته الدعائية الجبارة، أن يجعل لهؤلاء العبيد ذكرا مرفوعا، وصوتا مسموعا، وأن يفتح لهم المغاليق، ويمهد لهم كل طريق، ويزيل من أمامهم كل عقبة، حتى يظهروا ويسودوا ويقبضوا على مقاليد الأمور فى ديار الإسلام، وخصوصا مقاليد الثقافة والفكر والتوجيه والتأثير فى كل مجال من مجالات العلوم والآداب والفنون.

استطاع الاستعمار المتمكن المقتدر أن يصطنع لهؤلاء دعاية ضخمة أحاطتهم بهالة من الإكبار والإجلال والتقديس، ونفخت فيهم نفخة ضخمتهم وفخمتهم فى أعين الناظرين، فجعلت من القط جملا، ومن الحبة قبة - كما يقول المثل العامى - وأضفت عليهم من نعوت التحرر والتجدد، ومن ألقاب الريادة والقيادة ما خدع بهم الكثيرين، الذين أعجبوا بالدمى العجيبة المتحركة المتكلمة، ولم يلتفتوا إلى الأصابع المستورة أو البطاريات المخبوءة، التى تحركها!

أجل استطاعت الدعاية الدائبة المدروسة المخططة أن تجد سبيلها إلى قلوب الكثيرين من الطيبين المخلصين فى شعوبنا الطيبة، فصدقوا ما شاع، ورددوا ما قيل، عن عبقرية هؤلاء المجددين المتحررين! صدقوا أن تحت القبة شيخا تشد الرحال إليه، وتلتمس البركات بين يديه، بركات العلم والأدب والفن والثقافة العالية!

والحق أن هؤلاء إذا سبرت أغوارهم، وخبرت ما عندهم، لم تجد لهم أصالة ولا ابتكارا، ولا شيئا ذا قيمة حقيقية، يستحق كل هذه الضجة، وكل هذا

التهويل، وكل هذا التعظيم والتقديس، وإنما هى الأوهام والأهواء تجعل من الحجارة الصماء آلهة تعبد من دون الله، وتقدم لها النذور والقرابين .. وعلى هذه الطريقة نفسها صنعت «الأصنام الفكرية» فى بلادنا، وقام على سدانتها كهان مأجورون مزورون.

ويوم تسترد بلادنا شخصيتها، وتتحرر من بقايا الاستعمار الفكرى والاجتماعى، ويكتب تاريخ الفكر فيها من جديد، سيهوى إلى القاع رجال رفعوا لى القمة، وسترى رجالا كبارا - وكباراً جدا - قد أصبحوا صغارا صغارا، سيستحيل أولئك العمالقة - فيما زعموا - إلى أقزام. ستراهم الأمة على حقيقتهم، أدوات جيدة فى يد التبشير والاستشراق، أى فى يد الاستعمار، سترى الذين زعموا - أو زعم لهم - أنهم مجددون! لم يكونوا إلا مقلدين للغرب المستعمر، حذو النعل بالنعل، وأن جديدهم لم يكن إلا قديم أوربا .. وسترى الأمة الذين زعموا - أو زعم لهم - أنهم أحرار الفكر لم يكونوا إلا عبيدا أقنانا للحضارة الغربية، يركعون عند أقدامها، ويسجدون فى خشوع لكل ما يصدر عنها من قيم وأفكار، ومفاهيم وتقاليد، بدون تمحيص ولا تمييز «خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد وما يعاب» وأن حرية الفكر التى زعموها لم تكن إلا التمرد على دينهم وتراثهم، والرفض والاحتقار لكل ما استقلت به حضارتهم، أو اختصت به أمتهم.

● **نماذج وأمثلة - العبيد المكشوفون :**

هؤلاء العبيد أصناف وأنواع .. منهم نوع مكشوف القناع، لا يبالى بأن يظهر عبوديته للغرب، وأن يدعو جهرة إلى تقليده، واتباع خطاه، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، دون حياء من قومه، ولا احتفال بمشاعر الجماهير من أمته.

وقد رأينا هذا النوع قديما فى مثل أحمد خان فى الهند، وضياء كوك ألب فى تركيا، وفى مثل سلامة موسى - المسيحى المصرى - وجميل المعلوف -

المسيحى اللبنانى - والدكتور طه حسين، فى فترة من الفترات - على تفاوت بينهم - فى درجات اللين والعنف فى موقفهم من عقائد الأمة.

يقول سلامة موسى فى جرأة يحسد عليها: أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب، يجب علينا أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوربا، (ومعنى الخروج من آسيا الخروج من الإسلام الذى جاء به النبى محمد من آسيا).

يريد سلامة موسى «حرية المرأة كما يفهمها الأوربى» كما يريد «من الأدب، أن يكون أدبا أوربيا ٩٩٪» ويريد من التعليم «أن يكون أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه» بل يقول هذا «المفكر» و «الإنسان» كما سماه بعضهم !!: «إن الأجانب يحتقروننا بحق .. ونحن نكرههم بلا حق»!! [1] ويعنى بالأجانب الإنجليز المستعمرين لمصر فى ذلك الوقت..

ويقول جميل معلوف فى جرأة أشد على مقدسات الأمة بكل طوائفها وأديانها:

«إن خلاص الشرق يتوقف على «تفرنج» الشرقيين بكل معنى الكلمة.

«لا عهدة تربطنا بأسلافنا .. يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا الأمس»

«إننى أرى بلاء الشرق كله من الأديان، ومصيبة الشرقيين من الأنبياء» [2]!!!

ويعرض طه حسين لهذا الأمر بأسلوب ألين وأدهى، ولكنه أشد تأثيرا من أسلوب العنف والإثارة المباشرة، فيرى سبيل النهضة «واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهى أن نسير سيرة الأوربيين لنكون لهم أندادا ونكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب» - «وأن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوّم

---

(١) من كتاب «اليوم والغد» لسلامة موسى.

(٢) من كتاب «تركيا الجديدة» لجميل معلوف.

الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها » ويقول « فأما الآن – وقد عرفنا تاريخنا، وأحسسنا بأنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة واستيقنا أنه ليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج – فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوربيين» [1]!! أي إن طه حسين لا يكفيه هنا أن تكون صلة قومه بالأوربيين صلة تعلّم أو اقتباس أو محاكاة، بل المطلوب أن يفنوا في الأوربيين!!

● **عبيد الماركسية واليسار:**

ورأينا هذا النوع في الكتاب اليساريين في العالم العربي والإسلامي، أيام سطوة الشيوعية، ونفوذ السوفيت، هؤلاء الذين اتخذوا « الماركسية اللينينية » لهم دينا، وجعلوا من كتبها مصادر مقدسة لا تضل ولا تنسى، فهؤلاء لا يؤمنون بإله، ولا بوحي، ولا آخرة، ويسخرون من الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ولا يؤمنون إلا بشئ واحد هو « المادية الجدلية » التي جاء بها معبودهم « كارل ماركس » .

فلا يتوقع من هؤلاء إلا أن يعادوا الفكر الإسلامي، والحل الإسلامي، والحركة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، ويقفوا في وجهها بكل ما استطاعوا. وفي هؤلاء شيوعيون صرحاء جاهروا بشيوعيتهم، وانتمائهم إلى منظمات شيوعية، وآخرون اكتفوا بأن خلعوا على أنفسهم وصف « اليسارية أو الثورية أو التقدمية أو الاشتراكية » وكلهم سواء في موقفهم من فكرة الإسلام، ورسالة الإسلام، ومنهج الإسلام.

● **الذين يتسترون بالماركسية والثورية:**

ومن هؤلاء – والحق يقال – من وجد في « الماركسية »والثورية مخبأ « عصريا » ممتازا يلجأ إليه، ويحتمي به، لينفس عن حقد كامن في صدره على

---

(١) من كتاب « مستقبل الثقافة في مصر» تأليف د. طه حسين.

أمة الإسلام، وحضارة الإسلام، فهو يرضى «صليبيته» الرقطاء بما ينفث من سموم ضد الإسلام وأهله ودعاته تحت ستار «التقدمية» «والاشتراكية» كما فعل قبل ذلك إخوان لهم تحت عنوان «الديموقراطية والليبرالية».

فهؤلاء لا يهمهم من الماركسية ولا التقدمية إلا أنها معول جديد للهدم فى بنيان الإسلام - فكرته وحضارته وتاريخه - دون أن يوصموا بطائفية أو تعصب دينى، وغير ذلك من العبارات «الرجعية» التى تنافى روح العصر!

ولو كانوا رجالا يملكون خلق الشجاعة لكشفوا عن دخيلتهم، وأماطوا ولو كانوا رجالا يملكون خلق الشجاعة، لكشفوا عن دخيلتهم، وأماطوا اللثام عن وجوههم، وخلعوا تلك الملابس «التنكرية» التى يمثلون فيها دور «التقدميين والثوار» وهم فى حقيقة أنفسهم ليسوا أكثر من صبيان للمبشرين واللاهوتيين.

● **العبيد المقنعون:**

ومن هؤلاء العبيد - عبيد الفكر الغربى - صنف مقنع ماكر، لا يصرح بالتبعية كما صرح الأولون، ولكنه يلف ويدور فى خبث ودهاء، واضعا السم فى الدسم، متحايلا على بث أفكاره الدخيلة، ملفوفة بأغلفة من الألفاظ البراقة، والعبارات المائعة، لتعمل عملها فى العقول والقلوب، بلا ضجيج ولا إعلان. إنهم يعملون جاهدين لإدخال المفاهيم الغربية إلى ثقافة الأمة، بحيث تتشربها وتتقبلها وتتكيف بها، دون أن تشعر بخطرها ومضادتها لعقيدتها وشريعتها، وذلك مثل مفاهيم الوطنية، والقومية، والحرية الشخصية، وحرية المرأة، ونحو ذلك .

فمفهوم «الوطنية» مثلا يعنى عندهم تأليه الوطن ونقل مشاعر الولاء التى كانت لله تعالى ولرسوله ولدينه، إلى الولاء للوطن وترابه .. فالعمل يجب أن يكون من أجل الوطن، والجهاد أو الدفاع يجب أن يكون فى سبيل الوطن، والأمور ذات البال تفتح باسم الوطن، والقسم يجب أن يكون بتراب

الوطن. أما الله جل جلاله فليس لـه مكـان يـذكر فـى مقالات هؤلاء وكتبهم وأحاديثهم . .

فإن سمح لله بذكر فعلى سبيل الشركة بينه وبين معبودهم الأهم «الوطن» فيمكن أن تقرأ أو تسمع عملا «لوجه الله والوطن» ودفاعا فى سبيل الله والوطن» وافتتاحا لمشروع «باسم الله والوطن» وقسما مؤكدا «بالله والوطن» إلى غير ذلك من العبارات التى حرمها الإسلام وقاومها، لأنها تشوب ما جاء به من التوحيد الخالص، ولأنها تحمل فى ثناياها وثنية خفية، ولهذا جاء فى الأحاديث الشريفة: «من حلف بغير الله فقد أشرك» «لا يقل أحدكم باسم الله واسم فلان»، «لا يقل أحدكم هذه لله وللرحم» أو «هذا لوجه الله ووجه فلان» إلى غير ذلك مما نُهِى عنه المسلمون.

ومثل ذلك مفهوم «القومية» كما جاءت من الغرب، فهى دين بدل الدين، وإن لم تسم بهذا الاسم.

والكتاب القوميون، منهم من تذهب به الصراحة والجرأة إلى حد إعلان هذه الحقيقة: أن القومية يراد لها أن تكون ديانة إزاء ديانة، وعقيدة تقابل عقيدة، كما قال بعض دعاة «القومية العربية» من العلمانيين الأقحاح بصريح العبارة:

«العروبة نفسها دين عندنا – نحن القوميين العرب، المؤمنين العريقين، من مسلمين ومسيحيين – لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية. مع دعوتها – أى العروبة – إلى أسمى ما فى الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات» [1].

وبعضهم يؤكد هذه المعانى وإن لم يبرزها هكذا عارية مكشوفة.

وكثير من الكتاب القوميين والوطنيين من هذا الصنف، كما ظهر ذلك فى مختلف مجالات الدراسات الإنسانية الأكاديمية، من فلسفة إلى أدب إلى تربية

---

(١) العبارة للأستاذ على ناصر الدين.

إلى اجتماع إلى اقتصاد إلى قانون إلى تاريخ. إلى غير ذلك من ألوان الآداب والعلوم الاجتماعية، والإنسانية. فجل هذه الدراسات كتب من زاوية النظر الغربية، وتحت سلطان المبادئ الغربية، والقيم الغربية. والفكر الغربى، بمدارسه ومشاربه المتنوعة.

ومثل هؤلاء العاملون فى ميادين الفن والصحافة والإعلام، فهم يسيرون فى نفس الخط، خط الفكر الغربى، وإن كان بعضهم لم يجهروا بذلك أو يتخذوا «لافتة» مصرحة بهذا العنوان.

● **المحرفون للكلم عن مواضعه:**

وأشد هؤلاء العبيد سخفا: هم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا المفاهيم الغربية والقيم الغربية، مستترة تحت أسماء إسلامية، وعناوين إسلامية، محاولين أن يتخذوا لهذه الأفكار الدخيلة سندا من دين المسلمين وتراثهم وتاريخهم، محرفين للكلم عن مواضعه، مبدلين لآيات الله وأحاديث رسوله، وأقوال أئمة المسلمين، على طريقة اليهود الذين فضحهم القرآن بقوله ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٨].

هؤلاء العبيد المحرفون إذا واجهتهم النصوص المحكمة من الدين والوقائع الثابتة من تاريخ المسلمين، سلكوا إلى غاياتهم دروبا ملتوية، وسراديب مظلمة، وأعرضوا عن محكمات الدين والتاريخ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

تجد هذا فى مثل قول بعضهم:

«الدين يتفاعل مع الحياة والعلم، ولقد وجدنا كيف أنه كان فى العام الواحد وأحيانا فى اليوم الواحد - ينسخ حكما بحكم، ويقيم مبدأ مكان آخر،

متبعا في هذا قانون التطور، وهو التغيير والانتقال من صالح إلى أصلح: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦].

والكاتب يريد هنا للدين – المتفاعل مع الحياة والعلم – أن يكون خادما للماركسية التى تقول بمبدأ (النقيض) – كما يقول أستاذنا الدكتور محمد البهى – وهو مبدأ يقضى بضرورة الانتقال والتغير فى الوجود كله، كما يقضى بأن الحالة الجديدة دائما أفضل وأصلح من الحالة القديمة للشئ.

ويريد الكاتب أن يتخذ من مبدأ (النسخ) الذى وقع فى أول الإسلام فى بعض الأحكام وقبل أن تستقر الشريعة، سندا لمبدأ (النقيض) الماركسى، كما يريد أن يلوى زمام الآية الكريمة ويقهرها على خدمة المبدأ الماركسى، مع أن قوله تعالى: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ لا يحتم أن تكون الآية الأخرى أفضل وأصلح من الأولى على الإطلاق، وبذلك لا تنسجم مع المبدأ الماركسى، على فرض أنه يقصد منها ما أراده الكاتب [(١)].

ونجد هذا اللون فى كتاب «الإسلام وأصول الحكم [(٢)]» الذى جاء صاحبه بفكرة غريبة عن الإسلام وتاريخه وأهله، فكرة هدم الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، تلك الفكرة التى استقاها من المستشرقين، وتسولها من التفكير الغربى المسيحى القائم، على شطر الإنسان نصفين: جسم وروح، وعلى قسمة الحياة قسمين: قسم لقيصر وقسم لله.

هذا مع أن الإسلام فى شريعته وفى تاريخه كله لم يعرف هذه التجزئة أو القسمة أو المثنوية، لا فى الإنسان ولا فى الحياة، ولم يقر يوما هذا الفصام النكد.

---

(١) انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ٣٧١.

(٢) مؤلفه على عبد الرازق، قاض شرعى من علماء الأزهر ومن أسرة عبد الرازق المشهورة بمصر، وقد أثار الكتاب غضب المسلمين عامة وعلماء الأزهر خاصة، وقد حوكم المؤلف أمام هيئة كبار العلماء فأصدرت حكمها بالإجماع فى ٢٢ محرم عام ١٣٤٤ الموافق ١٢/٨/١٩٢٥ وهو يقضى بإخراجه من زمرة العلماء، وذلك يوم كان الأزهر أزهرا، وكان العلماء علماء.

الإنسـان فى الإسـلام كـمـا هو فى الواقع – الذى يؤيده العلم الحـديث – وحـدة واحـدة غير مجزأة، ولا مشطورة، ولا انفصال بين جسمه، وروحه، فلا معنى لأن يكون هناك جهتان متقابلتان: إحداهما لرعاية جسمه والأخرى لرعاية روحه.

والحياة فى الإسلام – كما هى فى الواقع – وحدة لا تنفصم، يرتبط بعضها ببعض، ويؤثر بعضها فى بعض، فلا مبرر لأن تتوزع شؤون الحياة بين سلطتين مختلفتين: إحداهما توجه الحياة إلى الله، والأخرى إلى قيصر، أى إلى الطاغوت أو الهوى.

إنما الواجب أن توجه الإنسان والحياة سلطة واحدة، وقيادة واحدة، سلطة توجه الإنسان كله، وتوجه الحياة كلها.

والعجب أن نجد المؤلف المستغرب يريد أن يستدل على دعواه المستوردة الدخيلة بمثل هذا الكلام: «القرآن صريح فى أن محمدا ﷺ لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل، ثم هو بعد ذلك صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من عمله شئ غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس وأنه لم يكلف شيئا غير ذلك البلاغ ... ص ٣٧ ثم يقول بلهجة الصوفى الزاهد:

« والدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات، أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات، وعلمنا من أسماء ومسميات، هى أهون عند الله من أن يبعث لها رسولا، وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بها وينصبوا لها» ص ٧٨.

فيا عجبا! كأن الله لم ينزل فى كتابه أطول آية منه لتنظيم شأن واحد من شؤون هذه الدنيا الحقيرة فى نظر الكاتب، وهو كتابة الدَّين وتوثيقه، وهى آية المداينة الشهيرة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ... الآية ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أو كأن الله لم يقل:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨] و﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة: ٢١٦] كما قال ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

لماذا شرع الله «الزكاة» مثلا وفصل أحكامها وهى من شؤون الدنيا، كما شرع وفصل أحكام الصلاة، وهى من شؤون الدين؟

لماذا فصل الله أحكام المواريث وغيرها وختمها بقوله: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة النساء: الآية الأخيرة.

ولماذا يذكر القرآن مثل هذا التذييل كثيرا: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ [البقرة: ٢١٩] و ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١]؟ لماذا علمنا وبين لنا سبحانه، ولم يدعنا لما ركب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات؟ والعجيب هنا أنه جعل العواطف والشهوات تهدى كما تهدى العقول!!

وإذا كان ما ركب فى الناس من عقول كافيا فى تدبير أمر الحياة على ما يحبه الله، فلماذا لم يتركهم لعقولهم؟ ولماذا أرسل الرسل وأنزل الكتب؟ ولم كل هذا الاهتمام بالإنسان، وهو شئ صغير من مخلوقات هذه الدنيا الحقيرة؟

لماذا قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ... ﴾ [الحديد: ٢٥] مما دلنا على حاجة الناس إلى ما أنزل الله تعالى، ليهتدوا به فى إقامة القسط بين الناس.

ولماذا قال سبحانه لرسوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] لماذا أنزل كتابه بهذا الوصف: ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ولم يدعهم لعقولهم تدبر أمرهم وحدها.

هذا هو منطق هؤلاء النفر، الذين يريدوننا أن نطرح شريعتنا، وننكر تاريخنا، وننسلخ من شخصيتنا، ونتنكر لحضارتنا؛ ليرضى عنا السادة الغربيون،

ويثنى على « تحررنا » المبشرون والمستشرقون، وينوه بجهودنا التقدميون الثوريون!!

وأعجب ما فى هؤلاء المستعبدين للغرب، أنهم يميلون مع الريح حيث مالت، ويدورون مع السلطة حيث دارت، فإن كانت الريح فى اتجاه « الديموقراطية » ظلوا يبدئون ويعيدون فى ديمقوقراطية الإسلام، والحديث عن سلطة الأمة، ومبدأ الشورى فى نظام الإسلام.

وإن كانت الريح فى اتجاه « الرأسمالية » ألبسوها جبة وعمامة، وركزوا حديثهم عن الحرية الاقتصادية والملكية الفردية فى الإسلام، وتفضيل بعض الناس على بعض فى الرزق، ووقفوا يتمحلون ويتأولون آيات تحريم الربا وأحاديثه، ليبرروا جور الرأسمالية وفسادها.

فإذا كسدت سوق الرأسمالية، وراجت بضاعة الاشتراكية انتقلوا، ونقلوا معهم الإسلام – المفترى عليه – بسرعة وخفة، من الرأسمالية إلى الاشتراكية، ومن اليمين إلى اليسار، وفرخوا فتاوى جديدة، ليسوغوا بها مصادرة الأموال وتحريم الحلال، وتحليل الحرام.

وهكذا يريد هؤلاء أن يجعلوا الإسلام – حيث جعلوا أنفسهم – عبدا خادما للسلطة والقوة، وتابعا يسير فى ركاب الدولة الغالبة، مهمته أن يبارك ما تصنع، ويؤيد ما تتخذ من خطوات.

والإسلام شأنه أن يقود لا أن يقاد، وأن يسود لا أن يساد، لأنه كلمة الله، وكلمة الله هى العليا أبدا.

● **ببغاوات تدعى الثقافة:**

والعجيب أن عبيد الفكر الغربى يدعون سعة الثقافة وغزارة المعرفة، ورحابة الأفق، ويسميهم الناس – ويسمون أنفسهم – « مثقفين » وربما أضيف إلى بعضهم لقب آخر، فسموا « مثقفين ثوريين » وهم مع هذا لا يعرفون شيئا صحيحا عن الدين الذى ينتسبون إليه أو – على الأقل – تنتسب إليه شعوبهم، وعاش به

ومات عليه آباؤهم وأجدادهم. ولا أدرى كيف يعد المرء «مثقفا» وهو أجهل الناس بدين قومه وحضارة أمته، وتراثها الفكرى والروحى الذى يعطيها مشخصاتها ومقومات وجودها؟.

وكل ما يعلمه هؤلاء «المثقفون» عن الإسلام وحضارته، أشياء تافهة أو مشوهة أو محرفة، لقنها لهم سادتهم وأساتذتهم المستشرقون والمبشرون بالنصرانية أو الماركسية، فآمنوا بها قضايا مسلّمة لا تقبل الريب أو الجدل، فهم فى الحقيقة ببغاوات لا تجيد غير الترديد والمحاكاة لما تلقنه من أقوال وأفكار، غير أنها – والحق يقال – تفوق الببغاوات بقدرتها على ترجمة تلك الأقوال والأفكار من لغتها الأجنبية إلى لغتها القومية، وبالجرأة فى تبنى تلك الأفكار الدخيلة، وإنكار نسبها إلى آبائها الأصليين!

● **ما فكرة هؤلاء عن الدين؟**

إن الدين عندهم عدو للحياة والتقدم، عدو للعلم والفكر، عدو للحرية وللطبيعة، عدو للإنسان وسعادة الإنسان.

والدولة عندهم يجب أن تنفصل عن الدين، حتى لا يعوق سيرها، ويعرقل تقدمها، ويفسد خططها برجال كهنوته.

فيا عجبا .. عن أى دين هؤلاء يتكلمون؟ إنهم قرأوا وسمعوا هذه العبارات عن الدين هناك – فى الغرب – فرجعوا يرددونها بعينها «هنا» فى الشرق المسلم، والدين هنا غير الدين هناك، وتاريخ الدين ورجاله هنا غير تاريخه ورجاله هناك، بل الإله الذى نؤمن به هنا غير الإله الذى كفر به القوم هناك.

فإذا قلنا لهم: يا قوم، إن الإسلام غير المسيحية، والمسجد غير الكنيسة، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت، والقرآن غير الكتاب المقدس، فغروا أفواههم دهشا، أو لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون!

● **نموذج مجسد لهذه الصفات:**

لنستمع إلى أحد هؤلاء، يقول محرضا على عقيدة الإسلام، وفكرة الإسلام

.. إنه يقرر فى جرأة متحدية لعقائد الأمة ومشاعرها، استنادا إلى قوة الغرب الذى صنعه على عينه هناك، وبعثه لتخريب أوطانه هنا [1].

«إنه منذ مائتى عام أدرك الثوريون فى الغرب أن الثورة تعنى تحرير المجتمع من الدين، ولكن الفكر العربى الثورى لا يزال يتجاهل هذا الواقع تجاهلا تاما!.

«فى بداية العهد الثورى الجديد - بداية الثورة الفرنسية - حدد «بريسو» هذا الطابع الثورى العام، عندما وقف فى الجمعية العامة، وأعلن: إن عدونا الأول ليس الأرستقراطية، وليس الملك، وليس الكنيسة. بل هو - أولا - الدين الذى يقف وراء الملك والأرستقراطية، وفى اجتماع شعبى عام أثناء تلك الثورة أخذ «شاليه» الصليب وداسه فى الأرض، وصرخ فى الجماهير: «إن الاستبداد بالجسد قد تكسر، والآن يجب أن نحطم الاستبداد بالأرواح» [2].

ألست تعجب معى أيها القارئ الحر من هذه الحيثيات والأسباب التى يقدمها الكاتب التقدمى، لتجريد المجتمع العربى من دينه - الإسلام - والحكم عليه بالإعدام؟!

إن هذا الكاتب الثورى يطالبنا أن نطرد كل أثر للدين فى حياتنا، وكل حجته: أن الثوريين فى الغرب فعلوا ذلك منذ ٢٠٠ سنة!!

وأى سلطة تستطيع أن تلزمنا بوجوب اتباع الثوريين فى الغرب، وقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا ؟!.

ثم أى منطق هذا الذى يجتر أفكار الملحدين فى القرن الثامن عشر، ويدعو

---

(١) إنه د. نديم البيطار، الذى عرف نفسه على غلاف كتابه «الفعالية الثورية فى النكبة» بأنه تلقى علومه العالية فى فرنسا والولايات المتحدة وحاز أكثر من دكتوراه فى العلوم الاجتماعية والسياسية، ثم قام بتدريس هذه العلوم خلال سنوات ست فى جامعات الولايات المتحدة، وكندا، وقد عاد إلى لبنان ليتفرغ للنتاج الفكرى و«النتاج الفكرى» معناه: تخريب مقومات الأمة العربية خدمة للصهيونية والصليبية والشيوعية الدولية.

(٢) ص ١٥٨ من كتاب «من النكسة إلى الثورة» لنديم البيطار، وهو أسوأ كتاب صدر بعد نكبة يونيو (حزيران) ٦٧ وقد رد عليه جلال كشك فى كتابه «النكسة والغزو الفكرى».

إليها ويعتبرها وحيا معصوما، وهو الذى يزعم التحرر والتقدمية، جاهلا أو متجاهلا، أن الغرب نفسه بات ينقد تلك الأفكار، ويتحرر منها؟

أجل، أصبحت الكثرة من علماء الغرب ومفكريه وزعمائه، ينادون بالعودة إلى الإيمان، ويرفضون المذهب المادى الذى لقى رواجا فى القرن الثامن عشر فى أوربا، لظروف تخص القوم هناك.

يقول أشهر العلماء بالكون وظواهره فى عصرنا «اينشتين»:

«إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى، وأنبل حافز» (١).

«إن الدين عامل من عوامل التقدم، وإنه قوة روحية خلاقة لتغيير المجتمع، وإيجاد جمعية إنسانية متآخية» (٢).

ومما نقل إلى العربية من الكتب الغربية التى تنقض المادية وتتجه إلى الدين، ثلاثة كتب قيمة:

أولها: كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» (٣)، للعلامة أ. كريسى مورسون رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك، والذى نقض فيه كتاب المادى الملحد «جوليان هكسلى»: «الإنسان يقوم وحده» أى بدون حاجة إلى إله!

وثانيها: كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» وهو مجموعة مقالات قيمة لثلاثين عالما أمريكيا فى مختلف التخصصات العلمية والإنسانية، بين كل منهم فى مقاله كيف اهتدى إلى الله عن طريق علمه.

وثالثها: كتاب «العودة إلى الإيمان» ومؤلفه الدكتور «هنرى لنك» أحد

---

(١) كتاب «مع الله فى السماء» للدكتور أحمد زكى.
(٢) كتاب «الإنسان العقائدى» للأستاذ حمدى حنبل.
(٣) ترجم إلى العربية بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

أفذاذ الطب النفسى فى أميركا. وقد طبع هناك فى مدة غير بعيدة ٤٧ (سبعا وأربعين طبعة).

لماذا إذن يبرز هؤلاء الوجه الإلحادى فى الغرب دون الوجه الآخر؟

أليس فى الغرب - إلى اليوم - (أحزاب مسيحية) تتبعها وتؤيدها جماهير غفيرة من المواطنين هناك؟ في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا وغيرها، وقد تولى بعضها الحكم أكثر من مرة؟

أليس للبابا مكان مرموق، ولكلمته أثر عميق؟ كما تجلى ذلك فى جولات البابا الحالى (يوحنا بولس الثانى).

أليس كثير من دول أوروبا ينص فى دستوره على المذهب الذى تعتنقه، فضلا عن الدين؟

أليست فرنسا حامية الكثلكة؟ وأمريكا حامية البروتستانتية؟

أليس لدول أوربا وأمريكا جيوش من المبشرين [١] يعملون باسم المسيح فى أفريقيا وآسيا، وغيرهما من قارات العالم؟

أليس هناك (مسيحية أصولية) نشطة متحمسة مساندة للصهيونية وأهدافها، نراها فى أمريكا خاصة وفى الغرب عامة؟

ثم ما قول هؤلاء فى مثل صارخ قريب يصم آذانهم؟ إنه «إسرائيل» التى هزمت جيوش مجموعة من الدول الثورية العربية المتحررة! فى أيام، بل فى ساعات، وللدين فى إسرائيل - قبل قيامها وبعد قيامها - مكان أى مكان.

ثم نعود إلى منطق الكاتب الثورى التقدمى ومغالطاته، إلام يدعو بمنطقه «العلمى»؟! اسمعوا واحكموا .

---

(١) قدرتهم أحدث الإحصاءات بنحو ٤٧٥٠٠٠٠ (أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألفا) من المبشرين والمبشرات.

يجب أن يعدم الإسلام فى الشرق، من أجل جرائم المسيحية الكاثوليكية فى الغرب.

الدين هناك وقف وراء الأرستقراطية والملوك ضد الشعوب والمظلومين، واعتبر إرادة الملك – مهما يكن ظالما – من إرادة الله، كما اعتبر معارضة الملك خطيئة ومروقامن الدين!

ولكن الدين هنا يقول: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، مجرد الركون والميل إلى الظلمة ينهى عنه كتاب الإسلام، ويجعله من موجبات العذاب! ويقول الرسول ﷺ: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (١).

«إذا رأيت أمتى تهاب،فلا تقول للظالم يا ظالم، فقد تودع منهم» (٢).

الدين عندنا يحرض الأتباع المستضعفين على التحرر من التبعية، والخضوع للسادة الكبراء، ويحملهم تبعة الخضوع الذليل فى الدنيا والآخرة ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٦ – ٦٨].

الدين عندنا يعلم المسلم أن يقول فى قنوته مناجيا ربه إذا أوتر آخر صلوات يومه، ما رواه ابن مسعود مرفوعا: «نشكرك اللهم ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك» بهذه العبارة القوية «نخلع ونترك من يفجرك»؟

لقد أعلن الثوار فى فرنسا تحطيم الاستبداد بالأرواح، كما كسروا الاستبداد بالأجسام، وثاروا على الطبقة الكهنوتية، التى كانت تحتكر الوساطة بين الله

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان عن أبى بكر، كما فى صحيح الجامع الصغير (١٩٧٣).

(٢) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى عن عبد الله بن عمرو (٤ / ٩٧).

وعباده، وتبيع الجنة والمغفرة لمن تشاء، وتحرم منها من تريد . فما ذنب دين ليس فيه كهنوت ولا سماسرة بين الله وخلقه؟ ويستطيع كل مؤمن أن يلج باب الله بغير حاجة إلى كاهن ولا حاجب ولا بواب؟ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

لقد داس الثوار (الصليب) رمز الاستبداد بالأرواح، فما ذنب دين لا صليب فيه، ولا استبداد بالأرواح؟

قال أحد الثوار هناك : «لقد بكى الشعب طويلا على إلهه، وآن له أخيرا أن يبكي على نفسه! فما ذنب دين لم يقتل إلهه، ولم يصلب، ولم يبك عليه أحد؟! كيف يراد منا أن نتخلى عن ديننا من أجل أخطاء دين آخر؟!

كان شعار الدين هناك : اعتقد وأنت أعمى! وشعار الدين عندنا : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] .

كان نداء رجال الدين عندهم: أغمض عينيك ثم اتبعنى! ويقول المحققون من علمائنا: إن إيمان المقلد غير معتبر ولا مقبول، لأن التقليد لا يخرج المؤمن من الجهل إلى العلم، إذ العلم هو معرفة الحق بدليله، حتى يكون على بصيرة من أمره، وعلى بينة من ربه .

قال الإمام ابن الجوزى [١] : «إن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفى التقليد إبطال منفعه العقل، وقبيح بمن أعطى شمعة أن يطفئها ويمشى فى الظلمة»! .

كان من أشهر الحِكَم عندهم: الجهالة أمّ التقوى! وكان من أشهر الأحاديث النبوية عندنا «طلب العلم فريضة على كل مسلم [٢] » وأجمع علماؤنا أن المراد بالمسلم هنا: الإنسان المسلم، سواء كان ذكرا أم أنثى .

---

(١) فى كتابه تلبيس إبليس .

(٢) رواه ابن ماجه وابن عبد البر والبيهقى وغيرهم عن أنس، ورمز له السيوطى فى جامعه بعلامة الصحة، كما رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد، وروى أيضا =

● المسيحية والعلم:

لقد ذكر الكاتب التقدمي نفسه في كتاب آخر له موقف المسيحية من العلم والبحث العلمي فقال:

«جمدت المسيحية النشاط العلمي وألغته في القرون الوسطى، واستمرت تعثر تقدمه، وتحول دونه، حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

«إن الكنيسة - كاثوليكية وبروتستانتية - حاربت كل علم باسم سلطة التوراة المعصومة من الخطأ، لأن العلوم تلك كانت تحمل دائما نتائج لا تنطبق مع تعاليم التوراة. فالكنيسة مثلا حاربت الطب حربا عنيفة، لأن أمراض الإنسان لا تأتيه من أسباب ترجع إلى طبيعته، بل هي من عمل الشيطان ولهذا، فإن معالجتها، من أوجستين إلى لوثر، وجب أن تعتمد على طقوس الكنيسة».

«وكانت الكيمياء أيضا عملا شيطانيا، فكان من يعمل بها أو في الطب، معرضا لتهمة السحر».

بيَّن «اندروهوايت» في دراسته الكلاسيكية في تاريخ الصراع بين العلم واللاهوت في المسيحية: أن رجال الدين حاربوا كل خطوة تقدمية في العلم والبحث العلمي أثناء التسعة عشر قرنا الماضية».

«كانت الكنيسة في كثير من الأحيان - وخصوصا في القرن الرابع عشر تأمر بحرق كل ما كتب في اللغات المحلية باعتبارها خارجة عن الدين. لم يقتصر الحرق على الكتب، فمن حرق «هوس» ورفاقه إلى حرق (برونو) جعلت الكنيسة - حسب قول جورج - النيران تأكل زهرة علماء المسيحية» (١).

هذا هو موقف المسيحية الغربية من العلم والعلماء، من الطب والكيمياء،

= من حديث ابن عباس وابن عمر وعلي وابنه الحسين، رضي الله عنهم. وصححه الألباني في تخريج أحاديث كتابنا (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام).

(١) عن كتاب «الأيديولوجية الانقلابية» لنديم البيطار ص ٤٩٣، ٤٩٤.

وغيرها من العلوم التجريبية، كما ذكره الكاتب التقدمى نفسه، وكما أثبته غيره من المؤلفين فى الشرق والغرب. فأين هذا من موقف الإسلام؟!

● موقف الإسلام من العلم:

لقد اعتبر رسول الإسلام التجربة هى الفيصل فى الأمور الدنيوية الفنية، كالزراعة والصناعة والطب ونحوها. وجاء فى ذلك حديثه المشهور: «أنتم أعلم بأمر دنياكم [1]» وذلك بعد أن أبدى لأصحابه رأيا خاصا فى تلقيح النخيل، فسارعوا إلى تنفيذه يحسبونه جزءا من الدين، فكانت النتيجة على غير ما يحبون، فقال لهم: «إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن أنتم أعلم بأمر دنياكم».

وفى الطب نجد أنه - ﷺ - تداوى، وأمر بالتداوى [2] وأرسل طبيبا إلى أبى بن كعب [3] يقطع له عرقا وكواه عليه، أى أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتى الحارث بن كلدة، الطبيب العربى المشهور من ثقيف [4].

وأصيب أحد أصحابه بجرح، فاحتقن الدم، فدعا رجلين من بنى أنمار، فنظرا إليه، فسألهما رسول الله ﷺ: «أيكما أطب؟ فقال: أو فى الطب خير يا رسول الله؟ فقال: أنزل الدواء الذى أنزل الداء» [5].

قال ابن القيم: فى هذا الحديث أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب» [6].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه من حديث عائشة وطلحة.

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ج٤ ص١٠ طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق شعيب الأرناؤوط.

(٣) رواه مسلم من حديث جابر برقم (٢٢٠٧).

(٤) رواه أبو داود فى الطب (٣٨٧٥) عن سعد، قال: مرضت مرضا أتانى رسول الله ﷺ يعودنى، فوضع يده بين ثديىَّ، حتى وجدت بردها على فؤادى، فقال: «إنك رجل مفؤود (أى مصاب فى فؤادك، ولعله مصدور، كنى بالفؤاد عن الصدر) إئت الحارث بن كلدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبب».

(٥) رواه مالك فى موطئه عن زيد بن أسلم، وهو مرسل. (٦) زاد المعاد ج٤ ص١٣٢.

وكانت الفكرة السائدة عند الناس حينئذ أن العلاج وطلب التداوى، وتعاطى الطب ينافى التدين أو التوكل أو الإيمان بالقدر. كما يبدو ذلك من جملة روايات وأحاديث.

فقد روى أنه ﷺ - دخل على مريض يعوده، فقال: «أرسلوا إلى طبيب»، فقال قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. إن الله لم ينزل من داء إلا أنزل له شفاء» (١).

وفى هذا المعنى جاءت عدة أحاديث صحيحة، كقوله - فيما رواه مسلم: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله عز وجل» (٢).

وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «نعم، يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم (٣)» أى الشيخوخة. وفى حديث آخر: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله» (٤).

ولما سأله بعضهم: هل ترد الأدوية قدر الله؟ أجابه أبلغ جواب وأروعه وأحسمه فقال: «هى من قدر الله (٥)» أى أن الأسباب من قدر الله وكما أن المسببات كذلك.

وبهذا الجواب حل العقدة التى تعرض لكثير من المتدينين من قديم، حيث يظنون أن فى التداوى منافاة للإيمان بقدر الله.

وأبطل اللجوء إلى السحر والسحرة والدجالين، واستعمال التمائم ونحوها، وجعل ذلك من أنواع الشرك، كما حذر من أدعياء الطب الذين يدعون المهنة،

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٣٣. (٢) رواه مسلم عن جابر برقم (٢٢٠٤).

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك، كما في صحيح الجامع الصغير رقم (٢٩٣٠).

(٤) رواه الحاكم عن أبى سعيد، المصدر السابق (١٨٠٩).

(٥) رواه أحمد والترمذى من حديث أبى خزامة أو ابنه.

وليسوا من أهلها، وحملهم تبعة خطئهم فى التشخيص والعلاج فقال: «من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن» (١).

وقد كان للطب فى الحضارة الإسلامية شأن أى شأن، فكان هناك أطباء عالميون مثل الرازى وابن سينا والزهراوى وابن رشد وابن النفيس، وكانت كتبهم الطبية مراجع للعالم لعدة قرون، مثل القانون لابن سينا، والحاوى للرازى، والكليات لابن رشد.

والعجيب أن نجد فى هؤلاء من جمع بين الإمامة فى الدين والإمامة فى الطب مثل ابن رشد، والفخر الرازى، وابن النفيس.

هذا بالنسبة للطب. أما بالنسبة لسائر العلوم فقد طلب المسلمون العلم فى كل صقع من الأرض، واشتهر فيهم القول «اطلبوا العلم ولو بالصين» حتى جعله بعضهم حديثا (٢)، وانتفعوا بالتراث العلمى للأمم السابقة، وإن حكموا عليها بانحراف العقيدة، وضلالة الديانة، عملا بما روى عن رسولهم: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها» (٣). بل علمهم أن الحكمة يمكن أن تؤخذ من الشيطان نفسه، كما فى حديث النبى لأبى هريرة «صدقك وهو كذوب» (٤).

فسح الإسلام صدره للحكماء والمفكرين من كل جنس، وفتح ذراعيه للعلماء والمجربين من كل ملة، لهذا اشتهر فى تاريخ المسلمين عدد غير قليل من الأطباء والتجريبيين من اليهود والنصارى كانت لهم حظوة عند الخلفاء ورجال الدولة (٥).

---

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمر، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٦١٥٣).

(٢) رواه ابن عبد البر فى كتاب «العلم» والصواب أنه ليس بحديث.

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه. وهو ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه. وانظر: كتابنا (ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق).

(٥) اقرأ فى ذلك «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة» للشيخ محمد عبده.

ولم يعرف تاريخ الإسلام صراعا بين العلم والدين، أو بين الشريعة والحكمة، أو بين العقل والنقل. بل أكد علماؤه: أن النقل الصحيح لا يمكن أن يخالف العقل الصريح، وأن العلم الحق لا ينافي الدين الحق ولا يمكن أن يتناقضا إلا إذا كان ما ظنه الناس دينا ليس من الدين الصحيح، أو ما ظنوه علما ليس من العلم الصريح [١].

ومن هنا كانت حضارة الإسلام هى الحضارة الوحيدة التى جمعت بين العلم والإيمان، ولم تجد أى حرج فى الجمع بين نظرات العقل، وإشراقات القلب.

وهذا ما شهد به كثير من مؤرخى الغرب ومفكريه المنصفين.

يقول المستشرقان: بترانت وتومس فى كتابهما (العرب):

« إن الإسلام لم ينابذ التقدم، بل سار جنبا إلى جنب مع العلم، وإن تقدم حضارته يرجع إلى ملازمته للعلم » [٢].

وينقل توماس أرنولد فى كتابه: « الدعوة إلى الإسلام » عن البروفسور مونتيه قائلا:

« الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلى بأنه طريقة تفهم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق – ينطبق على الإسلام تمام الانطباق. والحق أن محمدا الذى كان متحمسا لدينه، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ونار الاقتناع – تلك الصفة التى بثها فى كثير من أتباعه – قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحى وإلهام. على أن هذا النوع من الوحى ليس إلا صورة من العرض والتفسير، وإن لدينه كل العلاقات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل .. وإن بساطة هذه التعاليم

---

(١) ألف فى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه « درء تعارض العقل والنقل » الذى نشر قديما بعنوان « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ».

(٢) انظر كتاب « الإنسان العقائدى » ص ١٨٨ للأستاذ حمدى حنبلى.

ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام».

ونحن نرفض - قطعا - كلام مونتيه عن الوحى المحمدى، ولسنا فى مجال مناقشته هنا، ولكن الذى يهمنا الاستشهاد به فى هذا الموطن هو اعترافه الجازم بأن دين الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة. وإنه مجموعة عقائد قامت على أساس المنطق والعقل، مما يرد بوضوح على أولئك الذين يحسبون الإسلام مسيحية أخرى، قامت على أساس التقليد ورفض العقل والتفكير.

وقد كتب كثير من الغربيين بحوثا ضافية، وألفوا كتبا كاملة، فى مكانة العلم والعلماء، فى الحضارة الإسلامية، وعن تأثير ذلك فى نهضة الغرب وحضارته، ولعل أقرب ما طالعناه فى هذا الشأن، كتاب المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكه» التى سمته «شمس الله تسطع على الغرب» وعرب تحت عنوان «شمس العرب تسطع على الغرب».

فإن كان هؤلاء التقدميون لا يقنعهم إلا ما جاء عن الغرب، فهذه شهادة الغربيين!

هذا وقد كتبنا فى هذا المجال عدة كتب: الرسول والعلم، والعقل والعلم فى القرآن .. السنة مصدرا للمعرفة والحضارة ... الدين فى عصر العلم .. فليرجع إليها من شاء ..

● المسيحية والحياة:

ولقد ذكر هذا التقدمى سر موقف الثوريين والانقلابيين فى الغرب ضد الدين منذ الثورة الفرنسية بهذه العبارات:

«فإن المجتمع يحتاج إلى حيوية ونشاط وفضائل اجتماعية، ولكن الدين يبشر - على نقيض ذلك - بتقشف كبير، وبحياة أخرى تلغى أهمية أو قيمة هذه الحياة. جميع تعاليمه تتناقض مع تعاليم العقل والعلم، وتفرض على

الإنسان أن يعمل في سبيل نجاة روحه فى الدنيا والآخرة. وبذلك تنقض فروض طبيعته، الإنسانية التى تلزمه بالحياة الأرضية.

«وهو يقف بأخلاقيته مؤيدا للمصالح الاستبدادية الأنانية التى تضر بمصلحة المجتمع كله، أكد الفلاسفة جميعهم تقريبا - وفى طليعتهم هو بساخ، وفولتير، ومورلى زمابلى، وروسو وكوند ورسه، وديدرو - على هذه الناحية، وبعضهم - كفولتير - تكلم فى الواقع عن مؤامرة ضد المجتمع استخدمت الدين كى تحقق أغراضها.

كان الدين، مؤامرة جافة صفيقة، لدرجة يصعب عندها إدراك ظهوره أو استمراره فى التاريخ، يعيش أشد أنواع الاستبداد، استبداد الكهنة والملوك»[1].

هذا الكلام - على ما فيه من غلو وتحامل ضد المسيحية نفسها - هو أبعد ما يكون عن الانطباق على حقيقة الإسلام وتاريخه.

● الإسلام والحياة:

لم يدع الإسلام إلى التقشف والإعراض عن الطيبات، ولم يلغ أهمية الحياة أو قيمتها، بل أنكر بشدة على الذين يحرمون زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وقاوم بقوة نزعة بعض المسلمين إلى التشدد والتقشف اقتداء برهبان النصارى ومن علي شاكلتهم ، وأنزل في ذلك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا** ﴾ [المائدة: ٨٧ - ٨٨].

كما أنكر الرسول ﷺ على الذين اعتزلوا الحياة صائمين قائمين مترهبين،

---

(١) الأيديولوجية الانقلابية لنديم البيطار ص ٧٣٧.

قائلا «إنما أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، وأنا أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» [1].

وكان الرسول ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، مثلا حية للجمع بين العمل الدائب للدنيا والإقبال الكامل على الآخرة. فلم تلههم دنياهم عن آخرتهم، ولم تعقهم آخرتهم عن عمارة دنياهم. حتى جاء حديث الرسول «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها [2].!!

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، ولن ينتفع بها أحد، لا هو ولا غيره، إنه تعبد بالعمل، وتكريم للعمل ذاته، ليظل المسلم منتجا معطاء، حتى آخر رمق فى الحياة.

وليس فى تعاليم الإسلام حكم واحد يناقض العقل والعلم، كما بينا، فضلا عن أن تكون جميع تعاليمه كذلك. وإذا كان يفرض على الإنسان العمل لنجاة روحه، فهو لم يغفل دعوته إلى العمل لصحة بدنه وقوته، وسعادة دنياه، فأعلن رسوله «إن لبدنك عليك حقا» [3] وكان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام ما جاء فى القرآن: ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [البقرة: ٢٠١].

إن الإسلام لم يعاد الحياة المادية، ولم يلغ قيمة الحياة الأرضية، كما فعلت أديان أخرى. وكيف يعادى الحياة دين يبيح المحظورات عند تحقق الضرورات، ويسقط الفرائض أو يخففها عند وجود الأعذار المادية من المرض والسفر والمشقة ونحوها؟،

هل يوصف بإلغاء الحياة الأرضية دين كان أبرز الصفات التى وصف بها

---

(١) الحديث متفق عليه عن أنس.

(٢) رواه أحمد فى المسند، والبخارى فى الأدب المفرد عن أنس.

(٣) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو.

نبيه عند أهل الكتاب أنه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هل يوصف بإلغاء الحياة دين يأمر بإعداد أقصى المستطاع من القوة، وأخذ الحذر والاحتياط واتخاذ الأسباب، ورعاية السنن الكونية، وتجنب ما يؤدى إلى الضرر والهلاك؟ فتقرأ فى كتابه مثل هذه الآيات: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١] ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥].

هل يوصف بإلغاء الحياة دين يقول نبيه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» (١) «إن الله جميل يحب الجمال» (٢) «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» (٣)؟؟

هل يوصف بإلغاء الحياة دين قامت شريعته على درء المفاسد عن البشر، وتحقيق المصالح لهم. سواء كانت تلك المفاسد مادية أم معنوية، واقعة على الفرد أم على الجماعة. وسواء كانت هذه المصالح البشرية، حاضرة أم مستقبلة، وسواء أيضا أكانت من الضروريات أم من الحاجيات أم من التحسينات والكماليات.

والضروريات هى الكليات الخمس التى لا تقوم الحياة إلا بها، وهى – كما

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى عن عمرو بن العاص، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٢، ٣٥٣): رجالهما رجال الصحيح، كما رواه ابن حبان والحاكم وصححاه.

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود.

(٣) رواه الترمذى والحاكم عن عبد الله بن عمرو، ورمز له السيوطى بعلامة الحسن. وهو كذلك فى صحيح الجامع الصغير (١٨٨٧).

ذكر أئمة الأصول – حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل. وأضاف بعضهم إليها: العرض.

وهذه الضروريات الخمس أو الست هى مناط الحقوق الرئيسية للإنسان، فحفظ الدين معناه: حفظ العقيدة والعبادة والقيم الأخلاقية، وحق الإنسان فى الإيمان والتدين، وعدم إكراهه على دين لا يختاره طائعا. وحفظ النفس معناه: حفظ حق الحياة للإنسان وحقه فى صحة بدنه، وفى تغذيته إذا جاع، وعلاجه إذا مرض، وراحته إذا تعب، والقصاص إذا اعتدى عليه. وحفظ العقل معناه: حماية حق التعلم والثقافة وحرية الفكر والنظر. وحفظ المال معناه: حماية حق الملكية المشروعة من كل عدوان بالباطل. وحفظ النسل معناه: حماية الأمومة والطفولة والأسرة التى هى نواة المجتمع وأساس بنيانه. وحفظ العرض معناه: حماية حق الكرامة والسمعة.

والإسلام لا يقف – ولم يقف – بأخلاقيته مؤيدا للمصالح الاستبدادية الأنانية. إنه يربى أبناءه على مناوءة الاستبداد والانحراف والفساد، بالقوة المادية إن استطاعوا، وإلا فالبرأى والكلمة، ويعد ذلك من أفضل الجهاد: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» [1] «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» [2].

فلم يقصر الجهاد على محاربة الغزو الخارجى، بل جعل أفضله مقاومة الفساد الداخلى، فإنه أشد ضررا على الأمة من غزو العدو الخارجى، وهو الذى يمهد له، ويجعلها فريسة سهلة المنال لأعدائها المتربصين بها.

فلا عجب أن كان الطابع العام لموقف علماء الإسلام طوال تاريخه هو الوقوف فى وجه الظلمة المستبدين المترفين من الملوك والحكام. ومنهم من عانى

(١) رواه أحمد وابن ماجه والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن أبى أمامة، وأحمد والنسائى فى الشعب والبيهقى عن طارق بن شهاب، وابن ماجه عن أبى سعيد، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (١١٠٠).

(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٣٦٧٥).

فى سبيل ذلك السجن والاضطهاد، ومنهم من حمل السلاح، مقاتلا للطغاة والمستكبرين.

أما استبداد الكهان فلم يعرفه تاريخ الإسلام، لأن هذه الطبقة لم توجد فيه أصلا، فإذا كان الثوريون فى الغرب منذ الثورة الفرنسية وقفوا ضد الدين هناك – لأنه يدعو إلى تقشف كبير، ولأنه يلغى أهمية هذه الحياة، ولأن تعاليمه الكنسية تناقض العلم والعقل كما تناقض الطبيعة الإنسانية، ولأنه يقف بأخلاقيته مؤيدا للمصالح الاستبدادية: استبداد الملوك واستبداد الكهان – فما حجة الثوريين فى أوطاننا لكى يقفوا ضد دين يحترم الحياة، ويعترف بفطرة الإنسان، ويهتم بالدنيا، ويدعو إلى العقل والعلم، ويحث على الغنى والقوة، ويجعل مقاومة الظلم والاستبداد من أجلّ أنواع العبادة والجهاد؟

إننا ندعو هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم الثقافة الواسعة أن يقرأوا ما كتبته الأقلام المؤمنة الواعية الأصيلة المعاصرة عن الإسلام، عقيدة وشريعة وفكرا وأخلاقا حضارة متكاملة؛ من عصر الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا إلى اليوم.

أجل نحن ندعو هؤلاء أن يدرسوا الإسلام، حتى لا يتهوروا فى الحكم عليه بأحكام خاطئة جاهلة، لا تمت إلى حقيقته بنسب ولا سبب، كهذا الذى قال فى غرور وادعاء، طاعنا فى نظام الإسلام: «الاشتراكية نظام لا يقوم على الإحسان والزكاة، بل يقوم نفسه نتيجة حتمية لطبيعة المجتمع الحديث، وطبيعة القوانين التى تسود تحولاته» (١).

وبغض النظر عن «الكليشهات» الماركسية، عن الحتمية والمجتمع الحديث وتحولاته – هل نجد فى هذه العبارة أى فهم لنظام الإسلام وموضع الزكاة منه؟ لا، ثم لا.

ومنذ سنوات كتب كاتب اشتراكى تقدمى آخر: إن الزكاة لا تصلح فى مجتمع عصرى يقوم على العمل والإنتاج، لا على الصدقات».

---

(١) عن كتاب «من النكسة إلى الثورة».

هؤلاء الكتاب لقنوا أن الزكاة الإسلامية ضرب من الصدقات الاختيارية، والإحسان الفردى، فراحوا يرددون ما قيل لهم، دون أن يجشموا أنفسهم قراءة كتاب واحد فى الموضوع.

ولست فى مقام الرد علي هؤلاء وبيان حقيقة الزكاة، فلهذا مجال آخر[١]، ولكنى أكتفى هنا بنقل نص واحد من أحد كتبنا الفقهية القديمة الشهيرة، نستبين منه طبيعة الزكاة فى الإسلام، وهذا الكتاب هو «المهذب» للشيرازى وشرحه «المجموع» للنووى.

يقول الكتاب: «ومن وجبت عليه الزكاة وقدر على إخراجها لم يجز له تأخيرها، لأنه حق يجب صرفه إلى الآدمى، توجهت المطالبة بالدفع إليه، فلم يجز له التأخير، كالوديعة إذا طالب بها صاحبها.. فإن أخرها وهو قادر على أدائها ضمنها، لأنه أخر ما يجب عليه مع إمكان الأداء، فضمنه كالوديعة. ومن وجبت عليه الزكاة وامتنع من أدائها نظر: فإن كان جاحدا لوجوبها فقد كفر، وقتل بكفره كما يقتل المرتد، لأن وجوب الزكاة معلوم من دين الله تعالى ضرورة، فمن جحد وجوبها، فقد كذب الله وكذب رسوله ﷺ فحكم بكفره.. وإن منعها بخلا بها أخذت منه وعزر (أى أخذتها السلطة الشرعية منه بالقوة وعوقب عقوبة تأديبية تقدرها العدالة) وقال (الشافعى) فى القديم: تؤخذ منه الزكاة وشطر ماله (أى نصفه) لما روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله، عزمة من عزمات ربنا، ليس لآل محمد منها شئ»[٢].. وإن امتنع بمنعة قاتله الإمام، لأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قاتل مانعى الزكاة»[٣] انتهى.

---

(١) راجع كتابنا «فقه الزكاة» فمن لم يستطع، يكفيه أن يقرأ ما كتبناه عن الزكاة في كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام».

(٢) الحديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي كما رواه الحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وقد دافع عنه ابن القيم في (تهذيب السنن ٢/١٩٤) دفاعا قويا. انظر: كتابنا (فقه الزكاة) ج ٢ ص ٨٢٦ – ٨٢٨ وما بعدها. الطبعة الحادية والعشرين – نشر مكتبة وهبة.

(٣) المجموع ج٥ ص ٣٣١، ٣٣٢.

إنى أخشى أن أعلق على هذا النص المشرق، فأنقص من قوة دلالته وإيحائه. ولكنى أسأل فقط: أهذا صدقة إحسان، تلك التى تطالب بها الدولة، وتحكم بالردة على من أنكرها وجحدها، وتأخذها بالقوة ممن منعها، وتفرض عليه عقوبة قد تصل إلى مصادرة نصف ماله لخزانة الدولة، وتتدخل الدولة بقواتها المسلحة لقتال من منع هذه الفريضة وكان له شوكة ،ومنعة، اقتداء بما صنعه أبو بكر رضى الله عنه فى حرب مانعى الزكاة - حين قال كلمته المشهورة «لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه» وسانده فى ذلك الصحابة الكرام.

● موقفنا من عبيد الفكر الغربى:

هؤلاء هم عبيد الفكر الغربى، وهذا هو اتجاههم، وهذا هو موقفهم من الدعوة إلى الحل الإسلامى، أى إلى استئناف حياة إسلامية صحيحة يقوم فيها مجتمع إسلامى صحيح بكل مقوماته، وكل خصائصه، يقوده حكم إسلامى قوى أمين.

فما موقفنا - نحن رجال الفكر الإسلامى - من هؤلاء؟

إن الذى يحدد موقفنا من هؤلاء هو معرفة حقيقة مواقفهم وأفكارهم، وما وراء الأفكار من بواعث ونوايا وأهداف، فلا ريب أنهم جد متفاوتين من هذه الناحية وتلك.

● العمـــــلاء:

فبعض هؤلاء حاقدون على الإسلام؛ دينه وكتابه وتاريخه وأمته، يحملون فى جنوبهم روحا صليبية، غذاها تعصب أعمى، وغل دفين وسياسات ماكرة، وإن تستروا تحت أقنعة وعناوين أخرى.

وهؤلاء لا حيلة فيهم إلا أن يشفى الله صدورهم، ويزيح الغشاوة عن أعينهم فيتبينوا فضل الإسلام، وسماحة الإسلام، وكرم أخلاق المسلمين، وإلا فالأمر كما قال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إماطتها   إلا عداوة من عاداك من حسد

وذلك لأن الحاسد لا يرضيه إلا زوال نعمتك، ومن حسدك لدينك لم يرضه إلا هدم دينك من أساسه. وقد قال الله فى شأن قوم من أمثال هؤلاء قديما: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال في موضع آخر: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

● الملحدون:

وبعض هؤلاء ملحدون فى حاجة إلى أن يؤمنوا بالله ورسالاته قبل كل شئ، أى قبل أن نجادلهم فى شريعة الإسلام، ونظام الإسلام، وحضارة الإسلام. فإن الخلاف إذا كان فى الأساس والأصول لا يعالج بالنقاش فى الجزئيات والفروع.

ربما يجدى أن نبدأ معهم من نقطة الصفر، ونعرف لماذا ألحدوا؟ لماذا كفروا بالله ورسله؟ ونفتح معهم حوارا هادئا رصينا يقوم على منطق العقل الصريح، والعلم والصحيح، والبرهان القاطع.

لعلهم يجدون فى الإسلام «إلها» غير الإله الذى كفروا به تقليدا لغيرهم وكتابا غير الكتب التى سمعوا أو قرأوا شيئا عنها، وشريعة غير التقاليد التى صبغت بصبغة الدين – زورا – فى الغرب أو الشرق.

فإذا استطعنا أن نزيل الشبهات التى علقت بأفكارهم، ونبين لهم ضرورة الإيمن بالله ووحيه ولقائه، أمكننا بعد ذلك أن نعالج الشبهات الفرعية التى تتراءى لهم فى بعض ما يقرؤون أو يسمعون عن الإسلام؛ عقيدته أو شريعته أو حضارته أو تاريخه.

● المقلدون:

وبعض هؤلاء ليسوا ملحدين من الأعماق، وإنما هم مقلدو ن للملحدين وبعبارة أخرى: هم جهلة بالإسلام فى حاجة إلى أن يتعلموا أو يستنيروا، و هذه

هى فرصة، لتعليمهم وتنويرهم. من هؤلاء من لم يعرف الإسلام قط، ولم يقرأ عنه شيئا وإنما عرفه من واقع المسلمين، وسوء أحوالهم، وهذا ليس حجة على الإسلام. ومنهم من عرفه مما كتبه الغربيون والمستشرقون عنه، وهى كتابة ينقصها التجرد والإنصاف، أو يشوبها الجهل بروح الإسلام، ولغته وبيئته. وهذه المعرفة يعتبر الجهل خيرا منها.

إن علينا هنا أن نعرف ما عند هؤلاء من تساؤلات لنبحث عنها بما يقنع العقول ويشفى الصدور، وأن نتبع الشبهات المثارة لديهم، لنفندها بالحجج والبينات لا بالدعاوى والشعارات، ولا يتصدى لهذه المهمة إلا الراسخون فى العلم، فإن من الدعاة من إذا تصدى لذلك أفسد أكثر مما أصلح، فليس كل خطيب مفوه، أو واعظ مؤثر يصلح لمحاورة العقلانيين المعاصرين.

ولكن المشكلة أن جهل كثير من هؤلاء من النوع «المركب» جهل الذى «لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى» وهذا هو الأمر الذى عبر عنه الشاعر قديما إذ قال:

إذا كنت لا تدرى بأنك جاهل فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى؟

وبعض هؤلاء مفتونون بالقوة والغلبة والحضارة التى جعلت من الغرب سيدا للعالم، ومكنته من السيطرة على المادة، والتحكم فى قوى الطبيعة وتسخيرها لأغراض الإنسان، ومنافعه المادية الدنيوية العاجلة، فهم مولعون بهذا الغرب القوى المسيطر، وبكل ما جاء به، ولع المغلوب بتقليد الغالب، كما قرر العلامة ابن خلدون.

ولا أحسب هؤلاء يتنازلون عن هذا الولع المفتون – أو عن تلك العبودية للغرب – وحضارته ومفاهيمه وقيمه إلا إذا تبدلت موازين القوى، وكان للإسلام قوة ودولة وسيادة وسلطان.

● مع الغالب المنتصر:

ويوم تتحرك الريح فى اتجاه الإسلام، سنرى هؤلاء وقد خلعوا «البرنيطة» الغربية والفكرية، ولبسوا» «العمامة» الإسلامية، وراحوا يملأون أنهار الصحف بتمجيد الإسلام، وحكم الإسلام، وأدب الإسلام!

ومن كان فى شك مما أقول فإنى أعرض عليه مثلا واحدا يؤيد ما أقول:

كلنا يعرف دعوة الدكتور طه حسين التى ملأ بها كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» والتى اعتبر بها مصر جزءا من أوروبا لا من الشرق، وزعم فيه «أن وحدة الدين واللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية» وكان كل همه فى الكتاب أن يثبت لمصر الشخصية المصرية الأوربية لا العربية ولا الإسلامية.

وأكثر من ذلك أنه فى بعض أحاديثه الصحفية كان يقف بصراحة فى وجه الوحدة العربية، ويخطئ الذين يدعون مصر إلى أن تدخل فى هذه الوحدة القومية أو تقودها!!

فلنصغ جيدا إلى هذا الحديث، ففيه عبرة وذكرى.

التقى محرر مجلة «المكشوف» البيروتية بالدكتور طه حسين وجرى بينهما هذا الحديث:

عندنا يا أستاذ من يريد أن تكون مصر زعيمة الأقطار العربية، ومرشدها إلى طريق الحرية والاستقلال؟

فأجاب الدكتور: «إن كنت تقصد بذلك تضامنا ثقافيا بين البلاد العربية، فإن مصر مستعدة للدخول فيه، وأنا من أنصاره ودعاته.. وإن كنت تقصد التعاون الاقتصادى فهو ممكن ومفيد. أما إذا كنت ترمى إلى أن مصر مستعدة للمساهمة فى الوحدة العربية، أو القومية العربية، فأنت على خطأ، فالمصرى مصرى قبل كل شئ، وهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف. الوحدة العربية - كما يفهمها ذووها - يجب أن تتحقق بشكل أمبراطورية جامعة، أو

اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري، ونحن لا نرضى بهذا أو ذاك، ولا تصدق ما يقوله بعض المصريين بأنهم يعملون للعروبة، فالفرعونية متأصلة في نفوسهم، وستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وأن تقوى»!

ثم أخذ الدكتور طه حسين في حديثه هذا يذكر الأسس التي يمكن أن تقوم عليها الوحدة العربية ويناقشها، والروابط التي تربط بين مصر والبلاد العربية، فلا يراها كفيلة ولا كافية ولا موصلة إلى هذه الوحدة، وفي ذلك يقول: « إن تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن أي بلد آخر، ومصر اليوم هي مصر الأمس، أي مصر الفراعنة، والمصري فرعوني، قبل أن يكون عربيا».

وقال أيضا: لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها (أو فرعونيتها) وإلا كان معنى طلبكم: اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام، وانسي نفسك واتبعينا»[1]

فهل ثبت الدكتور العميد على رأيه هذا في رفض القومية العربية، والإصرار على القومية المصرية الفرعونية؟

كلنا يجيب : أن لا.

لقد قامت في مصر بعد ذلك دعوة للقومية العربية، وللوحدة العربية، تبنتها الدولة، دولة الثورة، التي تمنح الجوائز التقديرية، وتملك أن توسع على من تشاء ،وأن تضيق علي من تشاء، فهل عارض الدكتور هذه الدعوة إلى القومية العربية والوحدة العربية؟

كلا، بل سار في ركاب الدولة مؤيدا اتجاهها، إلى اليمين كان أو إلى

---

(١) نقل هذا الحديث عن مجلة المكشوف سلامة موسي في مجلته« المجلة الجديدة» عدد ديسمبر سنة ١٩٣٨ كما في كتاب (سلامة موسى) لمحمود الشرقاوي ص ١٥٢ . ورد علي طه حسين ساطع الحصري في كتابه « بين مضر والعروبة». وانظر «نقد الفكر القومي» لإلياس مرقص ص ٥٤٤ وما بعدها.

اليسار، إذا تفرعنت فهو داعية الفرعونية، وإذا تعربت فهو داعية العروبة، وطبعا، إذا أسلمت فهو شيخ الإسلام!

ربما يقول قائل: ولماذا لا نفسر هذا التغير فى الموقف السياسى، بأنه تم بناء على تغير فى الفكر، وتطور من الوطنية الإقليمية الضيقة إلى دائرة القومية الواسعة؟

ونقول : لا مانع من التسليم بهذا التفسير، وهو على كل حال تفسير ينفعنا ولا يضرنا، فإن الذى يتغير وينتقل من وطنية ضيقة إلى قومية واسعة، قابل لأن يتغير وينتقل من الدائرة القومية إلى دائرة إنسانية أرحب وأوسع، وهى دائرة الإسلام.

● **المتعالمـــون:**

ومن أشد أنواع عبيد الفكز الغربى خطرا: صنف ظهر حديثا، لا أجد وصفا يجليهم ويبرز سماتهم المشتركة إلا أنهم (المتعالمون).

هؤلاء الذين طلعوا على الناس بدين جديد غير الدين الذى عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنا من الزمان، وفهمته من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن هدى أصحابه عامة، وخلفائه الراشدين خاصة، ومن فهم سلف الأمة الذى أجمعت عليه فى خير قرونها، فجاء هؤلاء بدين غير هذا الدين، وشريعة غير هذه الشريعة،ومنهج غير هذا المنهج.

فهم يقدسون القرآن، لكنهم يقرأونه – فيما زعموا – قراءة معاصرة، قراءة جديدة لا ترجع إلى أصول الفقه، ولا أصول التفسير، ولا أصول الحديث، ولا تأخذ بما ثبت عن رسول الله ﷺ فى التفسير، لأن السنة عندهم مشكوك فيها، والبخارى ومسلم – فضلا عمن هو أدنى منهما – حاطبا ليل، جامعان للعاطل والباطل، وتفاسير الصحابة والتابعين – وإن أجمعوا عليها – لا تلزمنا، فهم رجال ونحن رجال، وإجماع أئمة الفقه من كل المذاهب، ومن كل المشارب لا يلزمنا،

فقد اجتهدوا لزمنهم، ونحن نجتهد لزمننا. وهم لا يملكون من شروط الاجتهاد كثيرا ولا قليلا، ولعل أحدهم لا يستطيع أن يقرأ آية من القرآن قرآءة صحيحة!

ولو أنك أعطيت أحدهم صفحة من كتاب تراثى فى أصول الفقه أو الفقه أو فى التفسير أو الحديث أوعلم الكلام لم يستطع أن يقيم لسانه فى قراءتها، - ناهيك أن يفهمها - لأنه لا يفرق بين فاعل ومفعول، ولا يعرف مرفوعا من منصوب.

إنهم لم يدرسوا الثقافة الإسلامية، والثقافة العربية، فى مصادرها الأصلية، ولم يستقوها من ينابيعها النقية، بل خطفوا صفحات من هنا، وصفحات من هناك وجمعوا قشورا من هنا ومن هناك، واستقرت فى عقولهم شبهات أو مفتريات من هنا، ومن هناك. ومن هذا الخليط تكونت ثقافتهم التى يباهون بها!

من هؤلاء من يعتبر القرآن نصا تاريخيا، يحكم على زمنه، ولكنه لا يحكم على زمننا.

وبعضهم يؤوله تأويلا، لا يخضع لأصول منضبطة، ولا لقواعد معلومة، أشبه بما كان يفعله الباطنية قديما بطريقة جديدة.

وبعضهم يدعى أنه فوق الأئمة المتبوعين، وفوق شيوخهم من التابعين بل فوق الصحابة أنفسهم، فهو أفهم منهم لكتاب الله، وأفقه منهم لدين الله، وهكذا يفعل الغرور والإعجاب بالنفس لأهله.

ومعنى هذا: أن من حق كل امرئ أن يجعل لنفسه دينا وفق مزاجه، وتبعا لرأيه وهواه، وأن لا يوجد للناس مرجع يعتمدون عليه، ،ويحتكمون عند الاختلاف إليه، مادام كل امرئ أصبح هو المرجع والمعتمد، وأن الدين الذي يفترض فيه أن يجمع الناس قد أصبح مفرقا لهم، وصاروا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون. لأن كل واحد اتبع سبيله الخاص، ولم يتبع (سبيل المؤمنين) فتفرقت بهم السبل، وبعدت بهم عن صراط الله كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

ومقتضى موقف هؤلاء : أن الأمة الإسلامية طوال قرونها لم تفقه دينها ولم تفهم قرآنها، ولم تعرف شريعة ربها، وأنها كانت أمة بلهاء مغفلة أجمعت على الضلالة، وزور عليها بعض الكذابين أحاديث عن نبيها فصدقتهم، ومشت وراءهم، وأن هؤلاء الجدد هم الذين جاءوا لها بطوق النجاة. رغم أنهم فيما بينهم مختلفون جد الاختلاف، وكل واحد من هؤلاء، أمثال محمد أركون فى فرنسا، ومحمد شحرور في سوريا، ونصر أبو زيد، وسعيد العشماوى فى مصر، ومحمود محمد محمد طه فى السودان، وأمثالهم من (المتنبئين) الذين يرون - فى قرارة أنفسهم - أنهم أفضل من محمد رسول الله ﷺ، وأفهم منه للدين الذى أرسله الله به، وتلقاه عنه الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان.

فمن هؤلاء من يريد (مركسة) الإسلام، ومنهم من يريد (رسملة) الإسلام ومنهم من يريد (تنصير) الإسلام. والإسلام هو الإسلام، بأصوله ومصادره وبأهدافه ومناهجه، لا يقبل تفسيرا ماركسيا، ولا رأسماليا، ولا نصرانيا. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

● **عبيد الأمس شبه معذورين:**

وأورد أن أفرق هنا بين فئتين من العبيد المفتونين بالفكر الغربى، بين عبيد الأمس وعبيد اليوم.

وأساس هذه التفرقة هو المناخ الفكرى والمرحلة الزمنية التى نبتت فيها كل فئة وترعرعت تحت ظلالها.

عبيد الأمس ربما كان لهم شبه عذر فى موقفهم من دينهم وتراثهم وحضارتهم، وهو موقف التمرد والعصيان والاستخفاف، وفى موقفهم من الفكر الغربى الدخيل، والحضارة الأجنبية الوافدة، وهو موقف الإذعان والاستسلام بل العبودية.

فقد نشأ هؤلاء والحياة مقبلة على عدوهم مدبرة عن أمتهم، والغموض والظلام يكتنف دينهم وتراثهم، وبريق الحضارة الغازية يخطف أبصارهم، وتمكن المستعمر المتسلط أن يختم على قلوبهم وأسماعهم، ويجعل على أبصارهم غشاوة، ويجعل بينهم وبين الإسلام الصحيح حجابا مستورا.

لقد نشأ هؤلاء فى ظل نظام تعليمى عرفناه من قبل، وضع بذوره الاستعمار وغذاه، فلم يعرفوا عن الإسلام إلا قشورا تافهة بل ممسوخة محرفة، موضوعة فى أسوأ إطار، خليقة بأن تنفر من الإسلام ورسالته، لا أن ترغب فيه وتجذب القلوب والعقول إليه.

وهذا النقص الخطير قد لاحظه الغيورون الصادقون ونقدوه ونددوا به منذ زمن غير يسير، فنقرأ للمنفلوطى الأديب المشهور فى «النظرات» هذه العبارات المتوقدة.

«إن عارا على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى فى مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف عن تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث داروين ما لا يحفظ من حكم الغزالى وأبحاث ابن رشد، ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبى والمعرى».

ولم يكن الخطر فى قصور المعلومات الإسلامية وقلتها من ناحية (الكم) فحسب، بل كان فى قيمتها ونوعيتها من ناحية (الكيف) أيضا، فهى معلومات مشوشة ومضطربة، وغير مترابطة ولا معللة. وأهم من ذلك كله وأعظم تمثل الخطر فى فلسفة النظام كله، الذى يقوم على الأسلوب الغربى، والتفكير الغربى، والمبادئ الغربية. وينظر إلى الإسلام كما ينظر إلى الكونفوشيوسية فى الصين أو البوذية فى كوريا، ويقدم للطلاب من المعلومات والدراسات ما يقربه إلى المستعمر وحضارته، بقدر ما يبعده عن دينه وشريعته، ويفصله عن أمته وتاريخها وأمجادها.

ومن لم ينضجه هذا التعليم من النابهين المرجوين، يسرت له السبل ليذهب إلى هناك، إلى الغرب فى عقر داره، ومهد حضارته، ليتم إنضاجه، وتكمل تسويته، هناك على الوجه المطلوب، حتى يعود خلقا آخر وإنسانا جديدا قد خلع زيه الشرقى القديم، وخلع معه قيمه وأفكاره التى تعلمها من دينه ومجتمعه من قبل..

وكان من عند هؤلاء: أن الذين يتكلمون باسم الإسلام – فى ذلك الوقت – فيهم كثيرون ممن تخلفوا عن ركب الحضارة أو جهلوا تطورها، كما جهلوا حقيقة الدين وروحه ولبابه، فوقفوا أحيانا فى وجه بعض العلوم النافعة، كما تشددوا فى أشياء حسبوها من الدين، وإنما هى مما خالط الدين وليس منه. فحسبت أقوال هؤلاء المتزمتين ومواقفهم على الإسلام، وهو منها براء.

فلا غرو إذا رأينا هولاء العصريين، وقد جهلوا دينهم وتراثهم، وتاريخهم وثقافة أمتهم، وأساءوا الظن بكل ما يجئ من قبل دينهم وحضارتهم، والناس دائما أعداء ما جهلوا – وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [يونس :٣٩] وكذلك جهل هؤلاء الإسلام فعادوه وخاصموه. ولعلهم فى ذلك شبه معذورين.

أقول : شبه معذورين، لأن الواجب عليهم – كان – ألا يحسنوا الظن بمستعمرى أوطانهم ومذلى شعوبهم، وأعداء دينهم، وكان واجبهم ألا يسلموا قياد عقولهم لغيرهم ، وألا يكونوا إمعات فى تفكيرهم، وألا يجعلوا أنفسهم عبيدا لغيرهم وقد خلقهم الله أحرارا.

وكان المنهج العلمى الذى تعلموه يقتضيهم أن يبحثوا عن حقيقة هذا الدين الذى جعل من قومهم – حين تمسكوا به وحكموه فى حياتهم – خير أمة أخرجت للناس، وفتحوا به الممالك، وسادوا به فى المشرق والمغرب، وأقاموا حضارة شامخة، استمرت نحو عشرة قرون، وأن يبحثوا فى هذا القرآن الذى

مضى عليه أربعة عشر قرنا، وهو باق لا يتبدل، يملك بسحره العقول والقلوب، ويتضمن أصح العقائد،وأقوم المفاهيم، وأرسخ القواعد، وأعدل الأحكام، وأزكى الأخلاق. وعلى أية حال، إذا كان هؤلاء شبه معذورين فيما مضى، فأى عذر أو شبه عذر لهم اليوم، وقد غدا الحال غير الحال؟

لم يعد صنم الحضارة الغربية على سحره وفتنته وبريقه كما كان بالأمس.

لقد ظهر للعيان إفلاس هذه الحضارة، وعجزها عن حراسة العدل والسلام بين البشر، وإقامة الحق والخير فى الأرض،و تثبيت الإيمان والفضيلة بين الناس.. وبرزت آفات هذه الحضارة وعيوبها للأحرار من أهلها أنفسهم، ووجهت إلى صدرها سهام النقد العلمي الأصيل من علماء ومؤرخين وفلاسفة ومصلحين وفنانين من أبنائها الغربيين [1].

ولم تعد حضارتنا الإسلامية مطمورة مجهولة، أو ممسوخة، كما كانت من قبل، فقد تجلى - ويتجلى كل يوم - للدراسين إبداعها وشمولها وتوازنها وسماحتها، وأنها الحضارة الفذة التى جمعت - بل مزجت - بين الربانية والإنسانية بين نور الوحى ونور العقل، بين الرقى المادى والسمو الخلقى، بين العلم الواسع والإيمان الراسخ، بين الثبات على المباءئ والغايات، والتطور فى الوسائل والآلات، بين تحقيق الحرية للفرد، والحفاظ على مصلحة المجتمع.. وقد شهد بفضل هذه الحضارة العالمية الأصيلة شهود من سادة هؤلاء ومعبوديهم وكفى بهم عندهم شهداء.

ولم يعد ديننا العظيم «الإسلام» غامضا أو مشوها، كما كان من قبل، فقد هيأ الله له من العلماء المخلصين والدعاة الصادقين فى مختلف بلاد المسلمين من جلوا غوامضه، ونفضوا الغبار عن جواهره، وردوا الشبهات والأكاذيب عن أحكامه وتعاليمه، وعن نبيه وكتابه، وعن أمته وتاريخه.

---

(١) اقرأ في ذلك: الفصل الثالث في كتابنا (الإسلام حضارة الغد) بعنوان: عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار.

وزخرت المكتبة الإسلامية – فى شتى اللغات – بمجموعة رائعة من الكتب والدراسات ما بين مطول ومختصر ووسيط، أبرزت الأصالة والسمو والتوازن والتكامل والإعجاز فى جوانب الإسلام كافة، فى العقائد والعبادات والتشريع والأخلاق، وفى سائر مجالات حضارة الإسلام.

فليت شعرى أى عذر أو شبه عذر اليوم لذلك النفر من قومنا؟ وما حجتهم عند الله وعند الناس إذا ظلوا مصرين على عبوديتهم القديمة، بعد أن تجلت لهم كل هذه الحقائق عن دينهم وتراثهم، وبعد أن انكشف للأعين البصيرة سوءات سادتهم من المستشرقين والمبشرين، فضحتها الأقلام الواعية المؤمنة، وكشفت اللثام عما فى منهجهم ودراساتهم من القصور والانحراف والتحامل، واتباع الظن وما تهوى الأنفس؟ وبعد أن اتضح لهم من أحابيل اليهودية العالمية ما كان خافيا من قبل.

نتمنى على هؤلاء النفر من بنى جلدتنا، أن يراجعوا أنفسهم، وأن يصححوا موقفهم، ويعودوا بشجاعة إلى حضن أمتهم، ولا يظلوا جامدين على ما كانوا عليه. فالمثقف الحر المخلص هو الذى يركض وراء الحقيقة حتى يعثر عليها، فإذا وجدها أعلن عنها، وإن خالفت ما كان يؤمن به بالأمس.

وبارك الله فى رجال انكشفت لهم الحقيقة، فأعلنوها ولم يبالوا. مثل: د. مصطفى محمود، و الأستاذ إسماعيل مظهر، والأستاذ خالد محمد خالد، وغيرهم كثيرون، ممن صدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾

[الزمر: ١٧، ١٨]

● **كلمتان أخيرتان:**

وأود أن أختم هذا الفصل بكلمتين أخيرتين:

الكلمة الأولى: أن خصومتنا لعبيد الفكر الغربى من بنى جلدتنا، لا تعنى أن نعرض وننأى بجانبنا عن الفكر الغربى كله، شره وخيره، ومره وحلوه، وخطئه وصوابه، وباطله وحقه. بل المطلوب أن نستفيد من إيجابيات الفكر الغربى،

ونتجنّب سلبياته، ونقتبس من خيره وصوابه، ونبتعد عن شره وخطئه. ومقتضى هذا أن ندرس الفكر الغربى بمدارسه المختلفة، واتجاهاته المتعددة، لنكتشف ما فيه من حق وخير فننتفع به. والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

قد نرفض الفكرة الكلية، أو الفلسفة الكلية لمذهب ما، أو لمدرسة ما، ومع هذا قد نجد فى تضاعيف هذه الفكرة أو الفلسفة من المفاهيم والأفكار الجزئية، ما يفيد البشر فى بعض شؤونهم أو يوافقهم.

وقد ذكرت فى أكثر من كتاب لى؛ أننا لا نمانع أن نقتبس بعض الأفكار النافعة من نشوئية (دارون) أو مادية (ماركس) أو تحليلية (فرويد) أو اجتماعية (دوركايم) وإن كنا نرفض الفلسفة الكلية لكل منهم. ولكن رفضنا لهذه الفلسفة لا يعنى أن يكون كل ما قالوه، خطأ بالضرورة، فقد يصيب المخطئ، ويصدق الكذوب.

إن رفضنا العبودية للفكر الغربى لا يستوجب رفضنا للفكر الغربى كله، ففيه قطعا ما ينفع. المهم هنا أن نقرأ ما شئنا أن نقرأ، ونقتبس ما شئنا أن نقتبس، ونحن أحرار لا عبيد، مستقلون لا تابعون، رؤوس لا أذناب.

والكلمة الثانية: أن العقود والسنوات الأخيرة فى ديارنا، قد شهدت تحول كثيرين من الذين اقتنعوا بالفكر الغربى، وساروا فى دربه ردحا من الزمن إلى ساحة الفكر الإسلامى، حتى أصبحوا من دعاته والمتحمسين له، والمدافعين عنه.

وقد عرف الناس كثيرا من هؤلاء الشجعان الأحرار، مثل إسماعيل مظهر، ود. مصطفى محمود، وخالد محمد خالد، وغيرهم فى مصر، وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية.

ولا زالت الساحة الإسلامية - ما بين الحين والحين - تكسب عناصر قوية، ومفكرين شرفاء، يغيرون مواقعهم، ويتحررون من أسرهم الفكرى المتغرب، ليعلنوا فى شجاعة انضمامهم إلى الركب الإسلامى الزاحف: ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

(٦)

المترفون والمتحللون

المترفون والمتحللون

العدو السادس من الذين يعادون الحل الإسلامى، ويتوجسون منه، ويقفون فى وجهه: صنف من الناس وقف دائما فى وجه كل رسالة، وقاوم كل دعوة إلى الحق والعدل، أولئك هم المترفون والمتحللون وأصحاب الشهوات.. فهم حريصون على لهوهم ومتعهم، حريصون على شهوات بطونهم وفروجهم، حريصون على أن يظلوا غارقين فى الذهب والحرير، والخمر، والميسر، فى الموائد الخضر، والليالى الحمر، والمسالك السود.

هؤلاء يخشون الإسلام، لأنه سيحرمهم متعهم الحرام، وسيسد فى وجوههم أبواب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، بل ربما يقيم عليهم حدود الله التى تهتك سترهم أمام طوائف المؤمنين الذين لا تأخذهم بهم رأفة فى دين الله.

إن حياة العفاف والطهر والنظافة ثقيلة على هؤلاء كالجبل، مرة المذاق كالحنظل، دقيقة مخوفة كحد السيف.

إن أضواء هذه الحياة الشريفة الجادة الطاهرة تعشى أبصارهم، لأنها لم تتعود إلا حياة الظلام والسواد كالخفافيش.

حياة بلا خمر ولا ميسر ولا نساء؟!

حياة بلا رقص ولا فجور، ولا عبث ولا مجون؟!

حياة بلا حانات ولا كباريهات؟!

حياة يجلد فيها السكيرون، ويعزر فيها المقامرون ويحجر فيها على السفهاء المبذرين، ويجلد أو يرجم الزناة ودعاة الشذوذ والدياثة؟!

إن حياة من هذا النوع إنما هى جحيم لا يطاق.. والواجب أن يحارب أنصارها، ويطارد الدعاة إليها.

هذا هو منطق المتحللين، وأصحاب اللذات الحيوانية منذ عهد قوم لوط

الذين: ﴿ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء:١٦١ – ١٦٧].

كما ذكر القرآن في آية أخرى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

يا عجبا!! إن الدعوة إلى الطهر والفضيلة أصبحت تهمة في نظر المتحللين وتستحق أن يطرد أصحابها من البلد وينفوا من الأرض.. ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾!!

هذا هو منطق المترفين والمتحللين قديما- وهذا منطقهم حديثا (تشابهت قلوبهم).

وأكد القرآن هذه السنة الاجتماعية حين بين لنا أن المترفين دائما أعداء كل رسالة، وخصوم كل إصلاح وتجديد، وأنصار الجمود على كل قديم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤] وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾

[الزخرف:٢٣ – ٢٤]

فالقوم عبيد شهواتهم، وإنما يتخذون الآباء عكازا يتوكأون عليه، وهذا دأبهم دائما: يفرون من المواجهة، وينقلون القضية إلى ميدان آخر، كالحفاظ على تراث الآباء، هنا!.

وأحيانا أخرى يجعلونها قضية فكرية « أيديولوجية » فهم يرفضون الدين

كله بوصفه عقيدة وفكرة ومنهج حياة، لا لأنه يلزمهم الجادة، ويفرض عليهم الاستقامة، ويقيدهم بالفضيلة، وهم أسرى الهوى، وعباد الشهوات، كما هو الواقع.

بل هم يرفضون الدين - بزعمهم - لأنهم غير مقتنعين بالدين، لأنهم «علميون» أو «واقعيون» أو «عصريون» أو «ملحدون» «والدين رجعية» و«الدين خرافة»، «والدين مخدر».

الحقيقة أن القوم منحلون، لا ملحدون ، أعنى أنهم انحلوا أولا من كل فضيلة وشرف، وانغمسوا فى كل رجس ورذيلة، ثم بحثوا عن مبرر يسترون به سوءاتهم، مبرر يحلل لهم الاستمرار فى الخبث والنجس والعفن، مبرر يعفيهم من تحمل مسؤولية انحرافهم وتلوثهم أمام ضمائرهم على الأقل، فوجدوا هذا المبرر فى بدعة الإلحاد، وخلع ربقة الدين، والسخرية من المتدينين المستقيمين، أن يقولوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر!

وصدق ما قاله شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود: إن الإلحاد فى ديارنا ليس إلحاد عقل وفكر، ولكنه إلحاد بطن وفرج!!

ومثل هؤلاء المترفين والمتحللين - بل منهم - كثير من أصحاب المال والسلطان والملك، من الحكام المستبدين، والإقطاعيين المتسلطين، والرأسماليين الجشعين، وكل ذى سلطة حرام، أو ثروة حرام، أو امتياز حرام، فهو يخشى من النظام الإسلامى أو المنهج الإسلامى أو الحل الإسلامى، أن يعامله بالقسط، ويحاسبه بالعدل، ويقومه بالحق، ويجرده من سلطته أو امتيازه أو ثروته، أو مكاسبه التى حصل عليها ظلما وعدوانا، ولا يتيح له من الفرص أكثر مما يتيح لغيره من بنى قومه.

هؤلاء المحتكرون للمال والجاه، المستغلون لعرق الكادحين من جماهير الأمة، الآكلون لأموال الناس بالباطل، المتمتعون بالامتيازات والفرص الذهبية، التى لم يتح عشرها، أو عشر عشرها لغيرهم، الفاغرون أفواههم لابتلاع الرشا بالملايين، يخافون حكم الإسلام ويكرهونه.

وكراهية هؤلاء للحل الإسلامى، إنما هى كراهية اللصوص للقانون العادل الذى يخشون سلطانه، ويخافون جزاءه، أو للشرطى الشريف الذى يقبض عليهم بشجاعة، أو للقاضى النزيه الذى لا يقبل رشوة، ولا ينحنى لسطوة، ويحكم عليهم بالقسط لا يخاف فى الله لومة لائم.

ولكنهم أخبث وأدهى من أن يعلنوا ذلك أو يصرحوا به. بل يعلنون شيئا آخر يعللون به معاداتهم للاتجاه الإسلامى - مثل اعتذارهم بوجود الأقليات غير المسلمة، أو قولهم: إن عصرنا أصبح عصر العلم لا عصر الدين، كأن الدين والعلم خطان متوازيان لا يلتقيان!! أو ادعاء بعضهم أن العالم قد تطور ولم يعد يصلح أن تحكمه شريعة عمرها أربعة عشر قرنا!!

إلى غير ذلك من الأباطيل والشبهات التى تجيد صناعتها وإذاعتها القوى العالمية المعادية للإسلام فى الخارج، وعملاؤها وأعوانها فى الداخل، من الاستعمار وتلاميذه، واليهودية ومؤسساتها، والشيوعية وذيولها، ومن عبيد الفكر الغربى الذين يرددون ما يقوله هؤلاء من حيث يعلمون أو لا يعلمون، ومن الحكام المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما يؤمرون: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة:١١، ١٢].

* * *

الفهـــرس

رقم الايداع : ١٤٢٩٣ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 994 - 225 -150 - 4

مؤلفات فضيلة الدكتور: يوسف عبد الله القرضاوى

● في الفقه وأصوله

١ ـ الحلال والحرام في الإسلام
٢ ـ فتاوى معاصرة ج١
٣ ـ فتاوى معاصرة ج٢
٤ ـ تيسير الفقه : فقه الصيام
٥ ـ الاجتهاد في الشريعة الإسلامية.
٦ـ مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية
٧ ـ من فقه الدولة في الإسلام.
٨ ـ نحو فقه ميسر معاصر.
٩ ـ الفتوى بين الانضباط والتسيب.
١٠ ـ عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية.
١١ ـ الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد.
١٢ ـ الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط.

● في الاقتصاد الإسلامي

١ ـ فقه الزكاة (جزءان).
٢ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.
٣ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء.
٤ ـ فوائد البنوك هي الربا الحرام.
٥ ـ دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي.

● في علوم القرآن والسنة

١ ـ الصبر في القرآن.
٢ ـ العقل والعلم في القرآن الكريم .
٣ ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟
٤ ـ كيف نتعامل مع السنة النبوية؟
٥ ـ تفسير سورة الرعد؟
٦ ـ المدخل لدراسة السنة النبوية .
٧ ـ المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان).
٨ ـ السنة مصدرا للمعرفة والحضارة

● عقائد الإسلام:

١ ـ وجود الله
٢ ـ حقيقة التوحيد

● في تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة

١ ـ الحياة الربانية والعلم
٢ ـ النية والإخلاص
٣ ـ التوكل.
٤ ـ التوبة إلى الله .

● في الدعوة والتربية:

١ ـ ثقافة الداعية.
٢ ـ التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا.
٣ ـ الإخوان المسلمون ٧٠ عاماً في الدعوة والتربية
٤ ـ الرسول والعلم.
٥ ـ الوقت في حياة المسلم.
٦ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد

● في ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية

١ ـ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والأسلامي.
٢ ـ أين الخلل.
٣ ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة.
٤ ـ في فقه الأولويات.
٥ ـ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه.
٦ ـ الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة.
٧ ـ ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده.
٨ ـ غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.
٩ ـ شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان
١٠ ـ الأمة الإسلامية حقيقة لاوهم.
١١ ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.
١٢ ـ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.

● سلسلة : حتمية الحل الإسلامي

١ ـ الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.
٢ ـ الحل الإسلامي فريضة و ضرورة.
٣ ـ بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين.

● نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام

١ ـ شمول الإسلام.
٢ ـ المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة
٣ ـ موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى
٤ ـ السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها .

● إسلاميات عامة

١ ـ الإيمان والحياة.
٢ ـ العبادة في الإسلام
٣ ـ الخصائص العامة للإسلام.
٤ ـ مدخل لمعرفة الإسلام.
٥ ـ الإسلام حضارة الغد.
٦ ـ الناس والحق.
٧ ـ جيل النصر المنشود.
٨ ـ درس النكبة الثانية.
٩ ـ خطب الشيخ القرضاوي ج١ .
١٠ ـ خطب الشيخ القرضاوي ج٢ .
١١ ـ لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر.
١٢ ـ قضايا معاصرة علي بساط البحث.
١٣ ـ قطوف دانية من الكتاب والسنة.

● شخصيات إسلامية

١ ـ الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه.
٢ ـ الشيخ الغزالي كما عرفته : رحلة نصف قرن.
٣ ـ نساء مؤمنات.

● في الأدب والشعر

١ ـ نفحات ولفحات ـ ديوان شعر.
٢ ـ المسلمون قادمون ـ ديوان شعر.
٣ ـ يوسف الصديق ـ مسرحية شعرية.
٤ ـ عالم وطاغية ـ مسرحية تاريخية.

● رسائل ترشيد الصحوة

١ ـ الدين في عصر العلم.
٢ ـ الإسلام والفن.
٣ ـ النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه.
٤ ـ مركز المرأة في الحياة الإسلامية.
٥ ـ فتاوى للمرأة المسلمة.
٦ ـ جريمة الردة وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة.
٧ ـ الأقليات الدينية والحل الإسلامي.
٨ ـ المبشرات بانتصار الإسلام.
٩ ـ مستقبل الأصولية الإسلامية .
١٠ ـ القدس قضية كل مسلم .
١١ ـ ظاهرة الغلو في التكفير .

● محاضرات الدكتور القرضاوي :

١ ـ لماذا الإسلام ؟
٢ ـ الإسلام الذي ندعو إليه .
٣ ـ واجب الشباب المسلم .
٤ ـ مسلمة الغد .
٥ ـ الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير
٦ ـ قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام
٧ ـ لكي تنجح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر .
٨ ـ التربية عند الإمام الشاطبي .
٩ ـ مع المصطفى في بيته .
١٠ ـ السنة والبدعة .
١١ ـ زواج المسيار ـ حقيقته وحكمه .
١٢ـ الضوابط الشرعية لبناء المساجد
١٣ـ موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى